جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بابل/ كلية العلوم الاسلاميّة
قسم علوم القرآن/ الدّراسات العليا

التَّفْسِيرُ الموضُوعيّ بَيْنَ الثَّابِتِ والمُتَغَيِّر
(دِرَاسَةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ)

رِسَالَةٌ تَقدَّمَ بها الطالب

(أمجد ستار فاضل الطائيّ)

إلى مجلس كلّيّة العلوم الإسلاميَّة/ جامعة بابل، وهي جزءٌ من متطلّبات نَيْلِ شهادة الماجستير في علوم القرآن

بإشراف الأستاذ الدكتور

(دريد موسى داخل الأعرجيّ)

١٤٤٤هـ ٢٠٢٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

(سورة المُجَادلة: من الآية ١١)

صَدَقَ الله العَلِيُّ العَظِيمُ

الإهْداءُ

إلى مَنْ ﴿رَّبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [1] .

وساندني كبيرًا . . . أبي وأمي العطوفَينِ . . . حفظهما اللهُ (تعالى) .

إلى مَنْ جعلَ اللهُ (تعالى) بيني وبينها مودةً ورحمةً زوجتي الغالّية الطبيبة سارة صادق جابر . . .حفظها الله (تعالى) لي .

إلى أَخْوِيَّ وأخواتي الكرام . . حفظهم اللهُ (جلَّ جلالُهُ) .

إلى أساتيذي الأفاضلِ الكرامِ في قسمِ علُوم القرآن الّذين كان لهم فضل التلمذةِ والتلقّي في مرحلتي: البكالوريوس والماجستير حبًّا وكرامة ، أسأل الله (جلّ وعلا) أنْ يمدَّهم من واسع فضله وَيَمنَّ عليهم بالصَّحةِ والعافيّةِ .

أُهديكم ثمرة جهدي . . .

الباحث

(1) الإسراء: من الآية ٢٤

شكرٌ وعرفانٌ

قال تعالى في محكمِ كتابهِ الكريم :﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [1] ، في البدء شكرًا لله تعالى وفاءً مني لِما تفضَّل بهِ عليَّ بدوامِ نِعَمِهِ وكرّمه وآلائهِ ، فبشكره تَزيدُ النّعمُ وتَدُومُ ، والشكرُ للنبيّ الكريم محمّدٍ المصطفى (صلى الله عليهِ وآلِهِ وسلم) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، إذ همُ الوسيلةُ التي بها استجاب الله (جلَّ جلالُهُ) دعائي ورزقني هذهِ النعمة .

وأخصّ بالشكرِ مشرفي جناب الأستاذ الدكتور (دريد موسى الأعرجيّ) الموقر. رئيس قسم علوم القرآن، الذي كان له الأثر الطيّبُ والزّكيّ في الإرشادِ والتّوجيهِ والإبراق بالملاحظات القيّمة السّديدة .

وأتقدم بوافر الشكر إلى عميد كليتنا الاستاذ الدكتور (عامر عمران الخفاجيّ) الموقر ، ومعاونيهِ المكرَّمين الاستاذ الدكتور (محمد طالب الحسينيّ) والاستاذ الدكتور (علي حسوني الشريفيّ) .

ويطيب لي أن اتَقَدّم بموفور الشكر والامتنان الصادقين لأساتيذي الكرام في قسم علوم القرآن الذين أناروا طريقي للوصول إلى هذهِ المرحلة ، أسأل الله (جلَّ جلالُهُ) التوفيق والسَدَّاد والامتداد ليفيدوا ويزيدوا .

كما أتوجه بأسمى عبارات الشكر إلى رئيس اللجنة الموقر الأستاذ الدكتور (حكمت عبيد الخفاجي) الذي أضفى على الرسالة وزادها رونقًا بملاحظاتهِ القيّمة وكذا الملاحظات السديدة من أعضاء اللجنة المحترمون. من كُليتنا أيضًا الدكتور (هيثم خضيّر عباس) المحترم. ومن محافظة ديالى العزيزة حلَّ علينا ضيفًا كريمًا الدكتور (حقي حمدي خلف) فلهم جزيل الشكر والثناء وأسأل الله (تعالى) لهم التوفيق والسداد .

([1]) ابراهيم : ٧

وأتقدم بالشكرِ الجزيل والثناء العاطر إلى كل مَنْ أسهم بمساعدتي على إتمام هذا العمل ولاسيما موظفو كليتنا المحترمون ، وأخصُّ بالذكرِ ملاك مكتبة كليتنا المحروسة ، أمينة المكتبة السيدة (نداء جواد المعموريّ) المبجلّة ، الأستاذ (زيد نوري سعيد) الموقر .

الباحث

أمجـــد ستـــار فاضـــل

المحتويات

الآية ..... أ

الاهداء..... ب

شكر و عرفان ..... ج- د

المحتويات ..... هـ

المقدمة ١

التمهيد : التعريف بـ(التفسير الموضوعي بين الثابت و المتغير) مقاربات تأصيلية ٦

أولا : التفسير الموضوعي بوصفه مركبا وصفيا ٧

تعريف التفسير ٧

تعريف الموضوعي ١٢

ثانيًا : تعريف الثابت ١٧

ثالثا : تعريف المتغيّر ٢٠

الفصل الاول : منطلقات التفسير الموضوعي (الجذور و الاسس) ٢٤

توطئة ٢٥

المبحث الاول : تفسير القرآن بالقرآن ٢٦

المطلب الاول : تفسير القرآن بالقرآن عند النبي الاكرم (ﷺ)..... ٢٨

المطلب الثاني : تفسير القرآن بالقرآن عند أئمة اهل البيت (عليهم السلام) ٢٩

المطلب الثالث : منهج الصحابة و التابعين في تفسير القرآن بالقرآن ٣١

المطلب الرابع : ما يطلب من المفسر في تفسير القرآن بالقرآن..... ٣٤

المطلب الخامس : المدونون في التفسير الذين اعتمدوا هذا المنهج ٣٥

المبحث الثاني : قاعدة الجري و التطبيق ٣٩

التمهيد: الاهمية والتاريخ ٣٩

المطلب الاول: مفهوم قاعدة الجري و التطبيق ٤٠

المطلب الثاني: اشكال الجري و التطبيق و اجراءاتها ٤١

المطلب الثالث: ادلة قاعدة الجري و التطبيق ٤٤
المبحث الثالث: نظرية التدبّر في القرآن الكريم ٤٨
المطلب الاول: في مفهوم التدبر ٤٩
المطلب الثاني: حكم التدبر ٥٣
المطلب الثالث: وسائل التدبر في القرآن الكريم ٥٥
المبحث الرابع: عقلية المفسر ٦٠
المطلب الاول: في مفهوم العقل ٦٠
المطلب الثاني: العلاقة بين العقل و الوحي ٦٢
المطلب الثالث: مصطلح (العقلية) بوصفه ركيزة مهمة لمنهج التفسير الموضوعي ٦٣
الفصل الثاني: الثابت في التفسير الموضوعي ٦٨
توطئة ٦٩
المبحث الاول: الاشارات الاستباقية أو (المنابع الاولى) عند العلماء في التفسير الموضوعي ٧٠
المطلب الاول: الاشارات الاستباقية عند المفسرين ٧٠
المطلب الثاني: الاشارات الاستباقية في كتب معاني القرآن ٨٧
المطلب الثالث: الاشارات الاستباقية في كتب علوم القران ٨٩
المبحث الثاني: المعالم الصريحة للتفسير الموضوعي الثابت ٩٣
المطلب الاول: فقه القرآن ٩٤
المطلب الثاني: أمثال القرآن ١٠٠
المطلب الثالث: اشارات في التفسير الموضوعي عند المستشرقين ١٠٣
الفصل الثالث: المتغير في التفسير الموضوعي (مرحلة قبل النضوج) ١٠٩
توطئة ١١٠
المبحث الاول: تجديد الاحساس الزمني بالنص القرآني ١١١
المطلب الاول: بواكير التجديد و المعاصرة عند الشيخ محمد عبده ١١١
المطلب الثاني: منهج محمد عبده في الوحدة الموضوعيّة وتطبيقه لها ١١٣

المبحث الثاني: صيرورة مصطلح التفسير الموضوعيّ (الإشارات الأولى له) ١١٦

المطلب الأول: أمين الخولي المنظر الأول للتفسير الموضوعيّ (مرحلة التأصيل) ١١٧

المطلب الثاني: إرساء مصطلح التفسير الموضوعيّ عند عائشة عبد الرحمن ١٢٦

المبحث الثالث: الدراسات التطبيقيّة لمنهج التفسير الموضوعيّ في العصر الحديث ١٣٨

المطلب الاول: الدّراسة التطبيقيّة لشكريّ عيّاد، في كتابهِ (من وصف القرآن- يوم الدين والحساب) ١٣٨

المطلب الثاني: الدراسة التطبيقيّة لمحمد أحمد خلف اللّه في كتابهِ (الفن القصصيّ للقرآن الكريم) ١٤٩

الفصل الرابع: المتغيّر في التفسير الموضوعيّ (مرحلة النضوج) ١٥٤

توطئة: ١٥٥

المبحث الأول: مظاهر النضوج للتفسير الموضوعي ١٥٦

المطلب الأول: مظهر تكون المصطلح واستقراره ١٥٦

المطلب الثاني: مظهر التطبيق والتأليف ١٦٦

المطلب الثالث: خصائص مرحلة النضوج للتفسير الموضوعي ١٧٦

المبحث الثاني: من تجارب أعلام مرحلة النضوج ١٨٢

المطلب الأول: الرائد المخطط محمد باقر الصدر ١٨٢

المطلب الثاني: الدكتور حكمت عبيد الخفاجي، معالم جديد..... ..... ١٩٧

المطلب الثالث: تجربة الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي ٢٠٧

خاتمة الرسالة ونتائجها وتوصياتها ٢١٦

المصادر والمراجع ٢٢٠

ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية ٢٣٠

المقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمدُ لله الذي أنزل القرآن كلامًا مؤلّفًا منظمًا، ونزَّله بحسب المصالح منجّمًا، وجعله بالتحميد مفتتحًا وبالاستعاذة مختتمًا، الحمدُ لله الباعث الحكيم الوارثِ العليمِ الذي خلق الإنسانَ في أحسنِ تقويم، وحباهُ البيان فكان آية للعالمين، وصلَى اللهُ على المبعوث رحمةً للعالمين الحبيب محمد المصطفى عليه و آله أفضل الصلاة وأتمّ التّسليم .

أمَّا بعد، فأنَّ باب (تفسير القرآن) لا يُمكن أنْ يُغْلَقَ؛ لأنَّ القرآن الكريم رسالةٌ حيَّةٌ ومَهّمة مستمرة حتى قيام السّاعة، ولا يزال المسلمون يقبلون على القرآن حتى قيام الساعة، يتلونه ويتدبّرونه، ويفسرونه ويؤولونه، ويسيرون على هديهِ ويترسَّمُونَ نَهْجَهُ ويتحركون بهِ ويعيشون في ظلالهِ، من هنا ظهرت مناهجُ واتجاهات تفسيرية للقرآن الكريم في كل مرحلة ، وأضافَ العلماء في كلِّ عصر أبعادًا وآفاقًا ومضامينَ جديدةً إلى التفسير، وقدّموا قراءاتٍ وممارساتٍ تفسيريّة وأسسًا جديدة إلى مناهج التفسير السابقة.

من ذلك يَطيبُ لي أنْ أُقدِّمُ رِسالةَ علميّة إلى قسم عُلُومِ القُرْآنِ في كُلّيتِنا المحروسة، والمُوسُومة بـ (التَّفسِير المُوضُوعيّ بينَ الثَّابت والمُتغيِّر - دراسَة تحليليَّة -) وأحسبُ أنَّ له أهميَّة كبيرة في المنظومة التفسيريَّة الإسلاميَّة .

أولًا: سبب اختيار الدّراسة

تُعدُّ هذهِ الدّراسة من الدّراسات البِكر التي تحاول أن تجمعَ بين ثنائيّة (الثابت والمتغيّر) في التفسير الموضوعيّ، فهذا التفسير قد مرَّ بمراحل ومَدَارجَ متعدّدة، فأطلقنا على المرحلة الأولى (مرحلة الثابت والتأصيل)، بعد ذلك تطور هذا المنهج في ظلِّ إضافة آليات وخطوات جديدة له، فأصبح في مرحلةٍ أخرى أطلقنا عليها (مرحلة المتغيّر والتجديد)، وهذا المتغيِّر كان في مرحلتين : (مرحلة غير ناضجة) و (مرحلة ناضجة) . فالموضوع جديد يخدم القارئ في التعرف على الثابت في هذا المنهج التفسيريّ، و يتعرف على المُتغيِّر في هذا المنهج كذلك، فتكون لديهِ الرؤيةُ واضحةً بقدر المُكنة والسَّعة.

ثانيًا: أهميّة الدّراسة

هذهِ الدّراسة لها أهميَّة؛ لأنَّها ستعنى بالوقوف على الإجراءات والتطبيقات بقدر المستطاع على مرحلة الثابت وبيان أهم خصائصه، وستعرف هذهِ الدّراسة أيضًا على مرحلة المتغيّر وتبيان أهم خصائصه مع الممارسة التطبيقيّة والإجرائيّة ، من هنا تكمن

أهميَّة هذهِ الدّراسة في كونها تُعطيّ مقاربةً تعريفيَّةً ورؤيّةً جديدةً ومعاصرةً لهذا المنهج المهم في الدّراسات القرآنيّة .

ثالثًا: الدراساتُ السابقة

ثمّة دراسات تناولت منهج التفسير الموضوعيّ، من حيث الجانب النظريّ والجانب التطبيقيّ معًا، ولكن ما يهمنا هو الدراسات الأكاديمية حصرًا التي درست محاور التفسير الموضوعيّ من جميع جوانبهِ، منها مثلًا :

- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وموضوعاته، للدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ، رسالة ماجستير صدرت سنة (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) وطُبع الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٤٤٣هـ / ٢٠١٣م .
- التفسير الموضوعيّ بين النظريّة والتطبيق، للدكتور صلاح الخالديّ، كانت طبعته الثالثة سنة ١٤٤٣هـ / ٢٠١٢م .

وتبين لي في ظلِّ معاينة هذهِ الدّراسات السابقة والوقوفِ على فصولها ومباحثها وخُطواتها أنّها لم تُشرْ لا من قريب ولا من بعيد إلى هذهِ الثنائيّة (الثابت والمُتغير) التي تعدُّ من الأمورِ المهمة في الدراسة؛ من خلال الوقوف على المنطلقات الرئيسة لهذا المنهج التفسيريّ وما مرَّ بهِ من مراحل تُعدُّ مدارج للتطوّر والتجديد، زِدْ على ذلك الإشارات الاستباقيّة لعلماء التفسير وعلوم القرآن وعلماء البلاغة وغيرهم .

رابعًا: خطة البحث

بعـد الاستقراء والمتابعـة، ولملمة المادة العلميَّة المتّصلة بالدّراسة، شَّرَعْتُ بِرَسْمِ هّيكَلِيَّة خطَّة لها على وسْمِ منهجيٍّ إخالُـهُ منسجِمًـا ومتسقًـا مع عنـوان الرِّسالـة، فاقتضى الأمرُ أن تكون الخُطّةُ على تمهيدٍ وأربعة فصُول، ثُمَّ أتبعتُها بخاتمةٍ تضمَنتْ أهم النتائج ولحقتها توصيَّاتٍ قد تفتح للباحثين مسارات جديدة في البحث العلميّ.

فانْعَقَدَ التَّمهيدُ الذي وسَمْتُهُ بـ (التعريف بـالتفسيرِ المُوضُوعيّ والثَّابت والمُتغيِّر) تناولت فيهِ التعاريف اللغويَّة والاستعمال القرآني و الاصطلاحيّ لمكونات العنوان كُلٌ على حدة .

جاء الفصلُ الأوّل بعنوان: (منطلقاتُ التّفسير الموضوعيّ "الجذور والأسس") تناولت فيهِ أربعةَ مباحثَ: انْعَقَدَ الأوّلُ للحديث عنْ (منهج تَفسِّير القرآن بالقرآن)، والثّاني للحديث عن (قاعدةُ الجَريّ والتَطبيق)، والثّالث عن (نظريةُ التَّدبر في القرآنِ)، وختمتهُ بالحديثِ عن (عقليةِ المُفَسّر) .

وانْعَقَدَ الفصلُ الثّاني بعنوان: (الثَّابِتُ في التفسّيرِ الموضُوعيّ) وجاء في مبحثين، تناولتُ في الأوَّل (الإشارات الاستباقيِّة أو المنابع الأولى عند العلماء في التّفسيرِ الموضُوعيّ)، وجاء الثَّاني عن (المعالم الصريحة للتّفسير الموضُوعيّ الثّابت).

وانعقدَ الفصلِ الثَّالث بعنوان: (المُتَغيُّر في التفسير الموضُوعيّ "مَرّحَلة قبل النُضُوج")، وُزِّعَتْ مادّتُهُ العلميَّة على ثلاثة مباحثَ، تناولتُ في الأول (تجديد الإحساس الزمنيّ بالنصّ القرآني)، وفي المبحث الثّاني عن (صيرورة مصطلح التفسير الموضوعيّ "الإشارات الأولى له")، وجاء الثالث مخصّصًا للحدّيث عن (الدّراسات التَّطبيقيَّة لمنهج التَّفسير الموضوعيّ في العصرِ الحديث).

وجاء الفصل الرابع وهو خاتمة فصول الرسالة بعنوان: (المتغيِّر في التفسّيرِ الموضُوعيّ " مرحلةُ النُّضُوج ") تناولتُ فيهِ مبحثين، تحدثنا في الأوّل عن (معالم النُضُوج للتفسير الموضُوعيّ)، وجاء الثّاني للحديث عن (من تجاربِ أعلام مرحلة النُضُوج).

خامسًا: منهج الدّراسة

اتخذْتُ المنهجَين (الوصفيّ والتحليليّ) القائمينِ على استقراءِ المادة العلميَّة المتصلة بالدّراسة ومتابعتها، فتتبعنا فيها مراحل نمو هذا النوع من التفسير وظهوره في ظلِّ رَصْدِنا للأسس والمنطلقات والجذور الأولى له، وكذا الإشارات التمهيديّة الاستباقيَّة للعلماء إلى ظهور المصطلح وتطورهِ وإرسائه ونضوجه الواضح في العصر الحديث .

سادسًا: المصادر والمراجع

استّقتُ دراستي هذه منْ مظانِّها الرّئيسة من مصادر ومراجع جاء القرآنُ الكريم في مقدّمتِها ثمَّ كتب التفسير أهمها : (جامع البيان للطبريّ "ت ٣١٠هـ") و (التبيان للطوسيّ "ت ٤٦٠هـ") و (الكشَّاف للزمخشريّ "٥٣٨هـ") و (الميزان للطباطبائيّ "ت ١٤٠٢هـ") وكذا كُتب علوم القرآن أهمها (البرهان في علوم القرآن للزركشيّ "ت ٧٩٤هـ") وأيضًا كُتب معاني القرآن الكريم ولا سيما (معاني القرآن للفراء "ت ٢٠٧هـ") ، واعتمدتُ بشكل كبير على الدراسات القرآنيَّة المعاصرة وأهمها (دراسة السيد محمد باقر الصدر في التفسير الموضوعيّ) و (دراسّة أستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ) وغيرها .

سابعًا: الصعوبات

تكأدّت رحلتي العلميّة في كتابة هذهِ الرسالة عقباتٌ كثيرةٌ، أهمها: سَعة الموضوع وعمْقُهُ لأنني جمعتُ بين مرحلتين علميتين في التفسير الموضوعيّ (الثابت والمتغيِّر) فالإحاطة بها ليس بالأمر الهيِّن؛ بسبب التوسع الكبير وصعوبة الحصول على بعض

المصادر وضيق المرحلة، ولكنني بذلت ما في وسعي في إبانة هذا الموضوع ، وفي النهايّة فأنَّ هذا العمل هو جهد بشريّ، ومهما بلغ لا يرتقي إلى الكمال، فلكمال الله (جلَّ جلالُهُ).

وفي الختامِ، أحْمَدُ اللهَ (عزَّ وجلَّ) على وصولي إلى مرحلة التمام، فإنْ كانَ عملي وجهدي صوابًا فمن فضل الله (تعالى) وآلائِهِ ومِنَنهِ، وإنْ كانَ فيهِ قصورٌ فمن عجزِي ووهني .

وآخِرُ دعوانا أنِ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الخلق أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد وآلِ بيته الطيبين الطاهرين .

الباحث

التَّمهِيدُ

التَّعْرِيفُ بـ (التَّفسِير الموضُوعيّ والثَّابِتِ والمُتَغيّرِ)

مُقَارَباتٌ تأصِيليّة

أولًا: التفسير الموضوعيّ بوصفهِ مركبًا وصفيًا :

١- تعريف التفسير :

- **التفسير في اللغة**

(الفَسّرُ) إمَّا أن يكون مصدرًا وهو الإبانة وكشف المغطى ، وهذا ما يراهُ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) والتفسير عندهُ هو البيان: بيان وتفصيل الكتاب [١]. أو أن يكون التفسِّير مأخوذًا من التفسرة : وهي القليل من الماء الذي يَنظرُ فيهِ الطَبيبُ وحكمه فيهِ [٢] [٣] ، فيكتشفونَ بهِ المرض ، فكما يكشفُ الطبيب بالنظرِ إلى الماءِ فكذلكَ يكشفُ المُفَسِّرُ عنْ ماهية الآية المباركة وشأنها وقصصها ومعناها .

ويذهبُ بعضٌ أنَّ التَفسّير تفعيل مقلوب الجذر عن " السَّفر " ومعناه أيضًا الكشف، يُقالُ: سَفرتْ المرأة سُفورًا إذا ألقتْ خمارها عنْ وجهها فهي سافرة ، وأسفرَ الصبحُ أضاءَ [٤] .

ويضعُ الراغب الأصفهاني مقارنة سليمة بين (السفرُ و الفسرُ) فيقول: ((الفسرُ والسفرُ يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما ، لكن جعلَ الفسر لإظهارِ المعنى المعقول ، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول: تفسرة وسمى بها قارورة الماء ، وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل سفرتْ المرأة عنْ وجهها، وأسفرَ الصبح)) [٥] .

وهذا ما ذهب إليهِ من المحدَثين أمين الخولي[٦] . والدكتور محمد حسين الصغير تحدث عن هذهِ المقارنة، فقال: ((استعمل الراغب الفسر للمعنى العقلي، والسفر للمعنى الحسيّ، فيقوم الأول بتصوير العمل الذهني أما الثاني فيتكفل بإبراز التشخيص الحسيّ))[٧]

من هذا يتبين لنا أن (التفسير) لغةً سواء أكانَ في أصلِ وضعه اللغوي الأصلي (فسر) أم كان مقلوب الجذر (سَفَرَ) معناه: الكشف والبيان والايضاح والظهور .

---

(١) ظ: كتاب العين، تح: إبراهيم السامرائي ، مهدي المخزومي ، ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ١٤٠٨ هـ : ٧ / ٢٤٧ (ف س ر) .

(٢) ظ: معجم مقاييس اللغة، بن فارس أبي الحسين أحمد بن زكريا الرازي (ت: ٣٩٥هـ) ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٩ هـ : ٢/ ٣٥٥ . (ف س ر) .

(٣) ظ: لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي البصري (ت: ٧١١هـ) ط٤، دار صادر ، بيروت ٢٠٠٥ م : ١١ / ١٨٠ (ف س ر) .

(٤) ظ: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) ط١، دار التراث ١٩٨٤م : ٢ / ١٤٧ .

(٥) ويُنظر: البرهان : ٢ / ١٤٨ . ويجدر بالذكرِ أنَّ هذهِ المقارنة التي ذكرها الزركشيّ ليس لها وجود في كتب الراغب الاصفهاني، ولكنني نقلتها كما هي في البرهان .

(٦) ظ: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، ط١، دار المعرفة، بيروت ١٩٦١م / ٢٧١

(٧) المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، د. محمد حسين علي الصغير، ، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ / ١٦

- **التفسير في الاستعمال القرآني:** وردت كلمة (التفسير) في القرآن الكريم مرة واحدة فقط ، وذلك في قولهِ تعالى:﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[١] . وعلى الرغم من ورودها مرة واحدة إلا أن بعضٌ من المفسرين لم يقفوا وقفة صبور في استجلاءِ الدلالة المرادة لهذا المفهوم (التفسير) إذ لم يعاينوا السياق الكليّ الذي ورد فيهِ، ولم تلقي العناية التفسيرية اللائقة[٢]، ويمكن تبيان دلالته المرادة بقدر الطاقة البشرية في ضوء المخطط الآتي :

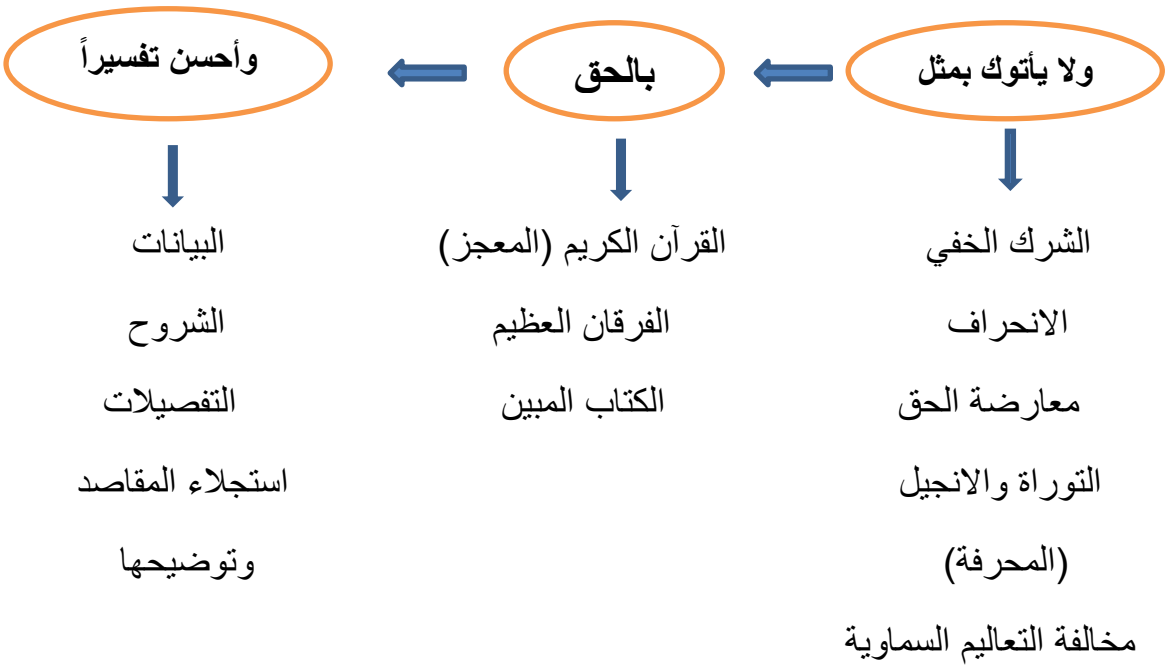

أي: ولا يقولونَ قولًا يُعارضونَ بهِ الحقّ ، إلا أجبناهم بما هو الحقُّ في نفسِ الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح منْ مقالتهم .

والمثل الوصف - أي لا يأتونك بوصف فيكِ أو في غيرِكَ حادوا بهِ عنْ الحقّ أو أساؤوا تفسيره إلا جئناك بما هو الحقّ فيه أو ما هو أحسن الوجوه في تفسيرهِ فإنَّ ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه أو حق محرف عن موضعه فالتفسير الأحسن يرده إلى مستواه و يقومه[٣].

هذهِ الآية المباركة بينت قوة إعجاز القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل ولا يكذبه شيء مما أنزل الله منْ قبل ، وأيضًا فيها تثبيت لفؤادِ النبي الأكرم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمْ) فما من آية نزلت عليهِ فَعَلمها نَزلتْ آية أخرى ليُعلِّمهُ الكتابَ عن ظهر قلب، ويُثبّت بهِ فُؤاده فكان

---

(١) الفرقان : ٣٣

(٢) ظ: مفاتيح الفهم القرآني لمفهوم التفسير من خلال ثلاثية آية الفرقان، صورية شرفاوي، جامعة باتنة، الجزائر، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية العدد ٣٢ جوان ٢٠١٥م / ٩١ .

(٣) ظ: الميزان في تفسير القرآن العلامة السيد محمد حُسين الطباطبائي، ط١، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٤١٧هـ : ١٥/ ٢١٢ .

القرآن الكريم ينزل عليه (صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) تدريجيًّا ،الآية بعد الآية ، والشيء بعد الشيء ﴿ **لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾[١] و من فوائد نزول القرآن التدريجي هو: تأييد النبي بالجواب الحاسم والصريح لأسئلة المنافقين والمخالفين في الظروف الحاسمة ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً** ﴾[٢] . فكلمَا ضربوا مثلًا ليخالفوا به النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) نزلت الآية المباركة في الوقتِ المناسب وانسجامًا مع أسباب النزول فيأتي بالجواب المناسب بأبهى وأفضل الكلمات ليلحقها التفسير الأجمل والأروع (بإزالةِ اللثامِ عن الألفاظِ المبهمة والمجملة في القرآن) لتُبيّن مراد الله تعالى من آياتهِ المباركة ، والكشف عنها وتفصيلها .

- **التَّفْسِيرُ اصطلاحًا :**

أما التفسير في الاصطلاح فقد اختلفت آراء العلماء فيهِ، فمنهم من توسع بهِ ليجعلهُ متناولًا لكل علوم القرآن الكريم، واقتَّصَرَ البعضُ الآخر منهم على الدلالة الموضوعيّة لألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها، أفرادًا وتركيبًا، وقسم آخر يعود بهِ إلى جملة ما في القرآن الكريم من مراد الله تعالى .

مَثَّلَ الطائفة الأولى كل من :

١- الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) بقولهِ : ((هو علم معاني القرآن وفنون أغراضهِ من القراءة، والمعاني، والإعراب، والكلام على المتشابهِ، والجواب على مطاعن الملحدين فيهِ، وأنواع المبطلين))[٣] .

٢- الزركشي (ت٧٩٤هـ) بقولهِ : ((التَّفسّيرُ علمٌ يعرف بهِ فهم كتاب الله المنزل على نبيهِ محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) وبيان معانيه، واستخراج أحكامهِ وحكمهِ، واستمدادُ ذلكَ منْ علمِ اللغةِ والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ))[٤] .

٣- السيوطي (ت ٩١١هـ) بقولهِ: ((التفسير: علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيّها ومدنِّيها، و محكمها و متشابهها، و ناسخَها ومنسوخَها، وخاصَّها وعامَّها، ومطلقَها ومقيدَها، ومجملَها ومفصلَها، وزاد قوم: حلالها وحرامها ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها وعِبرها وأمثالَها))[٥] .

---

(١) الفرقان : ٣٢ .
(٢) الفرقان ٣٢.
(٣) التبيان في تفسير القرآن ، تح: الشيخ الطهراني، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت : ١ / ٢- ٣
(٤) البرهان في علوم القرآن، تح: أبو الفضل ابراهيم: ١/ ٤١٦ .
(٥) الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت١٤٢٨هـ :٤/ ١٦٩

نرى مما تقدم أن الشيخ الطوسي ومن تابعه قد توسعوا إلى أقصى حد من شمول مختلف العلوم في بيان المعنى الاصطلاحي " للتفسير" ، فالزركشي تجاوز إلى مصادر التفسير فقد جعل من آداب وشروط المفسر أن يعوّل على جملة من العلوم الأخرى بوصفها مفاتيح لفهم النص القرآني وخطوات لتحليلهِ ولا سيما (علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان ، وعلم أصول الفقه، والشريعة ، أضف إلى ذلك فالمفسر يحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ)، في حين أدخل السيوطي جملة من العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم في مجال التفسير، فضلًا عن ذكرهِ المقاصد والأهداف والغايات التي يروم التفسير بيانها .

والطائفة الثانية مثلها أبو حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ) بقولهِ: ((التفسير علمٌ يبحثُ فيهِ عنْ كيفيةِ النطق بألفاظِ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمالك لذلك)) [١] . فأشار أبو حيان إلى متعلقات علم التفسير التي من خلالها نصل فيها إليهِ ، فالتفسير عنده من العلوم وقد أضاف قيدًا آخرًا له وهو قيد القراءات والأداء (علم التجويد)، وأيضًا أضاف المعاني والأحكام الصرفيـــة والنحوية والبيانية، فالكلمات عندما تنتظم في سياق خـــاصّ تُصبح لها معانٍ ودلالات جديدة تختلـف عمَّـــا لو كانـــت منفردة، ((وقولنا وتتمالك لذلك، وهو معرفة النسخ، وسبب النزول وقصّة توضح ...)) [٢].

أما الطائفة الثالثة مثلها كل من:

١- الطبرسي (ت:٥٨٤هـ) فعندَهُ التفسيرُ اجمالًا :((كشف المـراد عــن اللفظ المشـــكل))[٣] .

٢- الفناري (ت٨٣٤هـ) عرَّف التفسير بقولهِ: ((هو معرفة أحوال كلام الله تعالى من حيث القرآنية، ومن حيث دلالته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشريـّـــة)) [٤] .
ويبدو من تعريف الفناري الذي ذكر قيدًا (بقدر الطاقة البشرية) بمعنى إنَّ هذهِ الممارسة التفسيرية مهما بلغت من الإخلاص والدقة فإنها تكون بقدر طاقة البشرِ وفهمهم غير المطلق .

٣- عبد العظيم الزرقاني (ت:١٣٦٧هـ) فقد عَرَّفَ التفسيرَ بأنهُ : ((علمٌ يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية)) [٥] .

([١]) البحر المحيط في التفسير ، تح: الشيخ عادل أحمد ، و الشيخ علي محمد معوض ، ط[١]، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣ هـ : ١ / ١٠ .
([٢]) المصدر نفسه : ١ / ١٠
([٣]) مجمع البيان في تفسير القرآن ، ط[٢]، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٤٢٥هـ : ١ / ١٣ .
([٤]) كلمة في التفسير، مقدمة لمجمع البيان للطبرسي، أحمد رضا، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٤٢٢هـ : ١ / ٢
([٥]) مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فواز أحمد زمرلي، ط[١]، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٥هـ : ٢ /٦

إنَّ ما أبداه الطبرسي وحققهُ الفناري، واختاره الزّرقاني، قد يكون أقرب إلى طبيعة الدلالة الاصطلاحية للتفسير، ففيهِ تحديد لمفهوم المصطلح العلمي للتفسير، وحصر ارادته الفنيَّة عليهِ، وتقيده: بقدر الطاقة البشرية لا يخلو من دقة علمية وفيه بعد نظر واصابة [١].

٤- السيد محمد حسين الطباطبائي (ت:١٤٠٢هـ) فقد عرَّف التفسير باختصار بقولهِ : ((هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها))[٢].

وعلى الرغم من إنَّ السيد الطباطبائي لم يتوسع في تعريف التفسير إلا أنه ذكر فهمًا جديدًا لهذهِ الممارسة النقديّة للنصّ القرآني (التفسير) وهو تبيان مقاصد الآيات ومداليلها، والمراد منها الغايات والاهداف والحكم التي تستظهر من النصوص القرآنية .

٥- الشيخ فاضل اللنكراني (ت:١٤٢٨هـ) بقولهِ : ((التفسير بأنهُ كشف مراد الله ـ تبارك وتعالى ـ من ألفاظ كتابهِ العزيز، وقرآنهِ المجيد)) [٣] .

إنَّ لمفردة (التَفسير) معناها الخاص بها يقينًا، لكنه مع ذلك لها معنى واسع تعددت الآراء والأقوال في تشخيصه بين سعة وتضييق، وبين إطلاق وتقييد [٤] .

وعمومًا يمكننا أن نلحظ استعمال مفردة (التفسير) بثلاثة معانٍ: إذ تارة يراد بها (فِعلُ المُفسر) وتارة يراد بها (الكتاب) الذي وضع لشرح وتوضيح آيات القرآن الكريم، ومثاله التفاسير التي كُتبت على مر العصور منها على سبيلِ المثال تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي (ت: ١٤٠٢هـ) وأيضًا التفسير الأمثل وغيرها ، وتارة يراد بها (علم التفسِّيرُ): أي العلم الذي يشتملُ على الأركانِ المعروفة في تشكيل العلوم، لموضوعيّ العلم، ومسائل العلم، والمبادئ التصورية والتصديقية [5] فأن للتفسير موضوعًا، وتعريفًا، وهدفًا،وفائدة، وأصول يرتكز عليها.

إنَّ (علم التفسير) : هو ذلك العلم الذي يُعرّف الإنسان بمعاني ومقاصد الآيات القرآنية، ومصادرها، وأسسها، ومناهجها، ومعاييرها، وقواعدها [٦] .

---

(١) ظ: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم / ١٩
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ٤
(٣) مدخل التفسير، تح: مركز فقه الأئمة الأطهار، ط٤ ،دار اعتماد، قم المقدسة (د.ت) / ١٦٩
(٤) ظ:منهج التفسير التحليلي ، د. حكمت عبيد الخفاجي، ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ١٤٤٠هـ / ٢٨ .
(٥) ظ: منطق تفسير القرآن، محمد علي الرضائي الأصفهاني، ط١، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر ، قم ١٤٣٦هـ / ٢٣ .
(٦) ظ: كتاب التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، ، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٤هـ / ٥٠ .

وبذلك يكون لعلم التفسير موضوعٌ، وغاية، وهدف، وفائدة حالهُ في ذلك حال جميع العلوم الشرعية، بل تأتي لعلم التفسير أفضلية على غيرهِ كونهُ علمًا خادمًا لكلام الله تعـــالى [١].

وبعد هذهِ الالتفاتة إلى أقوال العلماء في تعريف (التفسير) بدا لي أنَّ التفسير: هو جهدٌ بشريٌ يهدف إلى كشف وبيان وإيضاح معاني الآيات القرآنية ومقاصدها ومداليلها التي تُفضي إلى مراد الله تعالى وذلك من خلال استعمال الأدلة العقليّة و النقليّة مع الاحتراز من الظن والاستحسان الذي يؤدي إلى التفسير بالرأي المنهِيِّ عنه . لذا فأنَّ تعريف التفسير اصطلاحًا لا يكاد يخرج عن الأصل اللّغويّ له وهو: (ارادة الكشف والبيان والإيضاح) .

٢- تعريف الموضوعيّ :

- **الموضوعيّ في اللغةِ :**

قالَ ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): ((الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض [للشيء]، والوضائع: قومُ ينتقلون منْ أرضٍ إلى أرضٍ يسكنونَ بها، والدابة تضع في سيرها وضعًا وهو سير سهل يخالف المرفوع، ووضع الرجل: سار ذلك السير، الموضع: الذي ليس بمستحكم الأمر)) [٢] .

والموضوعُ: مصدر قوُلك وضعتُ الشيء من يدي وضعًا وموضوعًا وهــو مثـل المعقولِ، وموضعًا، وهو لحسنُ الوضعةِ أي الوضع. والوضعُ أيضاً: الموضوعُ، سميّ بالمصدرِ وله نظائِرُ ... والجمعُ أوضاعٌ. يُقالُ: وَضَع الشيء من يدهِ يضعهُ وضعًا إذا ألقاهُ [٣] . ووضع الشيء في المكان: أثبتهُ فيهِ [٤] .

فمن هذهِ النصوص يمكن أن نرصد أربع دلالات للوضع لغةً منهــا: (١) دلالة السير، (٢) دلالة الانتقال، (٣) دلالة الأثبات، (٤) دلالة الالقاء . فالتفسير الموضوعيّ يرتبط ويتعلق بشكل أساس بهذهِ الدلالات، فهو عملية انتقال الموضوع الخارجيّ للنصّ القرآني، فضلًا عن ذلك إثبات الشيء من خلال السير مع الآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع الواحد للوصل إلى الغاية التي نبحث عنها أو القضية المراد اثباتها .

---

(١) ظ: منهج التفسير التحليلي / ٢٦ .
(٢) معجم مقاييس اللغة، تح: ابراهيم شمس الدّين، ط١ : ٦ / ١١٧- ١١٨ .
(٣) ظ: لسان العرب، مصدر سابق : ١٥ / ٣٢٦ .
(٤) ظ: المصدر نفسه : ١٥ / ٣٢٧ .

- **الموضوعيّ في الاستعمال القرآنيّ :**

وردت كلمة (وَضَعَ) ومشتقاتها في القرآن الكريم (٢٥) مرة ، والمتتبع للآيات التي تحمل تلك اللفظة يجد أنَّ منها ما دل على المعنى الحقيقي للوضع وهو الاثبات ونفيه (الترك) والالقاء ماديًّا ، ومنها ما دل على المعنى المعنوي له وهو الاثبات ونفيه أيضًا (الترك) والالقاء المتعلق بالأنفس والجوانح . أما الحقيقي فنحو قولهِ تعالى: ﴿ فَلَمَا **وَضَعَتْهَا** قَالَتْ رَبِّ إِنِّي **وَضَعْتُهَا** أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا **وَضَعَتْ**﴾[١] فـ(**وَضَعَتْهَا**) هنا بمعنى - ولدتها - ، أو قولهِ تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ **وُضِعَ** لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[٢]، أي مكان العبادة. وقولهِ جلَّ شأنه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ **تَضَعُوا** أَسْلِحَتَكُمْ﴾[٣]، وقولهِ تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ **تَضَعُونَ** ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾[٤]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن **يَضَعْنَ** ثِيَابَهُنَّ﴾[٥] ،

واستعمل معنويًّا كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. **وَوَضَعْنَا** عَنْكَ وِزْرَكَ﴾[٦]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٧]، وأيضاً استعمل الوضع لشيء من الأمور مما وراء المادة [٨] كما في قولـــه تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ...﴾[٩]، وقولـــهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[١٠]، فإن الكتاب والموازين من الموضوعات المناسبة ليوم القيامة .

ووضع الكلمات في مواضعها الصحيحة كما في قولهِ تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[١١].

وقولهِ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [١].

---

(١) آل عمران : ٣٦
(٢) آل عمران: ٩٦
(٣) النساء : ١٠٢
(٤) النور: ٥٨
(٥) النور: ٦٠
(٦) الشرح : ١ – ٢
(٧) الأعراف : ١٥٧
(٨) ظ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المحقق المفسر العلامة المصطفوي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٣٠هـ : ١٣ / ١٤٤ – ١٤٥
(٩) الكهف : ٤٩
(١٠) الأنبياء : ٤٧
(١١) النساء: ٤٦

وتجدر الإشارة إلى أنَّ المعنى اللغوي لمادة (و ض ع) هو وضع الشيء في محلّهِ، وهذا الوضع والاثبات تختلف خصوصيّاته باختلاف الموارد والمَضَانِّ التي يَرِدُ فيها من وضع الجنين في الولادة ، أو وضع السلاح والثياب وغيرها .

أما الذي نحنُ بصدده فهو استعمال القرآن الكريم الاعجازي الذي يقوم على وضع الدّال (اللفظ) والبناء (التركيب) في محلّهِ المناسب وهذا ما يعرف بـ (الوحدة الموضوعيّة) فيه، والمراد منها أن يكون العمل الفني متماسكًا إلى أبعد درجات التماسك، إذ إنَّ كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزيِّة واحدة؛ لأن العمل الفني لا يستغني عنها، أو إضافة جزئية اخرى يفتقر إليها، وهذا ما تنبه إليهِ المفسرون وعلماء القرآن، فقد أشاروا إلى مصطلحات تُبنى على نتائج الإخلال بالنظم القرآني كـ (فساد النظم)[٢]، (بتر النظم) ، (هدر الدّلالة)، (ذهاب الرونق)[٣] ، وينبغي ابتداءً أنَّ القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين (الفنيِّة والدينيِّة) ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى فضلًا عن ذلك وضع الموضوعات المختلفة و المتنوعة في سياقاتها الملائمة ، وبذلك نجد اكتمال الأحداث الموضوعيِّة في القرآن الكريم [٤] .

إنَّ التسلسل الفريد الذي استعمله القرآن الكريم في تصوير وحدة الأحداث الموضوعيِّة فيه تجعل المتتبع للسرد القرآني مدركًا للسبك المتكامل والمتلاحم في وحدة الموضوع من خلال السور القرآنيِّة المباركة .

كذلك نجد وحدة الموضوع في آيات كثيرة مثلًا الآيات التي تتحدث عن الخمر، أي التشريع في تحريم الخمر، فإنَّ القرآن الكريم تعرض لها في أربع سور، وفي كل سورة كان له معنى وغرض، فإننا إذا جمعنا هذهِ القضايا ورتبناها لخلصنا من ذلك كله إلى أنَّ موضوع تحريم الخمر الذي ذُكر في أربع سور يكوِّن وحدة موضوعية كاملة (هي تحريم الخمر تحريمًا كاملًا) وإنما سلك القرآن فيها مسلك التدرج والتربية الحكيمة [٥].

وَألخصُ من ذلك أنَّ الموضوعيِّة في القرآن الكريم حاضرة، فهناك قضايا خاصَّة كثيرة في آياتهِ المباركة قد تحدثت عن الموضوع الواحد، فلو جُمعت تلك الآيات مع بعضها ثم النظر إلى معانيها الخاصَّة التي تحملها نصل بذلك إلى الموضوع العام الذي نبحث عنهُ .

---

(١) المائدة : ٤١

(٢) ظ: دلائل الاعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني(ت ٤٧١هـ) تح: محمود شاكر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت : ١ / ٣٦٥

(٣) ظ: بيان اعجاز القرآن، العلامة أحمد بن محمد الخطابي(ت ٣٨٨هـ) ، ط٢، دار صادر، بيروت ١٤٣٣هـ/ ٥٦

(٤) ظ: الوحدة الموضوعيِّة في سورة يوسف (عليه السلام) د. حسن محمد باجودة، دار الكتب الحديثة، القاهرة ، ١٤٣٧ / ٢٥

(٥) ظ:محاضرات في التفسير الموضوعي، د. عباس عوض الله عباس، ط١، دار الفكر ، دمشق ١٤٢٨هـ / ٣٨

- **الموضوعيّ في الاصطلاح :**

لا بد من التفريق بين مصطلحين، هما: الموضوعيّة، والموضوعي بوصفهِ ركنًا ثانيًا من أركان المركب الوصفي (التفسير الموضوعيّ) . وقد فطن الدكتور محمد حسين الصغير لهذا التفريق ، فالموضوعية تعني الآداب المراعيَّة لتفسير القرآن الكريم وهي شرط أساس وليس احترازيًا، لتلقي القرآن الكريم كما أراده الله تعالى، مع الاحتراز من النزوع إلى الهوى والتعرض لشطحات الميول ، فالمتلقي (للتفسير) يريد معرفة هذا النص على حقيقتهِ، والغوص في أعماقهِ، والمفسر الحق هو الباحث الذي ينفذ هذهِ الرغبة، وينهض بهذهِ المهمة، متطلعاً إلى أسرار ناصعة أنيقة ، في حين أن الموضوعي في المركب الوصفي يُراد منه جمع مادةِ موضوع من مواضيع القرآن واستقصائها احصاءً لتكون نسقيتًا مترابطة تشكل وحدة موضوعيّة متكاملة كلٌ بحسب تخصصهِ [١] [٢].

وعرف الدكتور مصطفى مسلم الموضوعي بأنه: ((قضيَّة أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم)) [٣] .

مما تقدم يتبين أن معنى كلمة الموضوعي في الاصطلاح : أنها قضيَّة أو مسألة قد تناولتها آيات القرآن الكريم سواء كانت في سورة واحدة أو في سورهِ المختلفة في شتى مناحي الحياة .

وبعد أن وقفنا على ركنيّ هذا المركب الوصفي (التفسير، الموضوعيّ) آن الاوانُ أن نُعرّف هذا المصطلح في ضوء الاستئناس بأقوال الباحثين ممن عملوا على هذا المنهج التفسيري أو ممن أشاروا إليهِ في ظل دراساتهم للمناهج التفسيرية، ومن هذه التعريفات:

١- تعريف أمين الخولي (ت ١٣٥٨هـ) :((هو أن يفسر القرآن موضوعًا موضوعًا، وأن تُجمع آية خاصَّة بالموضوع الواحد جمعًا إحصائيًا مستقصيًّا ويعرف ترتيبها الزمني، ومناسباتها وملابساتها الحافة بها، ثُم ينظر فيها بعد ذلك لتُفسرْ وتُفهم فيكون ذلكَ التفسير أقرب إلى المعنى وأوثق في تحديدهِ)) [٤].

٢- تعريف محمود شلتوت (١٣٨٣هـ): ((هو أن يعمد المُفسِّر أولًا إلى جمع الآيات الواردة في موضوع واحد، ثُم يضعها أمامهُ كمواد يحللها ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض يتجلى لهُ الحكم ويتبين المرمى الذي ترمي إليهِ الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل

---

(١)ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعي ،عبد الستار فتح الله سعيد ، دار التوزيع والنشر الاسلامية / ٢٠ .
(٢) ظ: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق / ٣٨ .
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي ، ط١، دار القلم ، دمشق ١٩٨٩م / ١٦ .
(٤) التفسير نشأته – تدرجه – تطوره، ط٢، دار القلم، القاهرة ١٤١٦هـ / ٨٣ – ٨٤

شيء موضعه، ولا يكره آية على معنى لا تريده، كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهي الحكيم، وهذهِ الطريقة في نظرِنا هي الطريقـــة المُثلـى)) [١].

٣- تعريف محمد محمود حجازي (ت١٣٩٢) : ((جمع الآيات التي في موضوعٍ واحد، وترتيبها حسب النزول، مع الوقوف على أسباب النزول، ودراستها دراسة منهجية موضوعيّة متكاملة ومتناسقة لا تباين فيها ولا اختلاف)) [٢].

٤- تعريف الشهيد السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ): ((هو الاتجاه الذي يحاول القيام بالدراسّة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائديّة، أو الاجتماعيّة، أو الكونيّة، فيبين ويبحث ويدرس مثلًا عقيدة التوحيد في القرآن، أو يبحث عن النبوة في القرآن، أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن، أو عن سنن التاريخ في القرآن، أو عن السماوات والأرض في القرآن وهـــكذا)) [٣].

إنَّ تعريف السيد الصدر له ميزة خاصَّة انفرد فيها عن بقية العلماء والباحثين، وهو كون القرآن الكريم جاء لمواكبة ومزامنة الحياة فلا يتوقف في مكان أو زمان، فوصف التفسير الموضوعيّ بأنهُ يبدأ من الواقعِ الخارجيّ بحصيلة التجزئة البشريّة فيتزود بكل ما حصلت بيده من تلك التجزئة ومن أفكارها ومن مضامينها، ليطّلّع ، ويجمع ، ويدقق ، ويحلل ، بعد عودتهِ إلى القرآن الكريم ليحكمه و يستنطقهُ فيكون دوره دور المستنطق ودور المحاور[٤]، لذلك نرى أن القرآن أصبح يلامس الواقع، وأنهُ متحرك مع الوجود .

٥- تعريف الدكتور محمد حسين علي الصغير: ((هو أن يقوم جملة من المتخصصين على دراسة شذرات ونجوم من القرآن الكريم كلٌ حسب تخصصهِ، فيجمع مادة موضوع من مواضيع القرآن ويستقصيها إحصاء لتكون هيكلًا مترابطًا يشكل وحدة موضوعيّة متكاملة واحدة، ثُم يقوم بتفسيرها بحسب منهجه، فالمتخصص في الأحكام يبحث عن آيات الأحكام، والمتخصص بالعقائد يبحث عن آيات العقائد وهكذا ... فالفن القصصي في القرآن يفرد في مبحث خاص، والبعد التشبيهي يُبحث في كتاب، والمثل القرآني يصدر في رسالة وهكذا ...)) [٥].

٦- تعريف استاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ: ((هو معرفة مجموعة من الآيات القرآنية في موضوع محدد، مرتبة على حسب النزول تارَّة، وغير مرتبة تارَّة أُخرى من حيث دلالته على

---

(١) تفسير القرآن الكريم " الأجزاء العشرة الأولى " ط٤، دار العلم، القاهرة ١٩٦٦هـ / ١٠ .
(٢) الوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم، ط١، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٠هـ / ٢٥ .
(٣) المدرسة القرآنيّة، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، ١٤٣٤هـ / ١١ .
(٤) ظ: المصدر نفسه / ٢٥ ــ ٢٦
(٥) المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم/ ١٢٤ .

مراد الله تعالى بتيسير فهمه إلى المتلقي في كيانٍ واحد، وهيئة تركيبية متجانسة لا يفصل بينهما فاصل، فيصب ذلك في بحثٍ مستقلٍ يكون موضوعه ما في الآيات من موضوع)) [١].

ويبدو للباحث أنَّ التفسير الموضوعيّ لابد ان يشتمل على مفاهيم محورية في التعريف وهي (الكشف، وتبيان القضايا المهمة، وتوظيف المعاني الجليلة والقيم في المجتمع خاصّة والعالم عامَة) فنرى أنهُ علمٌ يختصُ بالكشف عن القضايّا التي تضمنتها آيات القرآن الكريم من خلال سورة أو أكثر ، أو مجموعة من الآيات في قضيّة معينة لبيان الأحكام والحقائق القرآنيّة في جوانب الحياة المختلفة بقدر الطاقة البشريّة، وتوظيفها في الواقع المعيش، بمعنى كيفية الافادة من الموضوعات القرآنية المثالية في سموِ المجتمعات الانسانية والوصول بها إلى أعلى درجات التمسك بالقيم والمثل النبيلة .

ثانيا: تعريف (الثَّابتُ):

- **الثابتُ في اللغة :**

وردت في معاجم اللغة أقوال عدّة في تحديد الثابت وتعريفه، فقد رأَى الأزهـري (ت: ٣٧٠هـ) أن ثبتَ فلان في المكان يثبـتُ ثبوتًا إذا أقام بهِ، وثبتَ في رأيهِ إذا لـم يعجل وتأنى فيهِ [٢] ، ويبدو هنا أن معنى الثابت هو الإقامة في المكان والثاني نفي التسرع في الرأي .

ويرى الصاحب بن عباد (ت: ٣٨٥هـ) أنه ثبتَ القول والأمر وضح، والثابت اللازم الواقف، والثبت المثبت في الأمور[٣]، فالثابت هنا بمعنى الذي يلازم حالة واحدة ويقف عليها . وعند ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) أنَّ الثاء والباء والتاء كلمة واحدة، وهو دوام الشيء، يقال: ثبت ثباتًا وثـبوتًا [٤] .

وأبانَ الراغب الاصفهاني(ت ٥٠٢هـ) معنى الثابت بالضد فقال: ((الثبات ضد الزوال، يقال: ثبتَ يثبتُ ثباتًا قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً **فَاثْبُتُوا** وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٥])) [٦].

ومما تقدم بدا لي أن معنى (الثابت) لغة: هو الاستقامة والاستقرار ونفي الزوال فهو مستقر على حالة واحدة لا يزول عنها اطلاقًا في أي ظرفٍ كان وتحت أي تأثير ، فالثوابت هي

---

(١) التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاته، ط١، دار الرضوان، عمَّان ١٤٣٤هـ / ٣٠ .
(٢) ظ: تهذيب اللغة، ط١، دار إيحاء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١م : ١٤ / ١٩٠ ، ومختار الصحاح للرازي : ١ / ٤٨
(٣) ظ: المحيط في اللغة، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٤هـ : ٢/ ٣٧٢ (ث ب ت)
(٤) ظ: معجم مقاييس اللغة : ١ / ٢٠٤
(٥) الانفال : ٤٥
(٦) المفردات في غريب القرآن : ١ / ١٠١

الاصول القاطعة التي لا تتغير ولا تتبدل في أي زمان ومكان ، وهذا ما نراه في التفسير الموضوعي الأصيل والذي أطلقنا عليه بـ (التفسير الموضوعي الثابت) أي: موضوعاته باقية، ثابتة، قد لازمت حالة واحدة واستقرت عليها .

- **الثابتُ في الاستعمال القرآني:**

عند تتبّعِ الآيات القرآنية المباركة التي تتضمن مشتقات مادة (ثَبَّتَ) نجد أنَّ جميعها يدلُّ على معنى الاستقامة أو الثبات على حالة واحدة أي الذي لا يتغيَّر إطلاقًا، الثبات على الجادَّة ولزوم الصراط المستقيم من غير حرجٍ ولا انحراف .

وقد وردت كلمة **(ثَبَّتَ)** ومشتقاتها في القرآن الكريم في **(١٧)** موضعًا ، منها في سورة البقرة مرتين: نحو قولهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا **وَثَبِّتْ** أَقْدَامَنَا﴾[١] وقولهِ:﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ **وَتَثْبِيتًا** مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ..﴾[٢] . ووردت في سورة الأنفال (٤) مرات ، نحو قوله تعالى :﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ **وَيُثَبِّتَ** بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[٣]، وقولهِ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ **فَثَبِّتُوا** الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [٤]، وفي سورة ابراهيم جاءت مرتين، منها في قولهِ تعالى: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا **ثَابِتٌ** وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [٥] ، ووردت في سورة النحل مرتين ، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ **ثُبُوتِهَا**﴾ [٦] ، وأيضا جاءت في سورٍ متفرقة من القرآن الكريم أشير إليها :

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا **وَثَبِّتْ** أَقْدَامَنَا﴾[٧] .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ **تَثْبِيتًا**﴾[٨].

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ **مَا نُثَبِّتُ** بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٩] .

قال تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ **وَيُثْبِتُ** وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[١٠].

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ **ثَبَّتْنَاكَ** لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[١١].

---

(١) البقرة: ٢٥٠
(٢) البقرة: ٢٦٥
(٣) الأنفال : ١١
(٤) الأنفال : ١٢
(٥) ابراهيم: ٢٤
(٦) النحل: ٩٤
(٧) آل عمران : ١٤٧
(٨) النساء : ٦٦
(٩) هود : ١٢٠ .
(١٠) الرعد: ٣٩
(١١) الإسراء : ٧٤

مما سبق نرى أن القرآن الكريم استعمل كلمة (ثَبَّتَ) في مواضع مختلفة من سورهِ و آياتهِ المباركة، وقد خرجت لمعانٍ متقاربة منها :

١- تثبيت فؤاد النبي (صلىّ الله عليه وآله وسلم) و تثبيت المؤمنين بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ **لِنُثَبِّتَ** بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[١]، وقال جلَّ شأنه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ **لِيُثَبِّتَ** الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢].

٢- للثبوت في الأقوال وعلى رأسها كلمة التوحيد وشهادة أنّ لا اله إلا الله [٣]،كما في قولهِ تعالى : ﴿**يُثَبِّتُ** اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٤].

٣- الثبات على الإيمان والاستدامة عليه، والثبات على جادة الصواب، والآيات فيها كثيرة منها قوله تعالى :﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ **وَيُثَبِّتَ** بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[٥].

يقول العلامة المصطفوي: ((إنَّ الأصل في هذه المادة: هو الاستقرار واستدامة ما كان، وهو في مقابل الزوال، وهذا المعنى إما في الموضوع أو في الحكم أو في القول أو في الرأي أو غيرها، فيقال: حكمه ثابت، أو قوله تابت، أو رأيه ثابت، وهو ثابت نفسه)) [٦] . (يُثبت الله الذين آمنوا بالقولِ الثابت) أي القول الذي هو مُظهِر العقيدة والكاشف عمَّا في القلب [٧].

- **الثابتُ في الاصطلاح :**

من خلال الاطلاع على الدراسات المعاصرة تبين أَنَّ الثابت قد أصبحَ لهُ مصطلح خاصٌ بهِ ، وقد تنوعت التصورات الدَّالة عليهِ بحسب بيانات الباحثين في دراساتهم من ذلك :

١- الثوابت: ويقصد بها القطعيِّات ومواضع الاجماع التي أقام الله بها حجة بيِّنة في كتابهِ، أو على لسان نبيهِ محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمْ) ولا مجال فيها لتطوير أو اجتهاد، وأبرز مصادقيها (العقائد والعبادات والاخلاق) ولا يحل الخلاف فيها لمن عملها، فضلًا عن بعض الاختيارات العلمية الراجحة التي تمثل مخالفتها نوعًا من الشذوذ أو الزلل [٨].

---

(١) الفرقان : ٣٢
(٢) النحل : ١٠٢
(٣) ظ: الميزان في تفسير القرآن : ١٢/ ٥١
(٤) ابراهيم: ٢٧
(٥) الأنفال : ١١
(٦) التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٢ / ٨
(٧) ظ: المصدر نفسه والصفحة .
(٨) ظ: الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، الدكتور صلاح الصاوي ، ، ط١، مؤسسة الاعلمي، بيروت ٢٠٠٩ / ٥١

٢- الثوابت: هي الأُصول الثابتة والقواعد الحاكمة التي توجه مسيرة الأمة إلى السعادة والفلاح، وتوجه الأمة اعتقادًا وقيمًا، وتطرد الحيرة من العقل البشري، وتضبط السلوك والتصرفات، وهي ليست مجال مساومة ولا مراجعة، ولا تحتمل تبديلًا ولا تغيّرًا [١].

٣- الثابت: ((هو كل نص دُوّنَ وانتهى، وتغيره لا يتوقف على ألفاظهِ، بل على دلالاتهِ وتأويلاتهِ، تبعاً لمتغيرات الواقعات والأحداث لتستوعبها، أو ليضفي النص الثابت على الواقع المتغيِّر شرعيّة دينيّة أو فقهيّة)) [٢] .

ويرى الباحث أن (الثَّابِتُ) هو : هو ما كان قطعيّ الدَّلالة، أي ما كان مدلولًا عليهِ بنص قطعيّ (القرآن الكريم ، أو السنة المشرفة)، وأنهُ لا يختلف في أي زمانٍ أو مكان، وكونه مسلمًا بهِ ومؤيّدًا بنصٍّ واضحٍ لا يقبل التغيِّر، وإنهُ غير قابلٍ لتصرّف العلماء والباحثين .

ثالثًا: تعريف (المتغيّرُ):

- **المُتغيّرُ في اللغة :**

للمتغير في اللغة معان عدّة يمكن اجمالها بالآتي:

قال الجوهري (ت ٣٩٣هـ): ((غايرت الرجل مغايرة، أي عارضته بالبيع وبادلتهُ، وتغايرت الأشياء: اختلفت. والغيارُ: البدالُ)) [٣]، فعندهُ التغير هنا هو (التبديل والاختلاف) .

أمَّا الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) فيبدو التغيِّر عندهُ من جهتين: **الأولى** هي تغيِّر صورة الشيء ، **والثانيِّة** تبديله. إذ قال: ((التغيِّر على وجهيِّن: الأول: لتغيِّر صورة الشيء من دون ذاتهِ، يقال: غيرت داري، إذا بنيتها بناءً غير الذي كان. والثاني: لتبديلهِ بغيرهِ، نحو: غيرتُ غلامـــي ودابـــتي إذا أبدلتهما بغيرهما)) [٤] .

وهذا التفريق من الراغب يمكن أن نعبر عنه من وجهين:

الأول: التجدد والتصور الحاصل في الدراسات مع الحفاظ على الأدوات القديمة والقواعد والمناهج .

الثاني: هو من قبيل التغيِّر الجذري الكليّ، وقطع الصلة مع القديم واستحضار تصّورات جديدة متعلقة بالمبادئ والقواعد والمناهج.

---

(١) الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية ، محمد طاهر الحكيم ، مؤتمر مكة (١٣) ١٤٣٣هـ / ٣ .
(٢) الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين النص الثابت والواقع المتغيّر ، حسين سعيد، ط١ ، دار صادر، بيروت ١٤٤٠هـ/ ١٢
(٣) ظ: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١م : ٢ / ٢٧٥ – ٢٧٦ .
(٤) ظ: مفردات ألفاظ القرآن: ٦١٩ .

ويمكننا أن نرصد من هذهِ النصوص المتقدمة ثلاث دلالات رئيسة لمادة (غ ي ر) وهي (١- التبديل ، ٢- الاختلاف ، ٣- تغيير الصورة الأصلية للشيء- التحويل-) ولو دققنا النظر في هذه الدلالات نجد أنَّ التفسير الموضوعيّ الحديث يرتبط بها والذي أطلقنا عليه بـ (المتغير) فالتفسير في هذا العهد قابل للتبديل، وقابل للاختلاف، وأيضًا قابل لتغيير الصورة الأصلية القديمة التي كان عليها في عصر من العصور بما يتوافق مع متطلبات ذلك العصر واحتياجاته، ليأتي بتفسير جديد يتوافق مع العصر الحاضر ومتطلباته المتكثرة والمتجددة، فالمتغير هنا جاء لمواكبة عجلة الحياة و مسايرتها .

من هنا نلمس الفرق بين الثابت والمتغيّر في اللغةِ، **الأول:** هو الاستقامة والاستقرار ونفي الزوال ، **أما الثاني:** فعند الرجوع إلى أمهات المعاجم اللغوية نجد أنها تكادُ تتفق على أنَّ (المتغيِّر) هو التحويل والتبديل والاختلاف وعدم الثبات على شيء معيّن.

- **المُتغيّرُ في الاستعمال القرآني:**

وردت لفظة **(غير)** ومشتقاتها بالقرآن الكريم في **(١٥٣)** موضعًا ، ولكن تلك المواضع جاءت في دلالات مختلفة بحسب السياقات المختلفة التي وردت فيها، أشيرُ إليها باختصار وهي:

١- جاء التغيّر ضمن سياق يندرج على قانون العليّة؛ فيكون سبب تغيّر الواقع متوقفًا على تغيّر ما بالأنفس، نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ **مُغَيِّرًا** نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ **يُغَيِّرُواْ** مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، وفي نفس المعنى وردت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا **يُغَيِّرُ** مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ **يُغَيِّرُوا** مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[٢].

٢- جاء التغيّر بمعنى التبديل الواضح [٣]، كما في قوله تعالى:﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ **فَلَيُغَيِّرُنَّ** خَلْقَ اللَّهِ﴾[٤].

٣- جاء بمعنى إزالة شيء وحل آخر محلّه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[٥] وقولهِ تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٦].

---

(١) الأنفال: ٥٣ ، يُنظر: جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبريّ : ١٠ / ١٨
(٢) الرعد: ١١. يُنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن : ٦/ ١١
(٣) ظ: التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي : ٩ / ٢٦٩
(٤) النساء : ١١٩
(٥) النساء: ٥٦
(٦) الفرقان: ٧٠

٤- جاء التغيّر (التبديل) في سياق استخلاف قوم بعد قوم بمشيئة الله تعالى وقدرتهِ، منها قوله تعالى:﴿ إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا **غَيْرَكُمْ** وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾[١]، وغيرها من الآيات المباركة [٢].

والتغيير: جعل شيء متحولًا إلى سواه أو جعله مغايرًا للشيء[٣]، ((وأما قولهم - غارهم يغيرهم بمعنى مارهم: فهو من مصاديق الأصل، فإنَّ معنى الغير مصدر صيرورة شيء سواه، وفي المورد يصير الرجل متوليًا ونافعًا ومباشرًا لأمورهم، فصار غيرهم وقام في مقامهم ...)) [٤].

فمن النصوص المباركة السابقة نرصد أنَّ المعنى في كلمة التغيير هو : جعل شيء سوى حالته الأصلية او الأولية . فإنَّ الرحمة واللطف إنما تنزل من الله الحكيم على حسب اقتضاء المحل وبحسب مقدار سعة فيه، وعلى وفق الاستعداد والقابلية، فإذا تغيير المحل سعة وضيقًا وقابلية واستعدادًا واستقبالًا: تغيرت كيفية الرحمة والنعمة وكميتها إلى أن تصير نقمة وعذاب [٥].

- **المُتغيّرُ في الاصطلاح :**

تنوعت تعريفات (المُتغيِّرُ) في الاصطلاح شأنهُ في ذلك شأن أي مصطلح آخر؛ وذلك لتنوع المعايير التي انطلقوا منها في التعريفات ومنها:

١- المتغيرات: هي موارد الاجتهاد، وكل مالم يقم عليهِ دليل قاطع من نص صحيح [٦] ، ولا يُخفى أنَّ موارد الاجتهاد يكون للمجتهد رأي فيها ، فقد يكون فيها الجزم بالإثبات أو النفي ، وتكون تلك المتغيرات في أحكام المعاملات وبعض فروع العبادات .

٢- المتغيِّرات : هي الأحكام التي يمكن أن يعتريها التغيِّر والتبديل والتأويل، تبعًا لتغيّر الأحوال المحيطة، والمصالح والأعراف، وحاجات المجتمع وظروفه [٧].

٣- المتغيِّرُ: هو الحكم المنتقل من كونهِ مقبولًا فيصبح غير مقبول، أو ممنوعًا فيصبح مشروعًا باختلاف درجة المشروعيِّة والمنع [٨] .

---

(١) التوبة: ٣٩
(٢) محمد: ٣٨ ، الإنسان: ٢٨
(٣) ظ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المحقق المفسر العلامة المصطفوي: ١٣ / ٣٥٩
(٤) المصدر نفسه والصفحة .
(٥) ظ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ١٣ / ٣٥٩
(٦) ظ: الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر/ ٥٣ .
(٧) ظ: الثوابت والمتغيرات في الشريعة الاسلامية / ٣.
(٨) ظ: الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، عابد السفياني، ط١، مكتبة المنارة، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ / ٤٤٩ .

ويرى الباحث أنَّ (المتغيِّرُ): هو ما كان قابلًا للتصرف فيهِ على وَفْقِ أصول التشريع وقواعده تارَّة، أو ما كان قابلًا للتصرف فيهِ على وَفْقِ متغيِّرات الزمــان أو المكــان تارَّة أخرى، فقد يعارضهما مرّة أو يوافقهما مرّة اخرى تبعًا لواقع المجتمع ومتطلباته، فالأحكام فيه تتغــير أو تتبدل بما يوافق البيئة المحيطة بهِ .

ومن هنا كانت انطلاقتنا فيما يخص عنوان البحث: **(التفسِّيرُ الموضوعيّ بين الثابتِ والمتغِّير)** فقد وردت اشارات سابقة في كتب التفسير القديمة تشيرُ إلى موضوعات محددة في قضيِّة معيَّنة ولكنها لم تفرد في بحثٍ مستقل يحمل عنونًا مستقلًا وهو ما أطلقنا عليه بـ (التفسير الموضُوعيّ الثّابت) ولكن بعدها جرت دراسات متعددة حديثة انطلقت من الواقع الحقيقي وانتهت إلى القرآن الكريم لينظر فيها ويحل القضايا والمشكلات التي تحملها، فجاءت تلك الدراسات بما يتوافق مع حاجات المجتمع المتعددة والمتشعبة اللامتناهيــة، وهو ما أسمينـــاه بـ (التفسِّيرُ الموضُوعيّ المُتغيِّر) .

الفصلُ الأول

منطلقاتُ التفسير الموضوعيّ (الجذورُ والأسسُ) .

المَبْحَثُ الأَوّل: مَنْهَجُ تَفسِيرِ القرآنِ بالقرآنِ

المَبْحَثُ الثانِي: قاعدةُ الجَرْيِ والتَطبيق

المَبْحَثُ الثالث: نظريةُ التَّدبرِ في القرآنِ

المَبْحَثُ الرّابع: عَقْليةُ المُفَسّر

توطئة:

إنّ فكرة التفسير الموضوعيّ كما هو معلوم كانت حاضرة منذ القِدم، وإنَّ الأُسس والمنطلقات كانت حاضرة أيضًا، ولكن كلما مرَّ الزمان نجد التلون والتجدد في هذا المنهج؛ وتعود أسباب ذلك إلى التطور والفهم أو عقلية المفسر أو الظروف، أو حاجات ومتطلبات الواقع وغيرها.

من هذا المنطلق كان لِزامًا علينا أن ندرس الجذور الأولى والتمهيدات والأسس التي قام عليها هذا التفسير . ومما يبدو في ضوء التصور أن التفسير الموضوعي انبثقَ من منطلقات واضحة مهمة منها **أولًا:** (منهج تفسير القرآن بالقرآن) وهذه من أول وأهم مرتكزات هذا التفسير ، فالتفسير الموضوعي انطلق من هذه القضية ، فهو قائمٌ على هذه الحيثية بشكل أساس، وهو أننا ننظر ونجمع مجموعة من الموضوعات ومجموعة من الالفاظ ذات الصلة ونضعها في حقلٍ دلالي يضمها. **ثانيًا:** (قاعدة الجريّ والتطبيق): وهو أن القرآن يجري مجرى الشمس والقمر، ويجري مجرى الليل والنهار، فهو موجود في كل زمان ومكان، وحاضرٌ في كل عصر. **ثالثًا:** (نظرية التدبر في القرآن) وهي الدعوة إلى التدبر في كلام الله عزَّ وجَلَّ، وهذا التدبر والتفكر بمعنى أن نحيط بكلام الله تعالى بوصفهِ كلمة واحدة، أو بوصفهِ وحدة موضوعيِّة واحدة، فالقرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس هو على نظام واحد وعلى نسق واحد ، في ذلك يقول الفخر الرازي (تـ: ٦٠٦هـ): ((إنَّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)) [١]. فلابُدَّ من التفكر في كلام الله من خلال ربط السور وربط الآيات لأنَّ كلها تنذر أن القرآن مقاصده واحدة وان هداياته واحدة وان تلونت هذه المقاصد وتنوعت فإنَّ كلها تنصب في فهم كلام الله عزَّ وجل والوصول بالإنسان إلى الهدف أو الغاية المرادة.

رابعًا: (عقليّة المفسر)، التي تحاول أن تلم الجزئيات من أجل الوصول إلى الكليات، إذًا هي عقليِّة قائمة على التشابك المعرفي والتداخل البيني بين الالفاظ القرآنية وجمعها في حقلٍ واحد من أجل الوصول إلى فهم واضح وتام لكل موضوع من موضوعات القرآن ومقاصدها، فهي عقلية تجميعية قائمة على لملمة الجزئيات والانتقال إلى الكليات .

---

(١) ظ: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م : ٥ / ٢٤٥ .

المبحث الأول: (تفسير القرآن بالقرآن)

إنَّ أشرف أنواع التفاسير وأجلها هو (تفسير كتاب الله بكتاب الله) وهذا بإجماع علماء المسلمين؛ إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جل وعلا، فلقد تكفل الله تعالى ببيان القرآن الكريم وتفصيله وايضاحه، قال تعالى: ﴿ **وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْاٰيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [١]. إذًا فبيان القرآن بالقرآن نفسه هو من أبلغ التفاسير وأهمها ، فلا عجب في ذلك؛ لأنَّ قائل الكلام هو أدرى بمعانيه وحكمه وأهدافه .

ويجدر بالذكر أنَّهُ على الرغم من أهمية هذا الفن من فنون التفسير إلا أن العلماء لم يضعوا ضوابط وشروط خاصَّة من حدِّه وضبط مصطلحه؛ لبيان ما يدخل فيه وما لا يدخل، بل اكتفى أهل العلم ممن كتبوا فيه في بيان صحته، وأنه من أحسن الطرق للوصول إلى التفسير المراد، وبعضهم ذكر بعض أنواعه والتمثيل لها . ويعود السبب في عدم وضع العلماء تعريفًا محددًا لهذا الفن هو ارتباطه بمصطلح التفسير، ويوجه هذا الارتباط أنَّ تفسير القرآن بالقرآن هو من أنواع التفسير وجزءٌ منه، فاكتفوا بتعريف الكل عن الجزء ، فمتى تحقق وتبين مصطلح التفسير واتضح تبين في ذلك معنى تفسير القرآن بالقرآن، ومن جهة اخرى فأن تفسير القرآن إنما هو على وجوه لا بد من معرفتها، فقد أخرج شيخ المفسرين الطبري (ت ٣١٠هـ) بعدّة أسانيد عن ابن عباس قال: ((التفسير أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالتهِ ، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى))[٢] .

فإنَّ تعريفهُ : هو بيان القرآن بالقرآن . ولكن هذا البيان لا ينبغي حصره في البيان اللغوي فقط ، بل يشمل مطلق البيان، وينبغي أن نعلم أن البيان درجات وأنواع فهو يختلف قوةً وضعفًا ، وقربًا وبعدًا، وظهورًا وخفاءً ، ومطابقة ومقاربة ، كما سيتبين ذلك عند ذكر الأمثلة ، والكل يقدر بقدره ، كما أن أنواعه مختلفة كذلك ، والخلاصة أنَّ مرادنا مطلق البيان [٣].

فهو يفضي إلى مراد الله تعالى من قرآنهِ الكريم؛ وذلك عن طريق مقابلة الآية بالآية، والنص بالنص ليستدل على هذا بتلك [٤]، فإن قيل: أي الطرق أصح في تفسير القرآن؟ الجواب: إنَّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فُصِّلَ في موضع آخر، وما أختصر في مكان فقد بُسّط في موضع آخر [٥]

القرآن الكريم هو كتاب هداية ونور وتبيان لكل شيء أي: أنَّ موضوعات القرآن الكريم يؤثر بعضها في بعض ، فهي تؤلف بمجموعها منظومة يحتاج فهم كل جزء منها إلى استيعاب

---

(١) الأنعام ١٢٦

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) تح: محمود محمد شاكر ، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٣٧٤ هـ : ١ / ٧٤ .

(٣) ظ: تفسير القرآن بالقرآن، دراسة تأصيليّة ، د. أحمد البريدي، ط١،مكتبة الرشد، الرياض ١٤٢٨هـ / ١٩ ــ ٢٠

(٤) ظ: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، الصغير / ٩٢ .

(٥) ظ: مقدمة في أصول التفسير ابن تيميّة، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم(ت: ٧٢٨هـ)، تح: د. عدنان زرزور ، ط٢، ١٣٩٢هـ / ٩٣

المجموع ، فيغني الرجوع إليه والاسترشاد به عن أي معيار أو مقياس من خارج القرآن ؛ لأن القرآن الذي هو تبيان لكل شيء لا بد من أن يكون مبينا لنفسه قبل أن يبين غيره. أضف إلى ذلك البيان يكسب قوته ويوضح أكثر عن طريق السنة المباركة . ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**﴾[١] .

والذي جعل المفسرين يلجؤون إلى هذا المنهج عاملان :

أحدهما : ضعف المناهج الأخرى وعدم صلاحيتها التامة لفهم القرآن . يقول الطباطبائي في هذا الشأن : ((وأنت إذا تأملت في جميع المسالك المنقولة في التفسير ، تجد أن الجميع مشترك في نقص ، وبئس النقص ، وهو تحميل ما أنتجته الأبحاث العلميّة آو الفلسفية من خارج على مداليل الآيات ، فتبدل به التفسير تطبيقًا ، وسمي به التطبيق تفسيرًا ، وصارت بذلك حقائق من القرآن مجازات ، وتنزيل عدد من الآيات ، ولازم ذلك أن يكون القرآن الذي يعرّف نفسه بأنه هدى ، مهديًا إليه بغيره ، ومستنيرًا بغيره ، ومبيّنًا بغيره)) [٢].

والآخر: هو الترابط الهيكلي بين الآيات موضوعيًّا الأمرُ الذي كان غائبًا ـ رغم حضوره في التفاسير القديمة ولا سيما تفاسير أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ـ عن الأذهان طوال تاريخ التفسير، وعاد إلى مسرح التفسير ثانيّة في القرن الأخير . وهذا هو مقصدنا الذي نرومُ الوصول إليهِ.

إنَّ منهج تفسير القرآن بالقرآن هو الأوسع تداولًا وتطبيقًا في التفسير الحديث ولعله يكمن في أنَّ : أغلب تفاسير العصر الحديث ادعت الالتزام به وذلك بالاعتماد على ترابط الآيات فيما بينها ودور كل آية في تفسيرها للأخرى ، وفي هذا المنهج لا يهدف المفسر إلى سوق الآيات باتجاه خاص – منها مثلًا الانحياز إلى عقيدة مذهبية ما ، أو اتباع الهوى والرأي ، وغيرها - (وهذا هو السبب في عدم وضعه في عداد الاتجاهات التفسيرية) بل أن المفسر يبذل ما في وسعه لاستبيان معاني الآيات بالرجوع إلى آيات أخرى . وذلك لا ينافي أن يكون المفسر الذي يلتزم هذا المنهج ذا اتجاه إصلاحي أو كلامي أو غير ذلك.

---

(١) النساء : ٨٢ .
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ٨- ٩

المطلب الأول: تفسير القرآن بالقرآن عند النبي الأكرم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ)

إنَّ أول من طبقَّ هذا اللون في التفسير هو النبي الأكرم محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) فكان أحيانًا يستعمل هذا الطريق فيفسر آية بآية أُخرى، أو يشير اليها في موضوعها [١]، ومن أمثلة ذلك : عندما شقَّ على الناس قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾**[٢]، فقالوا : يا رسول الله ، فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: ((إنه ليس الذي تعنون! ألم تسمعوا ما قاله لقمان لأبنه وهو يعظه : **﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[٣] إنما هو الشرك))[٤]. فقد فسَّر الرسول الأعظم (الظلم) بـ (الشرك) وذلك بالرجوع إلى آية اخرى من الكتاب العزيز .

ومن أمثلة ذلك أيضًا حديث عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) عند تفسيره لقولهِ تعالى: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾**[٥]، فقد فسَّر (مفاتح الغيب) في موضعٍ آخر من القرآن الكريم فقال مفاتح الغيب خمسٌ : **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [٦] [٧] .

وأيضاً ما ورد من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) قال: **((الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته))** [٨]. والحديث تفسير لآية الحجر المكيِّة : **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾**[٩]، بسورة الفاتحة ، قال الشنقيطي(ت: ١٣٩٣هـ) : ((هذا النص صحيح من النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) أنَّ المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه نعلم أنَّ قول من قال انها السبع الطوال غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ). ومما يدل على عدم صحة ذلك القول: أن آية الحجر هذه مكيِّة، وأنَّ السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة، والعلم عند الله تعالى)) [١٠].

---

(١) ظ: التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨١هـ : ١ / ٣٦ .
(٢) الأنعام : ٨٢ .
(٣) لقمان : ١٣
(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٣٠هـ : ١ / ١٣٨
(٥) الانعام : ٥٩
(٦) لقمان : ٣٤
(٧) ظ: صحيح البخاري ، الحافظ أبي عبد الله الحافظ بن اسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، تح: محمد بن صالح الراجحي، ط٢، دار ابن كثير، بيروت ، كتاب تفسير القرآن، باب(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) : ٦ / ٥٦ برقم (٤٦٢٧).
(٨) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: (ما جاء في فاتحة الكتاب) : ٥ / ١٤٦ .
(٩) الحجر: ٨٧ .
(١٠) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، تح: بكر بن عبد الله بن زيد،دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع : ٤ / ١٧٦ .

إنَّ استعمال النبي محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمْ) لهذا المنهج يكسبُ هذا الفن التأصيل العلمي، إذ يجعلهُ من أهم مصادر تفسير القرآن؛ ولهذا أعتمده السلف الصالح وسار عليهِ الكثير من العلماء حتى زماننا الحاضر . فكانت السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر تفسير القرآن بالقرآن .

المطلب الثاني : تفسير القرآن بالقرآن عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام)

ثمة الكثير من روايات أهل البيت(عليهم السلام) تدّل بنحو بيّن وقاطع على مركزيّة القرآن في الممارسة التفسيريّة بوصفهِ نبعًا تفسيريًّا ثريًّا، وتؤكد هذهِ الروايات على أهمّية منهج تفسير القرآن بالقرآن ، ويمكن تصنيف الروايات على نوعين:

النوع الأول: الجانب النظري الذي أشار إليهِ المعصوم :

لقد كان لأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) سبْقُ الرّيادة في اختطاط هذا المنهج بدقة ووضوح ، وكان لهم قصب السبق في توظيف تفسير القرآن بالقرآن في ممارساتهم التفسيرية، وعلى رأسهم ما جاء في كلمات الإمام علي بن أبي طالب (عليهِ السلام) إذ قال: ((... كتاب الله تبصرون بهِ، وتنطقون بهِ، وتسمعون بهِ، وينطق بعضهُ ببعض، ويشهدُ بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبهِ عن الله))[١]، وإنما يكون القرآن فصلًا وتبيانًا، بعمليّة استنطاقه، وتحكيمه في الواقع فبما يلتبس من أمر الحقّ والباطل؛ ولذلك ظل (عليهِ السلام) مُناديًا : ((فاستنطقوه ، ولن ينطق ، ولكن أُخبركم : ألا إنَّ فيهِ علم ما يأتي ، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونَظم ما بينكم))[٢].

وفي هذا المعنى قال الأمام السجاد (عليهِ السلام) واصفًا القرآن الكريـــم : ((... وفرقانًا فرَّقتَ بهِ بين حلالك وحرامك، وكتابًا فصلتهُ لعبادك تفصيلًا ... اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وأجعلنا ممن يعتصم بحبلهِ ، ويأوي من المشتبهات إلى حرز معقله، ويسكنُ في ظل جناحه، ويهتدي في ضوء مصباحه)) [٣].

لكن مع كل ما تقدم من كلماتهم (عليهم السلام) ؛ ولأجل استنطاق القرآن فقد ترك لنا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قاعدةً ومرتكزًا لا بد منه للظفرِ بالقولِ الفصل الفارق بين الالتباسات، وهذهِ القاعدة هـــي: أنَّ على المفسر أن يحكم القرآن على آرائهِ، لا أنَّ يحمل آرائهِ

---

(١) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد (٦٥٦هـ)، تح: محمد عبد الكريم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٧٨هـ : ٨ / ٢٨٧

(٢) نهج البلاغة، محمد بن حسين الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، تح: الشيخ قيس العطار، ط١، مؤسسة الرافد، قم ١٤٣١هـ ١٦٠ .

(٣) الصحيفة السجاديّة الكاملة، من أدعيّة الامام زين العابدين (عليه السلام) الدعاء الثاني والأربعون، تقديم السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (د.ط) (د. ت) / ١٧٧ – ١٧٨ .

وقناعاتهِ على القرآن، فـإنَّ ((مـن جعله أمامـه قـادهُ إلـى الجنـة، ومـن جعلـهُ خلفـهُ ساقـهُ إلى النار))[١].

النوع الثاني: الجانب العملي الذي مارسهُ المعصوم :

وردت رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) تدل على استنطاقهِ للقرآن الكريم واستنتاجهُ منه أقل مدة للحمل، وهي ستة أشهر، وفي ضوء الآيتين المباركتين : ﴿**وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ [٢] ﴿**حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا**﴾ [٣]، فتكون مدة الرضاعة أربعة وعشرين شهرًا كما بينت الآية الأولى، ومدة الحمل مضافةً إلى الرضاعة ثلاثون شهرًا [٤]،كما بينت الآية الثانية ، وبالجمع بين مفاد الآيتين يُستنتج : أنَّ أقل الحمل ستة أشهر . وهذا ضرب من ضروب تفسير القرآن بالقرآن ، فبهذا المنهج دفع الأمام (عليهِ السلام) عقوبة الرجم عن تلك المرأة التي وضعت حملها في ستة أشهر .

وثمّة رواية مهمة عن الامام الحسن بن علي (ت ٥٠ هـ) يتجلّى بها المنهج التفسيري القائم على تفسير القران بالقران ، وهو تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾[٥] قال الأربلي (ت ٦٩٢هـ) : ((وروى الأمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي رحمه الله في تفسير الوسيط ما يرفعه بسندهِ أنَّ رجلًا قال: دخلتُ مسجدَ المدينةِ فإذا أنا برجل يُحدِّث عن رسول الله (صلى الله عليه وآلهِ وسلم) والناس حوله فقلتُ له: أخبرني عن (**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**) فقال: نعم ، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيومُ عرفة، فجزتهُ إلى آخرَ يُحدّث فقلتُ له: أخبرني عن (**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**) فقال: نعم ، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلامٍ كأنَ وجههُ الدينار وهو يُحدِّثُ عن رسول الله ، فقلت: أخبرني عن (**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**) فقال: نعم ، أما الشاهد فمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأما المشهود فيوم القيامةِ أما سمعته يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا**﴾[٦]، وقـال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**﴾[٧]))[٨]، وبعد ذكره للإجابات الثلاث ، تساءل عن الأشخاص الذيـن أجابوـوه، قال: ((

---

(١) تفسير العياشي، الشيخ أبي النصر محمد بن مسعود العياشي(ت ٣٢٠هـ)ط١، مؤسسة البعثة، قم المقدسة: ١ / ٢٠، ويُنظر: صحيح الترغيب عن جابر بن عبد الله ، رقم ١٤٢٣.

(٢) لقمان: ١٤

(٣) الأحقاف : ١٥

(٤) ظ: بحار الأنوار ، محمد باقر المجلسيّ (ت ١١١١هـ) تح: الحاج محمد باقر، مطبعة وزارة الارشاد الاسلامي ٤٠/ ١٨٠ .

(٥) البروج: ٣

(٦) الأحزاب : ٤٥

(٧) هود : ١٠٤

(٨) كَشف الغُمة في معرفة الأئمة ، علي بن عيسى الإربليّ (ت٦٩٢هـ) ، تح: السيد هاشم الرسولي ط١، مكتبة بني هشام ،قم ١٣٨١هـ : ١ / ٥٤٣ ، ويُنظر: جامع البيان في تفسير القرآن ، للطبري : ٣٠ / ١٣٠

سألتُ عن الأول فقالوا: ابن عباس ، وسألتُ عن الثاني فقالوا: ابن عمر، وسألتُ عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي بن أبي طالب "عليهما السلام" وكانَ قولُ الحسنِ أحسن)) [١].

ومحل الاستدلال في جواب الأمام (عليه السلام) ، إذ عقد وحدة موضوعيّة - عن الشاهد والمشهود - فسّرَ بها بعض القرآن ببعضهِ الآخر .

المطلب الثالث: منهج الصحابة والتابعين في تفسير القرآن بالقرآن:

لقد كان للسلف مـــن الصـــحابة والتابعـــين وأتباعهم في استعمال هذا الطريق أساليب عدَّة منها [٢]:

١- النص على معتمد الربط بين الآيتين المفسَّرة والمفسِّرة.
٢- الاكتفاء بذكر الآيتين المفسَّرة والمفسِّرة دون بيان معتمد الربط بينهما، وهو الغالب في صنيعهم.
٣- النص على اسم السورة احياناً ؛ لكي يميزها عن غيرها ان كان هناك أكثر من آية.
٤- قد يشير الصحابي أو التابعي إلى الآية المُفسَّرة دون ذكرها .
٥- وقد يكون بقراءة الآية المُفسِّرة بعد تفسير الآية المُفسَّرة .

وما نُقل عن الصحابة والتابعين في سلك هذا المنهج كثير من الأمثلة منها :

أولاً: ما نُقِلَ عن الصحابة:

- ما ورد في تفسير أُبيّ (ت ٣٠ هـ) لقولهِ تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**﴾[٣] ((فبيّن أنَّ هذا النص خُصّ بقوله تعالى:﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾[٤]، فخصّ الله تعالى الأنبياء بميثاقٍ آخر)) [٥].
- عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) أنه أشار في تفسير قوله تعالى :﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾[٦]، هي كالتي في سورة البقرة : ﴿**...وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[٧].

---

(١) كَشف الغُمة في معرفة الأئمة: ١ / ٥٤٣
(٢) ظ: تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيليّة، د. أحمد بن محمد البريدي / ٣٠
(٣) الأعراف : ١٧٢
(٤) الأحزاب : ٧
(٥) أُبيّ بن كعب وتفسيرهُ للقرآن الكريم ، رسالة ماجستير، إعداد: أحمد منجي حسين ، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، مكة، اشراف الدكتور: محمود نادي عبيدات، ١٤٠٩هـ / ٣٤٣ .
(٦) غافر : ١١
(٧) البقرة : ٢٨

وما ورد عنه أيضًا في تفسير قولهِ تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا**﴾[١]، قال: ((هذا يوم بدر، نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ [٢]))[٣] .

- عن ابن عباس(ت ٦٨هـ) أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ**﴾ [٤] أما الأولى فحين قال: ﴿ **مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي**﴾[٥]، وأما الآخرة فحين قال : ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ** ﴾ [٦] [٧].

وعبد الله بن عباس (رضيَّ الله عنهُ) هو أشهر من استعمل هذا الطريق من الصحابة، فقد نقل عنه من ذلك الكثير [٨]. وان استعماله لمنهجيات اخرى بلا ريب، لكنّ استعماله لهذا المنهج يمثّل ظاهرة واضحة على تفسيراته، فلقد فسّر قوله تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾[٩]، بأنهُ كان نبي الله سليمان (عليه السلام) إذا أراد الرّيح شديدة أصبحت كذلك، وإذا أرادها هادئة امتثلت وأصبحت كذلك، ثُم يبينها بقوله تعالى في موضعٍ آخر: ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ** [١٠] ﴾[١١]

ثانيًا : ما نُقِلَ عن التابعين :

فقد ورد عنهم من ذلك الشيء الكثير، نذكرُ بعضًا منها:

- قال مجاهد (ت ١٠٤هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[١٢] ((الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبهِ ، حتى تغشى الذنوب عليه، وقال : مثل الآية التي في سورة البقرة : ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[١٣])) [١٤]. وكان رحمه الله تعالى يردّ الآيات إلى بعضها، ويفسرها بنظائرها، ونجد ذلك في تفسيرهِ لقوله تعالى: ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[١٥]، ففسر:

---

(١) آل عمران : ١٣
(٢) الأنفال: ٤٤
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٣٠
(٤) النازعات : ٢٥
(٥) القصص : ٣٨
(٦) النازعات: ٢٤
(٧) ظ: جامع البيان : ٣٠ / ٤١ .
(٨) ظ: على سبيل المثال في تفسير جامع البيان : ١ / (٦٨ ، ١٤٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٤٩٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦).
(٩) الأنبياء: ٨١
(١٠) ص: ٣٦
(١١) ظ: جامع البيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٢٢
(١٢) المطففين : ١٤
(١٣) البقرة : ٨١
(١٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٠ / ١٠٠ .
(١٥) فاطر: ٣٢

الظالم لنفسهِ بـ (أصحاب المشأمة). والمقتصد بـ (أصحاب اليمين). والسابق بالخيرات بـ (السابقون) ؛ وذلك تفسيرًا لها بالآية المباركـــــة : ﴿ **فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ** ﴾[١] [٢] .

- عن قتادة (ت ١١٨هـ) تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٣]، فأوضحها بقوله تعالى: ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[٤]. فهنا استعان بآية فُصِّلت ليفسر بها آية الحِجرْ، مبينًا: أنّ حفظ الله من تأثير الباطل، وأنَّ الباطل في رأيهِ هو ابليس، فأنزل الله القرآن ثُم حفظه، فلا يستطيع ابليس أن يزيد فيهِ باطلًا ولا ينقص منه حقًا، حفظه الله من ذلك [٥] .

وفي تفسيرهِ للآية المباركة: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾[٦]، يحرص دائمًا على أن يقرن الآيات القرآنية التي تحدثت عن ذات الموضوع؛ وما ذلك إلا للتوافر لتفسيرهِ وحدة الموضوع المطلوبة؛ ولذلك يفسّر آية الأحزاب بالوعد الذي وعدهم الله تعالى في سورة البقرة بقوله: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [٧] [٨].

- وفسّرعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [٩] ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾[١٠]، النذير : النبي، وقرأ : ﴿ **هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ** ﴾[١١].

ويُعدُّ عبد الرحمن أشهر من نقل عنه هذا النوع من المتقدمين، فلقد أكثر من استعمال هذا الطريق . [١٢]

---

(١) الواقعة: ٨ ــ ٩
(٢) ظ: موسوعة التفسير قبل عهد التدوين، محمد عمر حاجّي ،ط١، دار المكتبي، دمشق، ١٤٢٧هـ / ٢٩٣
(٣) الحجر: ٩
(٤) فصلت: ٤٢
(٥) ظ: موسوعة التفسير قبل عهد التدوين / ٢٩٣ .
(٦) الأحزاب : ٢٢
(٧) البقرة: ٢١٤
(٨) ظ: موسوعة التفسير قبل عهد التدوين / ٢٩٣
(٩) هو أبو أسامة ، زيد بن أسلم ، المدنيّ الفقيه المفسّر، ... كان من كبار التابعين الذين عُرفوا بالقول في التفسّير، والثقة فيما يرونه توفيّ سنة(١٣٦هـ) وقيل غير ذلك. يُنظر: التفسير والمفسرون، الذهبي : ١ / ٨٧ - ٨٨
(١٠) فاطر : ٣٧
(١١) النجم : ٥٦
(١٢) ظ: جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٢ / ١٤٢

المطلب الرابع : ما يطلب من المفسر في تفسير القرآن بالقرآن

من أراد أن يتعرض لتفسير القرآن الكريم فإن لذلك شروطه العامـة وتسمى شروط المفسر ، لكن هناك شروطٌ خاصّة فيمن أراد أن يفسر القرآن بالقرآن فمنها :

١- جمع ما تكرر منه في موضوع واحد ، ومحور واحد ، لمقابلة الآيات بعضها ببعض حتى يتكون لديه التفسير الصحيح، وهذا يكون بأحد طريقين :

الأول: حفظ القرآن عن ظهر قلب، وقراءته قراءة تـدبر ، بـل إني أستطيع أن أقول: إن تفسير القرآن بالقرآن من أهم طرق التدبر العملية .

الثاني: كتب المعاجم التي تولت جمع الآيات المتناظرة سواء المعـاجم اللفظية كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، أو المعاجم الموضوعيَة ، والتي كان الجمع فيها بحسب المواضيع وهي كثيرة ، مثل : تفصيل آيات القرآن لجـول لابــوم ومستدركه لمونتيه ، ومن أشملها :كتاب تصنيف آيات القـرآن لمحمـد إسماعيل.

٢- النظر في سياق الآية لمعرفة المراد والغرض الذي سيقت له على وجه التحديد ، ذلك أن اللغة العربية واسعة التعبير عن المراد بل هي أوسع اللغات، فكان لدى العربي القدرة على التعبير عن المعنى الواحد بأسـاليب متعـددة وألفاظ مختلفة حسب ما يقتضيه حال المخاطب والسامع ،كما لديه القـدرة على التعميم عن المعاني المختلفة بلفظ واحد ، فكان من الضروري لمن أراد أن يفسر القرآن بالقرآن أن يعرف مدلول كل لفظة، ويعرف معناهـا بحـسب سياقها، فليست الكلمة إذا اتفقت حروفها اتحد معناها بل إنَّ معناها يختلف بحســب سياقها وفائدة ذلك من وجهين :

الأول: أنْ لا يُخطئ المفسرُ بالتعميمِ أو التنظير .

الثاني: معرفة الألفاظ والأساليب الواردة في القرآن على معنى مطرد، وما خرج من أفراد هذهِ الألفاظ والأساليب .

٣- أن يكون عارفاً بمباحث تاريخ القرآن وعلومهِ، كالقراءات المتواترة ، إذ ربما يكون تفسيرها وإيضاحها هو في القراءة الأخرى ، إذ كل قراءة بمثابة آية مستقلة ، وبمعرفة ذلك يستطيع أن يحيط بمعاني الآيات وأحكامها [١]. وكذلك معرفته بالناسخ والمنسوخ، فضلّا عن ذلك احاطته بعلم المناسبة .

([١]) ظ: تفسير القرآن بالقرآن ، دراسة تأصيليّة / ٣٥ ــ ٣٦

المطلب الخامس : المدونون بالتفسير الذين اعتمدوا هذا المنهج

الكثير ممن كتب في التفسير اعتمد هذا الطريق فمن مقل ومكثر ، لكن نشير هنا إلى أشهر من اعتمده وأكثر منه ، وقد كان ذلك على طريقتين :

الطريقة الأولى: الاهتمام والعناية به ضمن التفسير دون إفراده، ومن أشهرهم:

١. تفسير ابن جرير الطبري المسمى: (جامع البيان عن تفسير آي القرآن) . وكان تفسير القرآن بالقرآن فيه على نوعين :

النوع الأول: ما نقله من الأحاديث والآثار في هذا الباب، فكان ابن جرير ينقل تلك الأثار كلها ، وبعد ذلك يرجح أحدها بما يراه موافقًا للآية المرادفة لها، سواء أكان الترادف في اللفظ أو المعنى . وهذا ما سنشيرُ اليه بالتفصيل في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني: قيام ابن جرير نفسه بعملية التفسير،: ومن أمثلته :

عند تفسيره لقولـه تعـالى : ﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾ [١]، قال: ((والذي رغب الله في وصلهِ وذم في قطعهِ في هذهِ الآية : الرحم، وقد بين ذلك في كتابهِ، فقال تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ [٢])) [٣] .

٢. تفسير الشيخ الطوسي(ت ٤٦٠هـ)، المسمى : التبيان في تفسير القرآن.

كان الشيخ الطوسي يستفيد في مجموعة من الآيات وإحضارها في المقام لحلِّ مسألة أو تعارض ما، أو لدفع شبهه منشؤها الخلط في المعاني، فتتكامل الصورة بضم بعض الآيات إلى بعضها الآخر ، ونجد ذلك في تفسيـرهِ لقولـهِ تعالـى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٤]، يقول: ((أما الربّ فله معنيان في اللغة، فيسمى السيد المُطاع ربًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿ **أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**﴾[٥] ، يعنى: سيدهُ، ومنهُ قيل : ربّ ضيعةٍ، إذا كان يحاول إتمامها، **وَالرَّبَّانِيُّونَ** [٦] من هذا من حيث كانوا مدبرين لهم . وقوله : (ربّ العالمين) أي: المالك لتدبيرهم، والمالك لشيء يسمّى ربّه، ولا يطلق هذا الاسم إلا على الله ، أمَّا في غيرهِ فيُقيّد، فقال: ربّ الدّار، وقيل إنَّهُ مشتق من التربية، ومنهُ قوله تعالى: ﴿**وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم**﴾[٧])) [٨].

---

(١) البقرة: ٢٧
(٢) محمد : ٢٢
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ١ / ١٨٥
(٤) الفاتحة: ٢
(٥) يوسف : ٤١
(٦) المائدة: ٤٤ – ٦٣
(٧) النساء : ٢٣
(٨) التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٣٢

٣. تفسير الفخر الرازي: (ت ٦٠٦هـ) المسمى: التفسير الكبير أو (مفاتيح الغيب)، وهو من أعلام المفسرين في القرن السابع الذي اتبع في تفسيره منهجية تفسير القرآن بالقرآن بشكلٍ جلِّي، وتابعه ابن كثير(ت ٧٧٤هـ) في تفسيرهِ المسمى (تفسير القرآن العظيم).

وتفسير القرآن بالقرآن فيه على نوعين، منقول ومقول كصنيع ابن جرير، والمقول أكثر وهذا يتبين للناظر في تفسيره من أول وهلة حتى قل أن تجد صفحة ليس فيها عبارة: وهو كقوله تعالى، ومن أمثلته: تفسيره لقوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ**﴾ [١]، قال:((والدم: يعني بهِ المسفوح، كقولهِ تعالى: ﴿**أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا**﴾[٢] قالهُ ابنُ عباس، وسعيد بن جبير)) [٣].

ولذا قال أحمد شاكر في مقدمة عمدة التفسير لاختصار تفسير ابن كثير: ((حافظت كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها وهي تفسير القرآن بالقرآن فلم أحذف شيئًا مما قاله المؤلف الإمام في ذلــك)) [٤].

ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن ابن كثير نص على أن تفسير القرآن بالقرآن من منهجه؛ وذلك في مقدمة تفسيره تبعاً لشيخه ابن تيمية [٥].

الطريقة الثانية: إفراده بالتأليف بحيث يكون تفسير القرآن بالقرآن هو مقصد كتابه، ومنــهم :

١- إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الصنعاني، واسم تفسيره: (مفاتيح الرضوان في تفسير القرآن بالقرآن) [٦].

٢- محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره : (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، وهو أشهر كتاب في تفسير القرآن بالقرآن وقد وضع مقدمة نافعة ذكر فيها جملة من أنواع بيان القرآن بالقرآن.

٣- محمد الصادقيّ، في تفسيره المسمى: (الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة).

٤- أحمد بن عبد الرحمن القاسم (ت ١٤٢٩هـ) في تفسيره المسمى: (القرآن بالقرآن والسنة والآثار)

٥- ثناء الله الهندي الأمرتديّ في تفسيرهِ المسمى: (تفسير القرآن بكلام الرحمن) .

---

(١) المائدة: ٣
(٢) الأنعام: ١٤٥
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢ / ٤٧٨
(٤) عمدة التفسير، مختصر تفسير القرآن العظيم، العلامة الدكتور أحمد شاكر. ط٢، دار الوفاء ، المنصورة ١٤٢٦هـ : ١ / ١٠
(٥) ظ: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير : ١ / ٧
(٦) ومنهم من سماه: فتح الرحمن في تفسير القرآن بالقرآن، وقد حُققت أجزاء منه في مجلة الجامعة الإسلامية

أما تفسير الطباطبائي (ت:١٤٠٢هـ) المسمى: (الميزان في تفسير القرآن)، الذي يُعدّ باعث هذا اللون ومحييه ، فكان يدافع عن هذا المنهج ويبين قصور المناهج الأخرى إذا ما قورنت بهِ، وكان يعدَّهُ منهج المفسرين الحقيقين ألا وهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ((هذا هو الطريق المستقيم والصراط السوي الذي سلكه معلمو القرآن وهداته صلوات الله عليهم)) [١] . إذ مارس هذا المنهج بإتقان، وعلى علم وايمان بهِ، ومن تطبيقاته لهذا المنهج ما فسّر به (ليلة القدر).

قال:((وقولهِ تعالى:﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[٢]، ضمير (**أَنزَلْنَاهُ**) للقرآن، وظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياتهِ، ويؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدّفعة دون التنزيل الظاهر في التدريج . وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿**وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾ [٣] ، وظاهرهِ الإقسام بجملة الكتاب المبين، ثم الإخبار عن أنزال ما أقسم بهِ جملة، فمدلول الآيات أن للقران نزولًا جمليًّا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غير نزوله التدريجي... وليس في كلامه تعالى ما يبين أنَّ الليلة - أيّة ليلة – هي غير ما في قولهِ تعالى : ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾ [٤] ، فإنَّ الآية بانضمامها إلى آية القدر تدل على أنَّ الليلة من ليالي شهر رمضان)) [٥] .

وهكذا يعقد في تفسيره منظومةً قرآنيةً كاملةً ، ليخلُص الى نتائج تتضمن من اللّمحات القرآنية أروعها، ومن اللطائف أدقها، والتفسير بهذا النحو يسمى **(التفسير الموضوعيّ)** وظهور هذا النوع من تفسير القرآن بالقرآن بشكل منهجي مستقل تبلور في أواخر القرن الرابع عشر مع أنَّهُ كان منهجًا تفسيريًا منـــذ بداية التفسير لكـــن بصـــورة ضمنيةٍ وخصوصًا في الممارسات الفقهية [٦].

وإلى جانب الاتجاه التفسيريّ الذي سبقت الإشارة إليهِ هو ظهور الاتجاه اللغوي إذ تنحصر فيه الموضوعيّة بشكل كبير؛ لأن المؤلف الذي اتخذ من اللغوي منهجًا له يقوم بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة وجمعها مع بعضها ليتوصل من ذلك إلى المرمى الذي ترمي إليهِ تلك الالفاظ المباركة ، وأشيرُ إلى أهم من ألف في هذا الاتجـــاه وهم :

١- مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) في كتابهِ (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) ، والذي ذكر فيهِ الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة .

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ١١
(٢) القدر: ١
(٣) الدّخان: ٢- ٣
(٤) البقرة: ١٨٥
(٥) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ١٣٠ – ١٣١
(٦) ظ: أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، محمد المصطفوي، ط٢، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، قم ٢٠١٧م / ٨٠ – ٨١

٢- يحيى بن سلام (ت ٢٠٠هـ) في كتابهِ (التصاريف) ، تفسير القرآن مما اشتبهت اسماؤه وتصرفت معانيه على طريقة كتاب الأشباه والنظائر.

٣- الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، في كتابه المشهور (المفردات في غريب القرآن)، حيثُ تتبع مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات [١].

٤- الدامغاني (ت ٤٧٨هـ) في كتابهِ (اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن)، وعلى هذه الشاكلة كتاب ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) المسمى: (نُزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر).

٥- الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) في كتابهِ (بصائر ذوي التمـــيِّز في لطائف الكتاب العزيـز) [٢] .

٦- ابن العماد (ت ٨٨٧هـ) في كتابهِ (كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر)

والمتطلع على هذهِ المؤلفات يجد أنَّ الجانب اللغويّ هو الغالب عليها، إذ يقومُ المؤلف برصد الالفاظ الغريبة الواردة في القرآن الكريم التي تعددت دلالاتها بحسب ورودها في سياقٍ معين . ليقدم نتيجة معينة بحسب الموضوع الواردة فيه . وإلى جانب هذا اللون من التفسير برزت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغويّة، بل هي ذات بعد موضوعي بيّن وواضح - وإن لم يصرحْ مؤلفيهِ بذلك- القائم على جمع الآيات التي يربطها رابط واحد أو يمكن أن تدخل تحت عنوان معيِّن، منها مثلًا: أمثال القرآن للماوردي ، وفقه القرآن للراوندي، وغيرها التي سنشير إليها في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى .

وأخلصُ من ذلك أنَّ كثيرًا من المفسرين اعتمدوا هذا المنهج بشكل جليّ في مؤلفاتهم وسموا كتبهم بهِ ، وهذا يَدُلُّ على عظمة ومكانة هذا الاتجاه وهو: (تفسير القرآن بالقرآن)؛ ليكون هذا المنهج المنطلق أو الأساس الأول لمرتكزات (التَفسّير الموضُوعيّ) .

---

(١) وفي هذا الكتاب تتبع الأصفهاني دوران كل لفظ في الآيات القرآنية، وأتى بالشواهد عليه من الحديث والشعر، وأورد ما أخذ منه من مجاز وتشبيه ورتبه على الألفباء ، رتب مفردات القرآن حسب حروف الهجاء باعتبار أوائلها، فمادة (حَسب) تسبق (حسد) وهما تسبقان مادة خرج وهلم جرا.

(٢) يقدم تفسير لمفردات القرآن، ويعرضها بشكل منظم حيث يصنفها حسب الحرف الأول من الكلمة، فمثلا الكلمة التي تبدأ بحرف الألف تكون في الجزء الخاص بحرف الألف وهكذا، ويضم هذا القسم ٢٩ بابا على عدد الحروف الأبجدية.

المبحث الثاني: قاعدة الجريّ والتطبيق

قاعدة الجري والتطبيق في القرآن الكريم، من القواعد التي اشارت أليها روايات المعصومين (عليهم السلام) وتُعدّ قاعدة مهمة من قواعد فهم القرآن الكريم، وبها القرآن يتجدد عبر الزمان، ولهذا جاءت روايات أهل بيت النبوة مؤكدة على ضرورةِ التعاطي مع القرآن الكريم، على أساس الجري والانطباق وإلا مات القرآن بموتِ مَن نزل فيهم، ولكنها لم تحظ باهتمام المفسرين والمتخصصين في علوم القرآن كما يجب، إلا القليل النادر بينهم وعلى هذا الأساس سنوضح قدر الاستطاعة مفهوم هذه القاعدة المهمة باعتبارها ركنًا ومرتكزًا اساسًا من مرتكزات التفسير الموضوعيِّ ومنطلقاتهِ الأولى.

التمهيد: الأهمية والتاريخ :

يُعدُّ القرآن الكريم الكتاب الخالد الذي يصلح لجميع الأزمنة ولجميع الأجيال، والكتاب العالمي لكل مكان ولجميع الشعوب، فلا يتحدد بقيود الزمان والمكان، بل الحال واحدة في تطبيق الآيات على الناس الذين هم في صدر الاسلام والناس الذين هم في عصور اخرى لاحقه ، لقد ذُكرت قاعدة الجري في أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) في صدر الاسلام ولكنها لم تحظ العناية الكافية من قبل المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن.

تحدث عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) عن جزئيات هذه القاعدة، وعدَّها قاعدة جليلة وعظيمة، ولكنه لم يذكر اصطلاح (الجريّ) بل أشار إلى تطبيق التعاليم الارشادية للقرآن الكريم - على اساس العرف والعادة – على الحالات والمسائل المعاصرة، فقال : ((القرآن يجري في ارشاداته مع الزمان، والأحوال في احكامه الراجعة للعرف، والعوائد)) [١].

ولكن مفسرين اخرين أولوا لهذه القاعدة أهمية كبرى ، كالطباطبائي في تفسيره الميزان، واستعملها في تفسير الآيات وعدّها قاعدة، وإنَّ هذا الاصطلاح مأخوذ من كلام أهل البيت (عليهم السلام)، فقال: ((واعلم أن الجري و - كثيرا ما نستعمله في هذا الكتاب - اصطلاح مأخوذ من أئمة أهل البيت "عليهم السلام")) [٢] ففي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال: ((سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية، ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن وما فيها حرف إلا و له حد، ولكل حد مطلع ما يعنى بقوله ظهر وبطن؟ قال؟ ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد، يجري كما يجري الشمس والقمر، ...)) [٣]، وفي هذا المعنى روايات أخر، وهذه منهجيّة أئمه أهل البيت فإنهم "عليهم السلام" يطبقون الآية من القرآن على ما يقبل ان ينطبق

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، تح: خالد عبد عثمان السبت ،ط١، دار ابن الجوزي / ٥٩ .
(٢) الميزان في تفسير القرآن : ١ / ٤١ .
(٣) المصدر نفسه: ١ / ٤٢ .

عليه من الموارد وان كان خارجًا عن مورد النزول، والاعتبار يساعده، فان القرآن نزل هدى للعالمين يهديهم إلى واجب الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، وما بينه من المعارف النظرية

حقائق لا تختص بحال دون حال ولا زمان دون زمان، وما ذكره من فضيلة أو رذيلة أو شريعة من حكم عملي لا يتقيد بفرد دون فرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع.

المطلب الأول: مفهوم قاعدة الجريّ والتطبيق

أولًا: المعنى اللغويّ للجريّ والتطبيق:

كلمة (الجريّ) في الأصل تدل على الحركة المنظمة والدقيقة - في المكان – طولاً، وانسياح الشيء، يقال: جرى الماء يجري جـريةُ مثل جريـان الماء أو السفيـنة في البـحر أو الشـمس. [١]، وهناك الكثير من اللغويين لم يُقيدوا كلمة (الجري) بالحركة في المكان بل عدوها خلاف السكون لا غير[٢]. أما كلمة (التطبيق) فهي بالأصل بمعنى وضع الشيء على آخر بشكل يغطيه ويساويه [٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي للجري والتطبيق :
ذكر الطباطبائي أنَّ اصطلاح (الجري) أُخذَ من أحاديث أهل البيت (عليهم السلام)، ثم أشار إلى تلك الروايات، وكتب في تعريف قاعدة الجري ما يلي: وهذا منهج أهل البيت (عليهم السلام) فإنهم يطبقون الآية القرآنية على موارد تقبل الانطباق عليها وان كانت خارجة عن مورد نزول القرآن . فهو يطبق قولهُ تعالى : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[٤] على الإمام علي (عليه السلام) والـذي جاء ذكـره في الروايـات فـعدَّ الطباطبـائي أنَّـها من موارد تطبيق قاعدة الجريّ [٥] .

ولكي لا يلتبس على الباحث أو القارئ بيان مصطلح الجريّ والتطبيق وخلطه مع غيرهِ من المصطلحات ، كان من اللازم دراسة هذا المصطلح وتميزه عن غيره من المصطلحات أو المفاهيم؛ لكي يتضح معنى (الجري والتطبيق) أكثر فأكثر ومن هذه المفاهيم :

١- التفسير: الكشف ، أو رفع الستار عن الإبهامات في الكلمات والجمل القرآنية وتوضيح مقاصدها وأهدافها .

---

(١) ظ: معجم مقاييس اللغة ابن فارس : ٢ / ٢٣٠
(٢) ظ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٢ / ٧٧ مادة (جري).
(٣) ظ: معجم مقاييس اللغة ، مادة (طبق)
(٤) الحمد : ٦
(٥) ظ: الميزان في تفسير القرآن : ١ / ٤١ – ٤٢ .

٢- التأويل: له معانٍ كثيرة ولكن المشهور عند المتأخرين: هو بيان المعنى المخالف لظاهر الآية اعتمادًا على قرينة عقليّة أو نقليّة .

٣- البطن : وله معانٍ عديدة ، وهو أخذ القاعدة الكلية من الآية بعد الغاء خصوصيتها وانطباقها على مصاديق جديدة .

٤- الجري والتطبيق: وهو انطباق ظاهر القرآن - الكلمات أو الجمل – والذي هو المفهوم العام ، الكلّي أو المطلق على المصاديق الجديدة الحاصلة على مر العصور والأجيال واختلاف الأماكن [١].

وهذا التوضيح والفصل بين المصطلحات يبين لنا أن (الجريّ) يمكن أن يُعدّ نوعًا من التفسير؛ لأنه يشخص ويعيِّن مصاديق الآية، وهو نوع من رفع الإبهام وإثارة المقصود من الآية، وبعبارة اخرى أن قاعدة الجري من قواعد التفسير[٢].

المطلب الثاني: اشكال الجريّ والتطبيق واجراءاتها

يمكن أن يكون الجري والتطبيق لكلمات القرآن وجملهِ على المصاديق الجديدة بعدة صور وأشكال منها [٣]:

أولًا: الجري والتطبيق بمساعدة القرائن النقليّة (الآيات والروايات)، مثل قوله تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ [٤]، وقولهِ تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾ [٥]، فأن مصاديق الآية الأولى تتشخص من خلال الآية الثانية، فيكون المقصود واضحاً أن (الذين أنعمت عليهم) هم: الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

ثانيًا: الجري والتطبيق بمساعدة القرائن غير النقليّة : مثال على ذلك أن السنن الإلهية المذكورة في القرآن كسنة الابتلاء والامتحان والتغيِّر هذهِ مصاديق متجددة في كل عصر، فمثلاً قد تبتلى مجموعة من الناس بالخوف والجوع والمشاكل الجسمية والمالية وغيرها فيكونون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[٦] .

---

(١) ظ: منطق تفسير القرآن (أصول وقواعد التفسير) محمد علي الرِّضائي الأصفهاني، تعريب: أحمد الأزرقي، ط٢، مركز المصطفى العالمي، قم المقدسة ١٤٣٦هـ / ٣٧٢ .
(٢) ظ: المصدر نفسه والصفحة/ .
(٣) ظ: المصدر نفسه / ٣٧٤
(٤) الفاتحة: ٧
(٥) النساء: ٦٩
(٦) البقرة : ١٥٥

ويمكن أن تستعمل قاعدة (الجري والتطبيق) في تعيّن المصاديق تبعًا للأحوال والأفعال، أي أنَّ الآيات المحكمة في القرآن واحكامهِ الأساسية لا تتغير مهما طال الزمن، مثل : (الصلاة ، الصوم، الحجّ، نفيّ الشرك، حرمة القتل ظلمًا، وحرمة الزنا، و الخمر، وغيرها) هذهِ الأحكام لا تتبع الزمان والمكان ولا تتأثر بهما، بل هي باقية مثل ما كانت جارية علينا وعلى من سبقونا وباقية لما بعدنا ، ولكن هنالك مواضيع للأحكامِ والآيات يمكنها أن تتغير بحسب مقتضيات الزمان، أي أنَّ بعض الآيات بينت بصورة مطلقة، ولها مصاديق خاصّة في عصر النزول، تشخصت وتعينت على أساس العرف والعادات ، والمشهور أنَّ تلك الأساليب أو العادات تتغير في المجتمع بمرور الزمن .

وهذا ما نرمي إليهِ بأنَّهُ لابدّ أن تجد للآيات مصاديق جديدة تُبنى على أساس المقتضى الزماني وما يتطلبه ، فتجري الآيات فيها على مقتضيات الزمان والمكان، وأشار العلماء إلى هذا الاستعمال ، وقد أشرنا إليه سابقًا ، وأصرَّ على أنه قاعدة مستقلة وتقع تحت عنوان : ((القرآن يجري في ارشاداته مع الزمان، والأحوال في احكامه الراجعة للعرف، والعوائد)) [١].

مثال على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾[٢]، فإنَّ الله تعالى يردهم فيهِ إلى العرف، والعادة، والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت؛ وذلك أنهُ أمر بالإحسان إلى الوالدين في الأقوال والأفعال، ولم يعيّن لعبادهِ شيئًا مخصوصًا من الإحسان والبر؛ ليعم كلّ ما تجدد من الأوصاف، والأحوال، فقد يكونُ الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حقّ شخص دون حقّ شخص آخر ، فالواجب الذي أوجبهُ الله : النظر في الإحسان المعروف في وقتك، ومكانك، في حقِّ والديك . ومثل ذلكَ ما أمر بهِ من الإحسان إلى الأقارب، والجيران، والأصحاب، ونحوهم فإنَّ ذلك راجع في نوعهِ وجنسهِ إلى ما يتعارفهُ الناس إحسانًا ، وكذلك ضدهُ من العقوق والإساءة ، يُنظر فيهِ إلى العرف [٣].

وكذلك قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٤]، ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٥] فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك، وحالك، وذلك يختلف اختلافا عظيما لا يمكن إحصاؤه عدا، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن، وبراهين صدقه.

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي / ٥٩ .
(٢) البقرة: ٨٣، والنساء : ٣٩، والأنعام: ١٥١، وما يشابهها في الأحقاف: ١٥ .
(٣) ظ: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن / ٦٠
(٤) النساء: ١٩
(٥) البقرة: ٢٢٨

و قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [١] ومن المعلوم أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة الموجودة بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقت بما يناسبه ويليق به.

ثالثًا: بيان مصاديق الآية بعد إلغاء الخصوصية وأخذ القاعدة الكلية منها:

إنَّ تطبيق الآيات على المصاديق يتحقق بصورتين:

١- تطبيق ظاهر الآية على مصاديقها بشكل مباشر.
٢- تطبيق القاعدة الكليِّة – المأخوذة من الآية على المصاديق، ويسمى تطبيقًا غير مباشر[٢] أي أنْ نُلغيّ – في الخطوة الأولى – القيود الزمانية والمكانية ، بمعنى إلغاء الخصوصية للآية ، ونستخرج هدفها ثُمَّ القاعدة الكلية منها ، ثُمّ تحمل هذهِ القاعدة على المصاديق الجديدة .

وبعبارة أخرى، فإنه يوجد أكثر من ألف آية في القرآن لها (شأن نزول). وتوجد آيات كثيرة نازلة بشأن القرى والشعوب والأمم السابقة على عصر الإسلام، ففي هذه الموارد لابد من إلغاء الخصوصية، ومن ثَمَّ يعمم العمل بالآية في الموارد المشابهة على مر العصور اللاحقة.

مثال: قصة يوسف، أو عاد، أو ثمود، أو فرعون، أو موسى (عليهم السلام)، يمكنها أن تبقى في قيد الزمان والمكان وتعد آنذاك تقريرًا وإخبارًا عن التاريخ ومجرياته فحسب، ويمكن إلغاء خصوصيتها وتطبيقها على ما شابهها من موارد في طول التاريخ البشري أي الزمن الحاضر. وهذا ما التفت إليهِ السيد محمد باقر الصدّر (ت ١٤٠٠هـ)، من قبلُ، وهذا ما سنعرضهُ عند حديثنا في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [٣] حُكي في خصوص هذه الآية عن الإمام الصادق : " إن القسطاس هو الإمام"[٤] .

وكذلك مع كلمة (الميزان) كقولهِ تعالى:﴿ **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ [٥] ، فقد نقل كثير من أحاديث اهل البيت(عليهم السلام) . أن المقصود به هو: الإمام العادل. والميزان أمير المؤمنين (عليه السلام) نصبه لخلقهِ، وأن الطغيان في الميزان هو معصية الإمام ، وإقامة الوزن بالقسط هو أقيموا الأمام بالعدل، أي: أنَّ من يبخس الميزان فقد بخس الإمام حقّهُ وظلمهُ [٦].

---

(١) الأنفال: ٦٠
(٢) ظ: منطق تفسير القرآن/ ٣٧٧
(٣) الإسراء: ٣٥
(٤) بحار الأنوار: ٢٤ / ١٨٧
(٥) الرحمن : ٩ ، الأنبياء : ٤٧
(٦) ظ: تفسير القميِّ ، علي بن إبراهيم القمي(ت ٣٢٩هـ)، ط١، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٤٢٨هـ: ٢ / ٣٤٣

والحقيقة أننا انتقلنا من الميزان المادي بعد إلغاء الخصوصية وتشخيص هدفه وهو آلة للوزن والقياس وجعله محط النظر. وتوضيحه بشكل قاعدة كلية أي أن في القياس والتقويم هو الميزان العادل والمستقيم. وهذا المعيار يمكن أن يكون ماديًا كالميزان الدنيوي، أو معنويا كالإنسان الكامل يعني الإمام (عليهِ السلام)، والذي هو ميزان الأعمال للناس وبه يقاس ما يقبل وما لا يقبل منهما. وبعبارة أخرى فإن الآيات التي مر ذكرها تتكلم في بادئ الأمر والظاهر الأولي عن خصوص الميزان المادي، ولكن وبإلغاء الخصوصية وأخذ القاعدة الكلية يمكننا العثور على مصاديق جديدة.

المطلب الثالث: أدلة قاعدة الجري والتطبيق

الأول: دليلٌ عقليّ

إنَّ القرآن الكريم هو الكتاب الخالد، فهو يصلح لجميع الأزمنة والأمكنة ولجميع البشرية جيل بعد جيل، فأنَّ العمل بهِ جارٍ إلى قيام الساعة، فبالإدراك العقلي السليم ندركُ عظمة القرآن وقوته وأنَّ تطبيقهُ على عصرٍ معيَّن ولم يتعدَ إلى العصور والأماكن والأجيال اللاحقة لماتت تلك العظمة وانتهت تلك القوة وأصبحت خاصَّة بذلك العصر فقط . إذا فإنَّ خلود القرآن وحياته في جميع العصور وإلى يومنا هذا يرتبط بإجراء قاعدة (تجري) إذ بواسطها تصلُ الرسالة الخالدة (القرآن الكريم) إلى الأجيال اللاحقة ويتضح بها واجباتهم وطريقهم، أضف إلى ذلك فإنَّ ذلك الجريان للقرآن ومسايرته للحياة إنما ليقيم الحجَّة على كل جيل يشهدهُ ، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد ، فالقرآن الكريم بتقدم الزمن وبتتابع الأجيال أصبح وحي الله الذي لا يموت ، الداعي إلى الحق، الناهي عن الباطل، من هذا المنطلق أشيرُ إلى بعض الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) التي جاءت لتوثق الدليل العقلي ، وهو إنَّ العقل يُثبت، ويؤيد أنَّ القرآن يجري مجرى الشمس والقمر، والليل والنهار، وخلوده واضح ، ودليل ذلك هو أنّ القرآن منذ نزوله على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يومنا هذا والدراسات فيه كثيرة وهو قائم بذاته واعجازه ثابت، ويمكن توثيق هذا بذكر الروايات عن أئمة أهل البيت، ومنها :

قال الأمام الباقر(عليه السلام): ((ولو أن الآية نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض)) [1].

([1]) أصول الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني(٣٢٩هـ): ١ / ١٢٠ . تفسير القميّ : ١/ ٤٤

وروى أيضًا أنَّ رجلًا سأل أبا عبد الله (عليهِ السلام) : ((ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال (عليه السلام): لأنَّ الله تبارك وتعالى لم يجعلهُ لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهــو في كـل زمان جديد، عند كل قوم غض إلى يوم القيامة)) [١].

وأشار بعض المفسرين والعلماء إلى هذا المطلب ، منهم الطباطبائيّ قائلًا: ((فان القرآن نزل هدى للعالمين يهديهم إلى واجب الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، وما بينه من المعارف النظرية حقائق لا تختص بحال دون حال ولا زمان دون زمان، وما ذكره من فضيلة أو رذيلة أو شرّعه من حكم عملي لا يتقيد بفـرد دون فـرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع)) [٢] .

والروايات في تطبيق الآيات القرآنية عليهم أو على أعدائهم أعني: روايات الجري، كثيرة في الأبواب المختلفة، وربما تبلغ المئين، ونحن بعد هذا التنبيه العام نترك ايراد أكثرها في الأبحاث الروائية لخروجها عن الغرض في الكتاب، إلا ما تعلق بها غرض في البحث فليتذكر [٣].

ثانيًا: الدليل القرآني:

تُعدّ بعض الآيات القرآنية دليلا على قاعدة الجري وعلى الأقل فهي شاهد عليها، قال تعالـــى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [٤]

الأصل في كلمة (العبرة) ((هو العبور والتجاوز من حال إلى حال، والاعتبار والعبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد))[٥]، أي على العقلاء أن يشاهدوا أحداث الماضي ، و يسعوا إلى أن يعتبروا بها ويأخذوا منها درسًا لحياتهم ويجعلوا من حياة الانبياء (عليهم السلام) دروسًا لهم وقواعد عامة يتخذونها في حياتهم اليومية، ويجعلونها نقاط قوة، حتى لا يقعوا في ابتلاءات المشاكل الدنيوية.

وكذلك الآيات التي بيّنت السنن الإلهية والقوانين الكلية وغير القابلة للتغيير[٦] كقوله تعالى: **﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾** [٧] فيمكنها أن تشمل حال من لهم الظروف المشابهة في كل عصر ومكان. وأيضًا الآيات التي دعت الناس إلى السير في الأرض

---

(١) تفسير العياشي، الشيخ ابي النضر محمد بن مسعود العياشي (ت: ٣٢٠هـ)، ، ط١، مؤسسة البعثة، طهران١٤٢١هـ : ١ / ٢١

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ١ / ٤٢

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٤٢

(٤) يوسف: ١١١

(٥) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي مادة (عبر)

(٦) ظ: سورة آل عمران: ١٣٧ ، والنساء: ٢٦، والإسراء: ٧٧ ، ولأحزاب: ٦٢، وفاطر:٤٣، والفتح: ٢٣، وغيرها .

(٧) الفتح : ٢٠

والنظر في ماضي الأقوام السابقين والتأمل والاعتبار بحالهم [١] كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ [٢] كلها تشير بنحو من الإشارة إلى قاعدة الجري، أي أن تلك السنن والحوادث الماضية يمكنها أن تحدث مرة أخرى.

فلا ينبغي تلقي تلك الآيات مجرد إخباريات تاريخية وتقادير عما جرى في الماضي لا غير، بل هي آيات إلهية قابلة للتكرار ولها مصاديق متجددة على مر العصور يمكن انطباقها على الحاضر. ومن الممكن أن تتكرر قصص: عاد، وثمود، وفرعون وموسى، وقوم لوط، وتتحقق مرة أخرى في تاريخ البشرية، فتجري هذه الآيات في مورد الأمم اللاحقة وتطبق عليهم [٣].

ثالثًا: الدليل الروائي:

أشرتُ فيما سبق أن بعض الأحاديث صَرَّحَتْ بقاعدة الجريّ، وبعض الأحاديث أشارت إليها، ولم تصرح بها ومن أهم تلك الأحاديث، حديث (فضيل بن يسار) والذي عُدَّ سنده صحيحًا،((حدثنا محمد بن عبد الجبار بن إسماعيل عن منصور بن أذينة عن الفضل بن يسار، قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن هذه الرواية «ما من آية إلا ولها ظهر وبطن وما فيه حرف إلا وله حد ومطلع». ما يعني به قوله لها ظهر وبطن؟ قال (عليه السلام): ظهر وبطن تأويلها منه ما قد مضى، ومنه ما لم يجي، يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء فيه تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ [٤] نحن نعلمه)).

لقد ذكرت هذه الرواية في كتاب بصائر الدرجات [٥]، للصفار (ت ٢٩٩هـ) مسندة، ولكنها جاءت في تفسير العياشي (ت/٣٢٠هـ) بدون سند عن فضيل بن يسار، وفيها اختلاف يسير وهو: قال: ((ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع)) [٦] .

وكذلك نقل عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: ((للقرآن تأويل يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، فإذا جاء تأويل شيء منه وقع، فمنه ما قد جاء ومنه ما يجيء)) [٧] .

---

(١) ظ: سورة يوسف: ١٠٩ ، وآل عمران: ١٣٧، والروم: ٩، ومحمد : ١٠ ، وغيرها.
(٢) الروم: ٩
(٣) ظ: منطق تفسير القرآن / ٣٨٠
(٤) آل عمران: ٧
(٥) ظ: بصائر الدرجات في مناقب آل محمد (فضائل أهل البيت) / ١١٩
(٦) تفسير العياشي: ١ / ٢٢ – ٢٣
(٧) بحار الأنوار: ٢٣ / ٧٩

ونُقل أيضًا عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبي بصير قال: ((قلت لأبى عبد الله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [١]، فقال (عليه السلام): رسول الله المنذر، وعلي الهادي، يا أبا محمد، هل من هاد اليوم؟ قلت: بلى، جعلت فداك ما زال منكم هادٍ بعد هاد حتى دفعت إليك. فقال رحمك الله يا أبا محمد، لو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية، مات الكتاب، ولكنه حي يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى)) [٢].

وفي ضوء ما تقدم من رواياتٍ تبين لنا ما يأتي:

١- القرآن كأنه الشمس في جريانها، أي كما أن للشمس في كل يوم إشراقًا جديدًا، وترسل النور لأناس جدد، إذ إنه في كل يوم يأتي إلى الدنيا أناس جديدون ويذهب عنها آخرون، فليس نور الشمس متكررا ولا المستضيؤن ثابتون، وعليه فالقرآن كذلك فهو في كل يوم هداية وعلم جديد ومصداق جديد لجيل جديد.

٢- إنَّ هذه الأحاديث كانت تشير إلى أسرار بقاء القرآن وخلوده، كما جاء صريحًا في رواية صريحة، ما دامت السماوات والأرض. وقاعدة (الجري والتطبيق) إنما هي من أسرار ذلك الخلود. وبعبارة أخرى فإن القرآن بمساعدة هذه القاعدة تحرر من قيد الزمان والمكان وسرى في جميع الأزمنة والأمكنة.

٣- إنَّ الفاعل للفعل (يجري) ـ في الرواية ـ هو القرآن الكريم - وهذا ما أشرنا إليه فيما سبق عندما ذكرهُ الطباطبائي [٣]،ونعلم أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وقاعدة الجري والتطبيق عامة وفعالّة في ظواهر القرآن كما هو الحال في باطنهِ، بمعنى (أخذ القاعدة الكليّة وتطبيقها على المصاديق الجديدة) .

٤- إنَّ ألفاظ القرآن الكريم لها حضور في الواقع (العالم الخارجي) ، وإنَّ ألفاظهِ تفسر بعضها بعضًا، وتشرح بعضها البعض، ، وإنَّ آياته المباركة تجري كما تجري الشمس و القمر، وكما يسير الليل والنهار، وإنَّها باقية في كل عصر ومصر، وإنَّ احكامه كما جرت على السابقين فإنَّها تجري وتُنطبّق على اللاحقين أيضًا ، ولكنها قد تختلف وتتلون تبعًا للواقع المعيّش ومتطلبات العصر لتكون هذه القاعدة العظيمة من الاسس والمنطلقات المهمة للتفسير الموضوعيّ ؛ إذ إنَّ حياة القرآن قائمة بهذهِ القاعدة؛ لأن خلوده مرتبط بها ومتوقف عليها، وإلا فسيكون القرآن كتابًا تاريخيًا ليس إلا .

---

(١) الرعد: ٧

(٢) أصول الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ)ط١، منشورات الفجر، بيروت ١٤٢٨هـ : ١ / ١٩٢، كتاب الحجة .

(٣) ظ: الميزان في تفسير القرآن: ٣ / ٧٢

المبحث الثالث: نظرية التدبر في القرآن الكريم

هذهِ النظرية تدعونا إلى النظر والتأمل في كتاب إلى الله تعالى بوصفهِ وحدة موضوعيّة كاملة ، وبوصفهِ كلمة واحدة، فالقرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس هو على نسق واحد وعلى نظام واحد، وإنَّ قضية التدبر والتفكر في كتاب الله تعالى لها آثار وأهمية كبرى في حياة الفرد والمجتمع ؛ حيث أن تدبر القرآن الكريم من أهم عوامل تحضر ورقي المسلمين في مختلف مناحي الحياة، كما أن غياب التدبر والفهم لكتاب الله، من أقوى أسباب التخلف الحضاري.

فالتدبر واجب شرعي على كل مسلم حسب قدراته العقلية وطاقاته الإدراكية. وهذه الطاقات خلقها الله عز وجل، وأودع فيها القدرة على النمو والزيادة عن طريق الاكتساب والتعلم والتطوير المتاح للبشر، فلا يُعذر أحد بعدم التدبر في آيات الله وقد يسّره الله للذكر، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[١].

إنَّ القرآن الكريم نزل على العرب وكانوا أمة أميّة لا تعرف القراءة والكتابة فتلقوه بقلوبــهم، وحفظوه في صدورهم، وساروا عليه في حياتهم وسلوكياتهم، حتى بات الواحد من الرعيل الأول مصحفًا يمشي على الأرض. ولم تكن حالة الأميّة السائدة آنذاك، مانعًا من التدبر والنظر في القرآن الكريم فقد نظر الرعيل الأول إلى القرآن وقرأوه بقلوب واعية وبصائر متفتحة، فكانت تلك القراءة مصداقا لقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ﴾[٢] ، وإنَّ تلك القراءة المتدبرة الواعية آتت ثمارها في حياتهم وسلوكهم وتعاملهم مع العالم بأسرهِ على الرغم من ندرة آليات الكتابة في ذلك الوقت . ولكن مع تقدم الزمان نجد التراجع والتخلف بدأ واضحًا في عدم اتمام تلك التلاوة الواعية المتدبرة وتظافرت عوامل عديدة في تأخرها وغيابها عن واقع المسلمين وحياتهم مع كتاب الله إلى أن وصلت إلى حالة من الأميّة العقلية ، فعلى الرغم من التطور الحاصل وانتشار وسائل النشر والطباعة التي أسهمت في تسهيل حفظ القرآن الكريم - قراءة وسماعا وكتابة - إلا أن كتاب الله بات بعيدًا عن واقع المسلمين وحياتهم العملية ، وانتشرت الأمية في فهم ومعرفة كلام الله تعالى، تلك الأمية التي نجمت عن بُعد الأمة عن التدبر في كتاب الله ، والمرور على آياته دون تأمل أو تدبرّ، لذلك نجد غيابًا حضاريًا وهزائم متكررة ولا سيما العلمية منها وعجزًا عن التعامل مع الاحداث المستجدة والضعف والتردد في اتخاذ المواقف، والعجز أيضاً عن اكتشاف السنن والقوانين الكونية والاجتماعية إلى غير ذلك من التخلف ، كل ذلك يبرز أهمية التدبر في كتاب الله تعالى في حياة الفرد والمجتمع والآثار الخطيرة المترتبة على غيابهِ، فبهِ تُخرج الناس من الظلم إلى النور ومن الجهل والتخلف إلى الرقي والتطور . إنَّ التدبر والتفكر بمعنى أن ينظر الانسان في الكلام من أولهِ إلى آخرهِ، ثم يعيد ذلك النظر مرة بعد مرة ، ولهذا فأن مفسر كلام الله تعالى إنما ينظر إلى الآيات المباركة ليجد لها نظائر من الكتاب نفسه ويعيد التأمل فيها بدقة ليتوصل فيما بعد إلى حلول مناسبة، وهذا الجهد الذهني الذي يقوم به المفسر إنما غايته التوصل إلى عواقب

---

(١) القمر: ٢٢
(٢) العلق : ١

الأمور ونتائجها، وهذه تكمن في استعمال (نظرية التدبر والتفكر) لذلك نرى بأن هذهِ النظرية تُعدّ من المنطلقات والاسس المهمة (للتفسير الموضوعيّ).

المطلب الأول: في مفهوم التدبر

أولاً: معنى التدبر في اللغة

الكلمة مأخوذة من مادة (د ب ر) وأصلها آخر الشيء وخلفهِ ، قال ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): ((دبر: الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أنَّ جُلّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء)) [١] . دبّر الأمر وتدبّره أي نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبرا أي بآخره. فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة ، والتدبر في الأمر: التفكر فيه، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره أي أوله من آخره. ويقال فلان لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره.[٢]

ودبّرت الأمر تدبيرا فعلته عن فكر وروية، وتدبرته تدبرًا نظرت في دبره وهو عاقبته و آخره [٣] .

ثانيًا: معنى التدبر في القرآن الكريم

المقصود بتدبر القرآن الكريم النظر والتوصل إلى مغزى الآيات القرآنية ومقاصدها وأهدافها وما ترمي إليه، عن طريق إعمال الفكر والتأمل وبذل الجهد الذهني في فهم الآيات. وقد عرّفه بعض العلماء المعاصرين بأنه: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة [٤].

كما يشمل التدبر انتفاع القلب بتلك المعاني بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره وأخذ العبرة منه [٥]، إنَّ تدبر القرآن إنما هو نشاط عقلي غايته الوصول إلى أواخر دلالات النصوص القرآنية ومراميها ومقاصدها. فالقرآن الكريم له مقاصد وغايات جاء لتحقيقها في حياة الأفراد

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ٢ / ٢٦٦
(٢) ظ: لسان العرب : ٤ / ٢٧٣
(٣) ظ: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد المقري الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، ، ط١، دار الرسالة العالمية ، بيروت : ١ / ١٨٩ .
(٤) ظ: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل ، عبد الرحمن حسن الميداني، ط٢، دار القلم، دمشق ١٩٨٩م / ٤٥
(٥) ظ: تدبر القرآن، سلمان بن عمر السنيدي ، ط٢، المنتدى الاسلامي، ١٤٢٣هـ / ١١

والمجتمعات وهي غايات عامة. وثمة غايات اخرى خاصّة بكل سورة في القرآن وما تروم تحقيقه من مقاصد.

ورد التدبر في القرآن الكريم في أربع آيات مباركة منها ، قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[١] ، وفي موضع آخر : ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[٢]، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾[٣] ، وقال عــزَّ من قائل: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾[٤] .

إنَّ المتأمل للآيات القرآنية التي تدعو إلى التدبر جاءت بصيغة الفعل وليس الاسم، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن التدبر وظيفة عقليّة وفعل من أفعال العقل الإنساني المتواصلة، فالإنسان يولد وهو مزود بقدرات عقلية متعددة ومنها القدرة على التدبر والنظر في العواقب وتأمل النتائج، وذلك عن طريق ربط الأسباب بالمسببات من خلال مجابهة الآية بآية أخرى بنفس الموضوع للتوصل إلى النتائج المرادة ، والآيات الواردة في القرآن الكريم، أشادت بالتدبر مبينة أنه قدرة عقلية تظهر في الربط بين المقدمات والنتائج واكتشاف الأسباب التي أدت إليها.

وثمَّة مفاهيم مقاربة لمفهوم التدبر، إلا أنها تختلف عنه وتغايره في بعض الدقائق اللغوية والوظيفية، منها: (التعقل، التأويل، الفقه، التفكر، التذكر، النظر، الشهود، الإبصار، والحكمة، و التأمل ...) فهي مفاهيم مقاربة للتدبر إلا أنها تختلف عنه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك القدرات العقلية وتباين دلالاتها في النصّ القرآني ومراده منها، مما يؤكد على أنها قدرات متباينة يؤدي كل منها إلى أمر محدد، إلا أنها كلها تعد وظائف للعقل والذهن الإنساني .

وقد دعا القرآن الكريم وحثّ على استعمال مختلف القدرات العقليَّة وتنميتها وإعمالها، وعَابَ على الذين يعطّلون تلك القدرات ويهملون استعمالها رغم أنها أهم مزايا العقل الإنساني. قال تعالى في سياق الاستنكار على المعطلين للقدرات العقلية : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [٥] .

فقدرة التفكر - على سبيل المثال – التي قد يتوهم الإنسان الترادف بينها وبين التدبر، تعني استعمال المهارات العقلية كلها للوصولِ إلى الحقيقة، وهي التصرف في معاني الأشياء لدرك المطلوب، فهو ترتيب الأمور في الذهن للتوصل إلى مطلوب يكون علمًا أو ظنًا [٦] .

---

(١) محمد : ٢٤
(٢) النساء : ٨٢
(٣) المؤمنون: ٦٨
(٤) ص : ٢٩
(٥) الحج : ٤٦
(٦) ظ: كتاب التعريفات: ١/ ٨٨ ، وفي معنى التفكر باللغة . يُنظر: لسان العرب:٥ / ٦٥ و مختار الصحاح: ١ / ٢١٣.

وقد ورد ذكر مادة (التفكر) في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعًا، ويراد به إدامة النظر العقلي في العلامات والإشارات والآيات للتوصل إلى الفروق والموافقات بين الأشياء والمعاني والاحتمالات [١].

وبذلك يكون التدبر في القرآن : ((هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصدهِ التي يرمي إليها، وعاقبة العامل بهِ، والمخالف له)) [٢] ، قال الزمخشريّ: ((وتدبر الآيات : التفكر فيها ، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة ؛ لأنَّ من اقتنع بظاهر المتلو ، لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور[٣] لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن البصريّ : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله : حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين)) [٤].

ثالثًا : معنى التدبر في الاصطلاح

- التدبر: النظر في دبر الأمور أي عواقبها وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف بالنظر في الدليل والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب [٥].

- ((وتدبر الكلام ان ينظر في اوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين)) [٦].

ولم يختلف استعمال المفسرين للتدبر عن معناهُ اللغوي، بل جاء على الاستعمال السابق ، فمن تعاريفهم لكلمة التدبر:

يُعَرَّفُ التفكر في الاصطلاح على أنَّه؛ التصرف الذي يقوم به قلب الإنسان عند النظر في الدلائل. أما التدبر هو التصرف الذي يقوم به قلب الإنسان عند النظر في العواقب .

(١) ظ: التفكر في المشاهدة والمشهود . مالك البدري، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا ١٤١٣هـ / ٥٥

(٢) تفسير المنار : ٥ / ٢٣٣ .

(٣) اللَّقْحَةُ : الناقةُ الحلوب الغزيرةُ اللبن، واللقحة بالكسرِ والفتح: الناقة القريبة العهد بالنتاج، والجمع لِقحَ، يُنظر: معجم مجمع البحرين، الشيخ فخر الدِّين الطريحي(ت ١٠٨٥هـ)ط١،مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤٣٠هـ / ١١٦٩

(٤) الكشاف: ٦ / ١٧ .

(٥) ظ: التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، ، تح: محمد الداية، ط٢، دار الفكر المعاصر، دمشق ١٤١٠هـ : ١/ ١٦٧ . وايضاً انظر : التعريفات للجرجاني، ، مصدر سابق / ١٧ .

(٦) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت : ١ / ١٨٣ .

١- قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ((تدبر الأمر : تأمُّله والنظر في إدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه ، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن : تأمل معانيه وتبصر ما فيه)) [١].
٢- قال الرازي (ت ٦٠٦ هـ): ((التدبير والتدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها)) [٢].
٣- قال الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ): ((يقال تدبرت الشيء : تفكرت في عاقبته وتأملته ، ثم استعمل في كل تأمل ، والتدبير : أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته)) [٣].
٤- قال الآلوسي (ت١٢٧٠ هـ): ((وأصل التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه أو سوابقه وأسبابه أو لواحقه وأعقابه)) [٤].
٥- قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((والتدبّر مشتقّ من الدُّبر ، أي الظَّهر ، اشتقّوا من الدُّبر فعلاً ، فقالوا : تدبّر إذا نظر في دبر الأمر ، أي في غائبه أو في عاقبته ، فهو من الأفعال التي اشتقّت من الأسماء الجامدة . والتدبّر يتعدّى إلى المتأمَّل فيه بنفسه ، يقال : تدبّر الأمَر . فمعنى (يتدبرون القرآن): يتأمّلون دلالته ، وذلك يحتمل معنيين : أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين ، أي تدبّر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله ، وأنّ الذي جاء به صادق)) [٥].

ومن خلال عرضي للأقوال التي ذكرت مفهوم التدبر (اللغويّة والاصطلاحيّة) أضف إلى ذلك الآيات المباركة التي حثّت ودعت بصريح القول، تبين لي أنَّ التدبر هو النظر في عاقبة الأمور، ومعرفة النتائج المراد الوصول إليها من خلال النظر في القرآن من أوله إلى آخره بتمعن ورصد عميق، وبعبارة اخرى هو (نوع من الربط بين المقدمات والنتائج) وهذا هو العمل المرجو اتباعه من مفسّر القرآن، وخاصة المُفسّر الذي اتخذ التفسير الموضوعيّ منهجًا في كتابهِ .

---

(١) الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: محمد عبد السلام شاهين، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦م : ١ / ٤٣٨ .
(٢) التفسير الكبير(مفاتيح الغيب): ٥ / ٣٠٠.
(٣) فتح القدير الجامع بين فنيّ الروايّة والدرايّة من علم التفسير، ط٤، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٧م : ٢ / ١٨٠ ،
(٤) روح المعاني : ٤/ ١٥٠
(٥) التحرير والتنوير، ط١، دار سحنون، تونس : ٣ / ٤٨٣

المطلب الثاني: حكم التدبر (حجيّته)

أثنى القرآن الكريم على أصحاب العقول والألباب، وأعدّ تنمية القدرات العقلية المختلفة من أشرف الأعمال، فهي سمات وخصال أهل العلم والعقل ، وقد ورد التدبر – كما أسلفنا سابقًا – في أربعةِ مواضع من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾[١] ، ففي هذه نص صريح على أنَّ الغرض الأساس من إنزال القرآن هو (التدبر) لا مجرد التلاوة على عظم أجرها. واللام هنا جاءت للتعليل في قوله تعالى: (**لِّيَدَّبَّرُوا**) وهي نص صريح في تأكيد وتحديد تلك الغاية من انزال القرآن لغرض التدبر والتذكر .

وروى ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في تفسيرهِ قول الحسن البصري: ((والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضـاعة حدوده حتى إنَّ احدهم ليقول قراتُ القرآن كله ما يرى له القرآن في خلقٍ ولا عمل))[٢].

ويقول عزَّ وجل في موضع آخر في معرض الحث على التدبر: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[٣]، ((يقول الله تعالى آمرًا عبادهِ بتدبر القرآن وناهيًا لهم عن الأعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**)، فالأمر صريح في الآية، فإذا أمر الله عزَّ وجل بأمر فالأمر للوجوب فالتدبر واجب)) [٤].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [٥]، وهذا النصّ يعـد مـن أدلـة الوجـوب علـى التدبر ؛ فالإيمان بهِ هو أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أمر الله، والكفر بهِ على عكس ذلك ، وهذا كله من باب التدبر .

ومن الأدلة البينة والواضحة على وجوب التدبر هو أن القرآن الكريم ذمَّ كل من أعرض عن تدبر الكتاب وتفهمه في كثير من النصوص، ومنها قوله تعالى في سياق الاستنكار: (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**) والذم والاستنكار لا يكون إلا عن أمر منهي عنهُ [٦]، وعلى هذا الأساس ذهب العديد من العلماء والمفسرين إلى نتيجة مفادها (إنَّ ترك التدبر من هجران القرآن الكريم المنهيّ عنه) [٧].

وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) في سياق عرضه لفضائل القرآن: ((ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عبادهِ من القوة على حملهِ ما جعله ليتدبروه وليعتبروا بهِ وليتذكروا ما فيهِ من طاعته وعباده وأداء حقوقهِ وفرائضه لضعفت ولإندكت بثقلهِ أو لتضعفت له أنى تطيقه وهو يقول

---

(١) ص : ٢٩
(٢) تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٣٤
(٣) النساء : ٨٢
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير : ١ / ٥٣٠
(٥) البقرة: ١٢١
(٦) ظ: أضواء البيان، الشنقيطي : ٦ / ٣٤٥
(٧) ظ: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٣ / ٣١٨ ، ويُنظر أيضًا: بدائع التفسير، ابن القيم : ٢ / ٢٩٢

تعالى وقوله الحق:﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [١]، فأين قوة القلوب من قوة الجبل؟ ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء الله أن يرزقهم فضلاً منه ورحمه))[٢] ، وفي تفسيرهِ لهذهِ الآية في موضع آخر من كتابه قوله: ((حثَّ على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنهُ لا عذر في ترك التدبر، فإنهُ لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظهِ ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي مشفقة من خشية الله)) [٣] .

فهنا دعوة صريحة إلى التبصر بالمعطى القرآني الذي يخشع وتتصدع الجبال له، إنها إشارة خفيّة إلى مساوئ هجرة القرآن وإهمالهِ، حيث تمر نصوصه على المتلقين مرور الكرام في حين إن الجبل الأصمّ يعيش يقظة النصّ وتأثيره [٤].

إنَّ المتأمل للآيات المباركة التي جاء بها ذكر القرآن هو سبقه باسم الإشارة (هذا) والمعروف إن اسم الإشارة (هذا) يشير إلى القريب ، فالقرآن الكريم كان قريبًا وهو في متناول الجميع، لذلك شكى الرسول (صلى الله عليهِ وآله وسلم) من هجرانهِ: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ [٥]، وهجران القرآن ليس ترك تلاوتهِ فحسب وإنما أيضًا هو ترك التدبر وتعطيل التفكر والتعقل فيهِ .

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان منزلة التدبر، فعدوه ضرورة من الضروريات الدينية والعقلية التي لا يتم العمل إلا من خلالها ، من ذلك روى الطبري بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال: ((كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)) [٦] .

بيد أنَّ الكثير من المسلمين اليوم يعتقدون صعوبة فهم القرآن، وهذا الأمر من تلبس الشيطان ومكائده ليصرف العقول ويعمي القلوب عن تفهم معاني القرآن وصرفهم عن الغاية التي لأجلها أُنزل القرآن ، فهو كتاب هدى ورحمة وتربية للنفس وترقي بها . قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [٧]، يقول القرطبي في تفسيرهِ : ((أي القرآن يعني بيَّنَاهُ بلسانك العربي وجعلناهُ سهلًا على من تدبره وتأملهُ وقيل أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه)) [٨] .

---

(١) الحشر: ٢١
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، تح: أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢هـ : ١ / ٤
(٣) المصدر نفسه : ١٨ / ٤٤
(٤) ظ: الرمزية والمثلُ في النص القرآني، من أبحاث السيد كمال الحيدري، بقلم الدكتور طلال الحسن، مؤسسة الهدى، بيروت، ١٤٣٤هـ / ١٠٥ .
(٥) الفرقان: ٣٠
(٦) جامع البيان في تفسير القرآن: ١ / ٣٥
(٧) الدخان : ٥٨
(٨) الجامع لأحكام القرآن : ١١ / ١٦٢

وواقع الأمر أن معظم القرآن واضح ظاهر، يدرك معناه العالم والأميّ وفهمه وتدبره ليس بالأمر الصعب او المستحيل.

المطلب الثالث : وسائل التدبر في القرآن الكريم

أولًا: المثَل :

تُعدُّ الأمثلة أو التمثيل من الطرق العامة لبلوغ الحقيقة [١] قال تعالى: ﴿**وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا**﴾ [٢]، فلا يوجد شيء لم يُضرَب له مثلًا . وما ذلك إلا رعاية منه تعالى لمقدار فهمنا وعلمنا، وهذا ما يُفسّر لنا قول الإمام الصادق (عليه السلام): ((ما كلّم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) العباد بكنه عقله قط ، قال رسول الله: ((إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلم الناس على قدر عقولهم))[٣]، وهذه الرعاية والرفق والعناية تبعًا للحقيقة القرآنية المستفادة من قوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾ [٤].

لذا فإنَّ من أهم وسائل التدبر في القرآن الكريم هو التمثيل والأمثلة الواردة في الكتاب العزيز، ولتأكيد هذا المصدّاق لابد من ذكر أهداف ضرب الأمثال في القرآن الكريم ، وهي:

١- التذكير والتذكر.
٢- الدعوة إلى التفكر .
٣- بيان هوية المتعظ والعامل بالمثل.
٤- الدعوة إلى أصل التأمل في ضرب الأمثال .
٥- التنبيه والترشيد لما هو أصحّ وأفضل [٥].

فهذهِ الأهداف الخمسة تُعدّ مفاتيح لِولوج باب التدبر في الكتاب العزيز .

ثانيًا: المُتدّبر الواعيّ الذي يستطيع أن يقف على جماليّة النصّ (ألفاظًا ودلالات).

إذا ألقيت نظرة على جسمك تجد أن كل عضو وكل جهاز في هذا الجسم له شكل معيّن، فاليد والرجل والأصابع ، والكبد ، والأمعاء ، والقلب ، و... ، لها شكل خاص يختلف

---

(١) ظ: الرمزية والمثلُ في النص القرآني/ ١٠٥ .
/ ٨٨ ــ ٨٩
(٢) الفرقان: ٣٩
(٣) أصول الكافي: ١ / ٢٣
(٤) الرعد: ١٧
(٥) ظ: الرمزية والمثلُ في النص القرآني / ١٠٤ ــ ١٠٨

عن شكل الأعضاء ، والأجهزة الأخرى ، وإن هذه الشكليّة المتنوعة لم تأتِ عبثًا ، وإنما وفق حكمة إلهية معينّة ، ولتلبـي حاجات الناس ومتطلباتهم على أفضل وجه ، وكما في جسد الإنسان ، كذلك الكون كـله .

هذهِ الحقيقة نلمسها في كتاب الله التكويني (الكون)، لو نمعن النظر أكثر فإننا أيضًا نلمسها في كتاب الله التشريعي (القرآن) ، فالشكل الخارجي للآيات لم يأتِ عبثًا ، وإنما وضع لحكمة معينة، وللدلالة على فكرة خاصّة ، فالمتدبر الفطن الماهر هو يستطيع أن يقف على جماليّة النصّ ، وعلى جزئياته.

من هنا كان علينا حين نتدبر في القرآن الكريم أن نكشف الفلسفة الشكلية الخارجيَّة للآيات القرآنية ، والتدبر في هذا يشمل عدّة مجالات منها[١]:

١- الجمل الخبرية والأمرية.
٢- الجمل الفعلية والاسمية .
٣- التقديم والتأخير .
٤- الأفراد والتثنية والجمع .
٥- المعلوم والمجهول .
٦- وسائل الأشكال الأخرى .

ولعدم الإطالة نأخذ مثالًا واحدًا في التقديم والتأخير لتقريب الصورة أكثر، من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾ [٢] بينما يقول جلا وعلا في آخر: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾[٣] فهنا يُطرح السؤال: لماذا قدم في الآية الأولى رزق الآباء على رزق الأولاد؟ في حين نجد في الآية الثانية تقديم رزق الأولاد؟! هل جاءت المسألة عفوية، أو نوعًا من التفنن التعبيري؟ أم أنَّ ورائها شيئًا آخر؟ هنا تبدأ عملية التفكر والتدبـر الحقّ واستجاشة العقل بالفصل بين الآيتين واستـخراج المـعنى المراد ، ومعرفة اللغـز وراء ذلك التقديم والتأخير ، لذلك أريد القول: أنَّ من يستطيع اكتشاف هذا الأمر ومعرفة تلك الأشكال المختلفة في ظواهر النصوص القرآنية هو (المُفسّر البياني للقرآن الكريم) والذي يعد لونًا من ألوان التفسير الموضوعيّ ؛ لذلك جعلنا التدبر والتفكر من المرتكزات والقوى التي أقيم عليها التفسير الموضوعيّ.

ثالثًا: نظرية وحدة المفهوم مع تعدد المصاديق .

تُعدُّ هذهِ النظريّة من أهم وسائل التدبر في القرآن الكريم، إذ إنها أخرجتنا من طور القديم والإعادة والتقليد في التفسير إلى طور أكثر تطورًا مرتبط بواقعنا ويكون مرتبطًا في واقع كل زمان ، فإنَّ صلاحية القرآن في كل زمان ومكان إنما هي رهن (نظرية وحدة المفهوم وتعدد المصداق) [٤] وهي : أنَّ المفاهيم الواردة في القرآن الكريم واحدة، ولكن التجدد والتعدد إنما

---

(١) ظ: التدبر في القرآن، آية الله السيد محمد رضا الشيرازي ، ط٣، دار العلوم، بيروت، ١٤٣١هـ / ٧٦- ٧٧.
(٢) الانعام : ١٥١
(٣) الإسراء : ٣١
(٤) ظ: دروس في خارج علم الفقه، السيد كمال الحيدري- ٢/ ربيع الثاني/ ١٤٣٨ هـ .

يكون في المصاديق ، وفي ذلك يقول السيد الطباطبائي: ((فكان ينبغي لنا ان نتنبه أن المدار في صدق الاسم اشتمال المصداق على الغاية والغرض، لا جمود اللفظ على صورة واحدة، فذلك مما لا مطمع فيه البتة، ولكن العادة والانس منعانا ذلك، وهذا هو الذي دعا المقلدة من أصحاب الحديث من الحشويّة والمجسمة ان يجمدوا على ظواهر الآيات في التفسير وليس في الحقيقة جمودًا على الظواهر بل هو جمود على العادة والانس في تشخيص المصاديق)) [١].

فقولهِ : ((اشتمال المصدَّاق)) بمعنى أن المفهوم ثابت، ولكن المصاديق متجددة ومتغيرة ، ثم يضرب الأمثلة فيقول: "وكان ينبغي لنا ان نتنبه: أن المسميات المادية محكومة بالتغير والتبدل بحسب تبدل الحوائج في طريق التحول والتكامل كما أن السراج أول ما عمله الانسان كان اناء فيه فتيلة وشيء من الدهن تشتعل به الفتيلة للاستضاءة به في الظلمة، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم إلى السراج الكهربائي ولم يبق من اجزاء السراج المعمول أولًا .

وكذا الميزان المعمول أولًا، الميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحرارة مثلا. والسلاح المتخذ سلاحا أول يوم، السلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك. فالمسميات بلغت في التغير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتًا وصفة والاسم مع ذلك باقٍ، وليس إلا لان المراد في التسمية إنما هو من الشيء غايته، لا شكله وصورته، فما دام غرض التوزين أو الاستضاءة أو الدفاع باقيًا كان اسم الميزان والسراج والسلاح وغيرها باقيا على حال [٢].

فالسراج في بادئ الأمر كان عبارة عن فتيلة تشتعل بواسطة الدهن أختص ذلك في عصر من العصور ، أما مع تقدم الزمن أصبح السّراج عبارة عن أسلاك كهربائية تشتغل للاستضاءة من الظلمة . من هذا تبين أن مفهوم السراج باقٍ ولكن التعدد والتجدد إنما هو في المسميات أو المصاديق ، وكذلك لفظ الميزان وغيرها نحو قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [٣] ، الاعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد ما يحتاج إليه الشيء المطلوب في تحققه كإعداد الحطب والوقود للإيقاد وإعداد الايقاد للطبخ، والقوة كل ما يمكن معه عمل من الأعمال، وهى في الحرب كل ما يتمشى به الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة، والرجال المدربين والمعاهد الحربية التي تقوم بمصلحة ذلك كله، والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال: ربطه يربطه ربطا ورابطه يرابطه مرابطة ورباطا فالكل بمعنى غير أن الرباط أبلغ من الربط، والخيل هو الفرس، والارهاب قريب المعنى من التخويف [٤].

فالقوة في ذلك الزمان كانت،(النار ، وأنواع من الأسلحة كالسيف والرمح والسهام ، ووسائل مساعدة للحرب كالدرع والخيل) ، السؤال هنا: لو كان المفهوم والمصداق كلاهما واحد فهل أمكن العمل في هذهِ الآية في زمانٍ آخر؟ اطلاقًا لا؛ لأن تلك القوة لا يمكنها العمل في هذا الزمان ، لذا لا بد ان تكون مصاديق تلك القوة متغيرة ومتجددة لما يتطلبه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ١٠
(٢) المصدر نفسه : ١٠/١
(٣) الأنفال: ٦٠
(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٩/ ١١٤

العصر، وإلا مات النصّ في عصر نزوله ، ولا يمكن العمل به في الوقت الحاضر ، وغيرها من الأمثلة التي طرحها السيد كمال الحيدري لتوثيق هذه النظرية [١].

ويرى الباحث: أنَّ هذهِ النظرية التي أشار إليها بعضٌ من العلماء في تفاسيرهم[٢] ونظرَّوا لها، وأكد عليها السيد كمال الحيدري، وأخرجها من حيز التنظير إلى التطبيق، تُعدُّ من الوسائل المهمة لمفهوم التدبر؛ وذلك لأنها تنذر بأنَّ القرآن الكريم صالح في كل زمان ومكان وأنَّه يساير عجلة الحياة ولا يتوقف العمل بهِ مطلقًا ، وأيضًا تؤكد هذه النظرية على حفظ مفاهيمه منذ نزوله وإلى قيام الساعة، بمعنى أنَّ مفاهيمه ثابتة ولا يمكن لأحد أن يتلاعب بها بأن يحذف منها شيئًا أو يضيف إليها شيئًا آخر، إنما الإضافة والحذف تكون بمصاديق تلك الألفاظ وتلك المفاهيم بما يتوافق مع متطلبات العصر وما يريد ، وإنَّ هذهِ النظرية تتشابه إلى حدٍ ما بنظرية (الجري والتطبيق) التي أشرتُ لها في المبحث السابق، وهو أنَّ القرآن حيٌ لا يموت فهو حاضر في كل زمان ومكان، لتكون هذهِ النظرية وتلك من تجليات التفسير الموضوعيّ.

وخلاصة القول: إنّي تعرضت لمفهوم التدبر في القرآن الكريم وجعلته من الأسس والقواعد الهامة التي انطلق منها التفسير الموضوعيّ لما لمسته من الأثار الإيجابية المترتبة على إعمال التدبر في حياة الفرد والمجتمع، ومنها :

١- إنَّ التدبر يوصل الإنسان إلى الإيمان بوحدانية الله ، والشعور بعظمته سبحانه، ومعرفة الحق الذي خلقت بهِ السماوات والأرض ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [٣].

٢- في التدبر الحث على العلم والمعرفة التي تقود الإنسان في حياتهِ العملية، والتفكر في الخلق الذي يقود إلى العلم والتكنلوجيا والإبداع، من خلال الكشف عن سنن وقوانين الكون والحياة وتسخيرها لتنمية الحياة والمجتمع وإعمار الأرض، وعلى هذا أثنى سبحانه وتعالى على العلماء ورفع مقامهم، فقرنهم تعالى بذكرهِ حينما قال: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [٤] ، وغيرها من الآيات المباركة .

٣- قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [٥] ، هذهِ الآية المباركة تدل على أنَّ التدبر يهدي نحو الأفضل والأقوم في كل ميادين الحياة، ولذلك فقد أثمر التدبر نتائج مذهلة في حياة المسلمين الذين كانوا يتلقونه ليُعملوه في حياتهم فيخالط مشاعرهم وأحاسيسهم، وتتفاعل به خلجات نفوسهم، فكانت الشخصيِّة المسلمة السويِّة من أبرز ثمار التدبر في القرآن الكريم .

---

(١) ظ: دروس في خارج الفقه، بحوث في طهارة الإنسان(٢٩)- ٣ / ربيع الثاني/ ١٤٣٨هـ .
(٢) ظ: الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٠ ، ويُنظر: كتاب الصافي في التفسير، العارف المحقق محمد بن المرتضى الفيض الكاشاني(ت ١٠٩١هـ)، ط١، المطبعة الاسلاميّة ، طهران:١٢ / ١١٤
(٣) آل عمران: ١٩٠
(٤) المجادلة: ١١
(٥) الإسراء: ٩

٤- يُعدّ التدبر أيضًا من أهم الوسائل المساعدة لبناء المجتمع المتحضر وسعادتهِ، فبأعمال التدبر والتفكر في الكتاب تُبنى عقلية قادرة على التفاعل الإيجابي المتواصل مع الكون واكتشاف السنن والقوانين الكونية، وتحويلها بصورة ايجابية إلى تطبيقات وانجازات تخدم المجتمع، أضف إلى ذلك فأنَّهُ بواسطة التدبر المستمر يمكن تجاوز أي عارض يطرأ على الأمة أو أي مشكلة تواجهها ؛ لأنه لا توجد مشكلة أو قضية في الكون إلا وأشار اليها تعالى في كتابهِ الكريم، والذي ينهض بهذهِ المهمة هو (منهج التفسير الموضوعيّ) الذي يحيط بقدر المستطاع بقضايّا الكون المختلفة.

المبحث الرابع: عقليّةُ المفسّرِ

يُعدُّ العقل من المنطلقات أو المرتكزات والأسس في تأصيل (التفسير الموضوعيّ) فعقلية المفسر تحاول أن تلم الجزئيات من أجل الوصولِ إلى الكليات؛ وذلك لإدراكهِ بالبداهة والفطرة جملة من الأوليات وتسليمه بها تسليمًا تامًا من قبيل الإدراك أنَّ الواحد نصف الاثنين، وإنَّ الكل أكبر من الجزء، وإنَّ المظروف أصغر من الظرف، وإنَّ العلم خير من الجهل، وإنَّ الحسن أولى من القبح ... وهكذا .

إذً هي عقليّة قائمة على جمع وتحليل الألفاظ القرآنيّة في حقلٍ واحد من أجل الوصول إلى نتيجة واحدة، فهي عقليّة تجميعيّة قائمة على لملمة الجزئيات والانتقال إلى الكليات، فعقليّة المُفسّر في هذا الاتجاه تضطلع في تأصيل أي منهج من المناهج، ومنها (منهج التفسّير الموضوعيّ) ونظرًا لأهمية المرتكز العقلي ، لا بدّ من ذكر مقاربات تعريفيّة للعقل.

المطلب الأول: في مفهوم العقل

أولًا: العقل في اللغة: جاء الأصل (العقل) في اللغة على معانٍ عدَّة منها:

١- العقل نقيض الجهل [١].

٢- العقل بمعنى (الحبس) وسميَّ بذلك؛ لأنهُ يمنع من الجهل [٢] .

٣- التثبيت في الأمور، وسميَّ العقلُ عقلًا؛ لأنهُ يعقل صاحبه عن التورط في المهالك[٣].

٤- العقل نور روحاني، بهِ تدرك النفوس التمييز بين حسن الأشياء وقبحها [٤] .

ويُحقّقُ المصطفويّ دلالة كلمة العقل ، فيقول: ((إنَّ الأصل الواحد في المادة: هو تشخيص الصلاح والفساد في مجريات الحياة ماديًّا ومعنويًّا، ثُمَّ ضبط النفس وحبسها عليهِ، ومن لوازمهِ : الإمساك، التدبر، وحسن الفهم والإدراك، والإنزجار ومعرفة ما يحتاج إليهِ في الحياة، والتحصن تحت برنامج العدل والحقّ، والتحفظ عن الهوى والتمايلات))[٥] .

ثانيًا: العقلُ في الاستعمالِ القرآني:

ورد لفظ (العقل) في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وبمشتقات مختلفة، وجاء ما يرادفه من الكلمات الأخرى منها: (النظر ، و التفكر ، والتدبر) فالقرآن الكريم كما يؤكد على التشريع

---

(١) كتاب العين مادة (ع ق ل)
(٢) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس: ٤ / ٦٩ (عقل)
(٣) ظ: لسان العرب، ابن منظور : ٩ / ٣٢٦
(٤) ظ: القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، فصل العين باب اللام : ٤ / ١٨ – ١٩ .
(٥) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٨ / ٢٣٨ مادة(عقل)

وأهميتهِ في حياة الإنسان والمجتمع فإنَّهُ يؤكد أيضًا على القضايا الفكرية وإعمال العقل، وكيفية تحصيل الحقائق والمعارف .

للعقل قيمة وتأثير في فهم كلام الله تعالى وتفسيرهُ التفسير الصحيح، ولكن الجنوح إليه والاهتمام بهِ والاعتماد عليهِ يتطلب أخذ الحيطة والحذر والدقة في استعماله؛ فالدارسون نراهم مرة يميلون إلى الثَّمَرِ العقلي فلا يحتاطون ويخملون العقل فوق ما لا يطيق ، وتارة أخرى ينزلقون إلى الأخذ بالاحتياط فيسقطون في هوة التقليد تمام السقوط وهو ما نعبر عنه بـ (التقليد الأعمى) ، ولكن هناك نمط وسط سلك مسار الاعتدال بينهما (العقل والتعبد).

ويمكن تصنيف المواضع التي تحدث القرآن فيها عن العقل في ثلاث فئات:[١].

الأولى: آيات تحدثت عن العقل بلفظ العقل الحقيقي (الصريح) منها مثلًا قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [٢].

الثانية: آيات تحث على استعمال العقل بألفاظ تدل على عمليات التعقل، ومن أمثلة ذلك: الدعوة إلى التفكير، كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ [٣]، وغيرها .

الثالثة: آيات تعبر عن العقل بألفاظ مقاربة له ومنها مثلًا: اللّب، كقوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [٤]. وغيرها .

ثالثًا: العقل في الاصطلاح :

عُرِّفَ العقل في الاصطلاح بأنَّهُ: ((غريزة يُولد العبد بها، ثم يزيد فيهِ معنى بعد معنى بالمعرفة على الأسباب الدالة على المعقول))[٥]، والمفهوم من تعريفه أنه جعل غريزة العقل مقابل غريزة الجنون .

ونجد هذا المعنى في إحدى حكم أمير المؤمنين (عليهِ السلام) عند وصفهِ للعقل بالغريزة في قوله : ((العقل غريزة ترتبها التجارب)) [٦] .

---

(١) ظ: القرآن والنظر العقلي، فاطمة اسماعيل ، ط١، منشورات المعهد العالمي الإسلامي، ١٤١٣هـ / ٩٣

(٢) الروم : ٢٤

(٣) الروم: ٨

(٤) البقرة: ١٧٩

(٥) العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي(ت ٢٤٣هـ) تح: حسين القوّتلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٣٩١هـ / ٢٠٥.

(٦) شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله أبي الحديد : ٢٠ / ٣٤١

وعُرّف العقل بالنور، ((فالعقل: نورٌ في الصدر، بهِ يبصر القلب عند النظر في الحجج، بمنزلة السراج)) [١] .

المطلب الثاني: العلاقة بين العقل والوحي

ثمة منهجية ترى ضرورة المزاوجة بين العقل والوحي، من ذلك يرى الغزالي(ت٥٠٥هـ) أنَّ العقل والوحي متلازمان ولا يمكن الاعتماد على أحدهما مستقلًا للوصول إلى المعرفة ، فقال: ((العقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن يبصر))[٢]، وقال أيضًا: ((اعلم أنَّ العقل لا يهتدي إلا بالشرع والشرع لا يتبين إلا بالعقل)) [٣]. فيرى الغزالي أنَّ كلًّا من العقل والوحي أثرًا يقومُ بهِ لا يحسن غيره ولا يغني عنه فيه غيره.

وهناك بحث فلسفي أشار إليهِ الطباطبائي في شأن طبيعة العلاقة بين العقل والوحي انتهى إلى طرح السؤال الآتي:

ما دام الإنسان يحظى بالعقل، وعقله يدعوه إلى اتباع الحق في الاعتقاد والعمل، فما حاجتهُ حينئذٍ إلى اتباع الأنبياء؟ أو ولا يستطيع العقل أن يكون بديلًا لوجود الأنبياء ومناهجهم؟ ثم يجيب بما نصّهُ : ((العقل الذي يدعو إلى ذلك، ويأمر به هو العقل العملي الحاكم بالحسن والقبح، دون العقل النظري المدرك لحقائق الأشياء ... فكل قوم أو فرد فقد التربية الصالحة عاد عما قليل إلى التوحش والبربرية مع وجود العقل فيهم وحكم الفطرة عليهم، فلا غناء عن تأييد إلهي بنبوة تؤيد العقل)) [٤]، فالعقل هنا أداة لفهم الوحي وليس بديلًا عنه .

وهذا ما ذهبَ إليهِ أيضًا محمد الصادقي (ت ١٤٣٢هـ)، إلى أنه لا بد من تعاضد بين العقل والوحي؛ لأنهُ لا سبيل لتحصيل المعرفة الحقيقية إلا باندماجهما، فيقول: ((... فلا بدّ من دمج العقلية الإنسانية بعقلية الوحي ، تأصيلا للوحي ، فاستئصالًا لكل انحراف عن العقليتين)) [٥]، أي أنه لا بدَّ للعقل من الاستعانة بالوحي إذا أراد الحصول على المعرفة الصحيحة ، كما أنَّ الوحي نفسه بحاجة إلى العقل؛ حتى يستقر في فكر الإنسان ويأخذ موقعه في روحهِ .

---

(١) اصول السرخسي، أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، تح: أبو الوفا الافغاني، ط٣، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ : ١ / ٣٤٦- ٣٤٧

(٢) معارج القدس في مدارج معرفة النفس، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١/ ٥٧

(٣) المصدر نفسه والصفحة

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٢ / ١٤٨

(٥) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، ط٣ دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦م : ٣ / ٣٠٩

المطلب الثالث: مصطلح (العقليّة) بوصفهِ ركيزة مهمة لمنهج التفسير الموضوعيّ

لقد شكَّل مصطلح (العقليّة) ولا سيّما في القرن الأخير مرتكزًا أساسًا ينطلق منهُ المُفسِّر لتحديد مسارهِ، لذا فإنَّ تعدّد المناهج بتعدد العقليات المشتغلة وتنوعها في عملية التفسير ، وهذا ما لمسناه عند بعضٌ من المفسرين الذين جعلوا العقل المرتكز الأساس في منهجهم ، وعلى رأسهِم الطباطبائي في تفسيره الميزان الذي بين فيه أهمية العقل ومكانته، وقد حرص في ممارسته التفسيرية ،على أن يفصل تفسير الآيات عن المباحث الفلسفية والاصطلاحات الفنيِّة، والفرضيات العلمية المسبقة وسعى إلى أن لا يدمج بين الاثنين في إطار بنية واحدة ، بل استعمل المعايير التفسيرية اللازمة حتى إذا ما أحس بلزوم طرح نقطة فلسفية أو اجتماعية أو سياسية ، نراه قد خصص لها فصلًا مستقلًا عن تفسير الآيات ، (فميّز بين البحوث التفسيرية والبحوث الأخرى وفصل بينهما) على أن القيمة التي يؤمن بها الطباطبائي للعقل ،لا تقوم أدلّتها على قواعد فلسفية وبرهانيه فحسب ،بل لها جذورها في صميم المعارف القرآنية نفسها يقول في هذا المضمار: ((وهذا القرآن أعدل شاهد على ذلك ، فيما يدعو إليه المجتمع الإنساني من معارف المبدأ والميعاد ، وكليات المعارف الإلهية ،فهو لا يقبل عنهم إلا عن دليل وحجة و، ولا يذم إلا الجهل والتقليد)) [١].

على الرغم من هذه القيمة التي يهبها الطباطبائيّ للعقل ،نراه لا يبتعد قطّ عن التعبّد المبدئيّ ، والالتزام بأصول الشريعة وفروعها ، ولم يحد عن ذلك أبدا بدعوى الميل العقلي السليم وانسجامه مع الشريعة وهذا المعنى صرّح به في تفسيره الميزان ودلّ عليه بوضوح في قوله: ((مع أن الكتاب والسنة هما الداعيان إلى التوسع في استعمال الطرق الصحيحة لكنهما ينهيان عن إتباع ما يخالفهما مخالفة صريحة قطعية؛ لأن الكتاب والسنة القطعيّة من مصاديق ما دلّ صريح العقل على كونهما من الحقّ والصدق ومن المحال أن يبرهن العقل ثانيًا على بطلان ما برهن على حقيقته أولًا والحاجة إلى تمييز المقدمات العقلية الحقّة من الباطلة ثم التعلّق بالمقدمات الحقّة كالحاجة إلى تمييز الآيات والأخبار المحكمة من المتشابهة ثم التعلق بالمحكمة منهما، وكالحاجة إلى تمييز الأخبار الصادرة حقًّا من الأخبار الموضوعة والمدسوسة وهي أخبار جمة)) [٢]، وإلى جانب العقلية التفسيرية التي تمتع بها الطباطبائي والتي كانت مرتكزًا مهمًا للتفسير الموضوعيّ، سنسلط الضوء أيضًا على عقليتين تفسيريتيّن وهما:

- عقليِّة الشيخ محمد الصادقيّ ، في تفسيرهِ(الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة):

عندما يصل تفسير الفرقان إلى الآية الكريمة: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ**﴾ [٣] هذه الآية الشريفة تدعو إلى إدراك الآيات وتعقلها لكشف مراد الله تعالى منها ، وقد خصت الآية الكريمة "العالمين" فيُطرح السؤال الآتي فما هو نصيب الناس العاديين الذين يفتقرون إلى العلم والمعرفة فالإجابة على هذا السؤال يتحدث المؤلف عن ثلاثة ضروب للعقل هي:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٥ / ٢٥٥ . ومن أراد الاطلاع على آراء متبنيات الطباطبائي في هذا الشأن عليهِ مراجعة مقالات تأسيسية في الفكر الاسلامي .

(٢) المصدر نفسه : ٥ /٢٥٨

(٣) العنكبوت: ٤٣

١.العقل الإيماني
٢. العقل العلميّ
٣ العقل المجرّد الذي يمكن أن يُعَبَر عنه بالعقل الفلسفيّ .

ثم يجيب بما نصّه : ((فالعالمون هناك هم المؤمنون هنا ، كما الذين لا يعلمون في آيات عدة هم الذين كفروا ، فالإيمان بالله يزيل الأغشية عن الأبصار والبصائر فأصحابها يعقلون تلك الأمثال الحكيمة القرآنية ، وكذلك العالمون بالعلوم التجريبية يعقلون ، فإن كانوا مؤمنين فأحرى واكثر ، وإن كانوا كافرين فقد يهتدون بها ان أرادوا الهدى ، والعلم بنفسه طريق الهدى إذا لم تخلطه الردى، والعقل الحرّ أيا كان يعقل هذه الأمثال مهما كان مجردًا عن علم الايمان وسائر العلم ، إذا فالعقلية الإيمانية ، ثم العلمية ، ثم العقلية المجردة ، هي شركاء ثلاثة في أن تعقل هذه الأمثال دون اختصاص بعقلية الإيمان ، وإلّا لم تعد هذه الأمثال تنفع غير المؤمنين ، والذين اتخذوا من دون الله أولياء هم الموجّه لهم في الأصل ذلك المثل الأمثل ، تحريضًا لهم أن يعلموا الحقّ منه ومن أمثاله بالتعقل ، وما المقولة الكافرة ﴿**ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً**﴾ إلّا جاهلة تخالف العقل)) [١].

ومن تطبيقاته في تسخير عقليته هو مثلًا حديثه عن قصّة (جنة آدم، وقصة المعركة المصيرية بين إبليس وآدم "عليه السلام") التي تعدّ منطلقًا حقيقيًّا للموضوعيّة ، فيبدأ كلامه بإيراد أسئلة متعددة تخصُّ تلك القصّة يمكن أن تكون إجابة كل سؤال منها هو مُنطلق لموضوع قائمٌ بذاتهِ ، فيقول ((ماهي جنة آدم؟ ولماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية وهو خليفة أرضية؟ وما هي الشجرة المنهية؟ وكيف النهي؟ وكيف يجوز العصيان من الخليفة المفضّلة على الملائكة وهو نبي؟ وكيف استطاع إبليس أن يزلّهما وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟ ومن هم المأمورون بالهبوط : «اهبطوا»؟ وما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه؟ أم ماذا من أسئلة حول هذه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان وحياته)) [٢].

ثم يجيب بعد ذلك على كل سؤال قِيلَ، بعد استقرائِهِ للآيات المباركة ذات الصلة بهذا السؤال، فمثلًا يُجيب على السؤال الأول: بأنَّ جنة آدم هي نفسها جنة الخلد [٣]، ويستشهد بالآيات المباركة التي تؤيد ما ذهب إليهِ ، وهكذا يبدأ عملية تفسيره إلى نهاية تلك الاسئلة التي قيلت ، لتكون هذه العقلية الفذَّة سببًا رئيسًا لانطلاق المفسّر الموضوعيّ ، فهذهِ العقلية وتلك قد تثير بعض القضايا التي أغفل عنها الكثير وتفتح آفاقًا جديدة من شأنها أن تكون مواضيع مستقلة تتحدث عن موضوع حيوي ومهم .

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنّة : ٣ / ٦٧
(٢) الفرقان في تفسير القرآن: ١ / ٣٠٨- ٣١٠
(٣) المصدر نفسه : ١ / ٣١١

- عقلية محمد جواد مغنية ، في كتابيه: (الكاشف)، وعقليات إسلامية (الإسلام والعقل)

يرى محمد جواد مغنية، أن هناك شيئا آخر يحتاج إليه المفسّر، وهو من أهم ما ذكره المفسّرون في مقدمة تفاسيرهم، قال في مقدمتهِ: ((لم أرَ من أشار إليه وقد اكتشفته بعد أن مضيتُ قليلًا في التفسير، وهو أن معاني القرآن لا يدركها ويعرف عظمتها إلّا من يحسّها من أعماقه، وينسجم معها بقلبه وعقله، ويختلط إيمانه بها بدمه ولحمه، واستشهد بقول الإمام علي (عليه السلام): ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق)) [١]. وأضاف: أن المفسّر الذي لا يأتي بجديد لا يملك عقلًا واعيًا، وإنّما يملك عقلًا قارئًا وبحكم رؤيته هذه وصل إلى نتائج منها، أنّه أيقن وهو يعدّ القرآن، أنّه لا إيمان بلا تقوى، وأنّ الجّنة حـرام إلّا على من جاهد وضحّى في سبيل الحقّ، وأنّ جميع أصول الإسلام وفروعه ترتبط بالحياة ارتباطًا وثيقًا.

وتوصل إلى نتيجة أنّ أجهل الناس بحقيقة الإسلام ومراميه هم المنتمون إليه - وهذا هو واقع الأمر - وذكر أن كلّ مفسّر لا بدّ وأن يمتلك مؤهلات علم التفسير من الاحاطة بعلوم اللغة العربية وعلم الفقه والحديث.. إلى غير ذلك من العلوم التي تؤهل المفسّر ليكون مفسّرًا من الناحية العلمية ولزوم أن يمتلك المفسّر مؤهلات شخصية كالشعور بالمسؤولية والوعي الذي يتناسب مع العصر الذي يعيش فيه، كي يستطيع المفسّر الربط بين ما يحصل من تقدم بالعلوم المختلفة التي لها علاقة بالتفسير، أرى وجود مفسّرين استفادوا من التقدم العلمي في زمانهم، منهم مؤلّف تفسير الميزان السيد محمد حسين الطباطبائي[٢].

ومن رؤى الشيخ محمد جواد مغنية في مقدمة تفسيره، وهي مبادئ سار عليها في منهجه قال : ((إنَّ سور وآيات القرآن الحكيم ترتبط جميعها برابط مشترك وهو الدعوة إلى أن يحيا الناس، حياة طيبة يسودها الأمن والعدل، ويغمرها السلام. إنّ أسلوب الدعوة في القرآن يقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، بمعنى أن القرآن يخاطب القلب والعقل، إذ يعرض في دعوته إلى الله بدائع المخلوقات وعجائب الكائنات، مع تحذير للمشاغبين والمعاندين من سوء العاقبة والمصير ويضرب لهم الأمثال من الأمم السابقة، كما فعل شعيب مع قومه، فإن أصرّوا على العناد تركهم وشأنهم)) [٣].

تطرق محمد جواد مغنية كذلك في مقدمة تفسيره إلى ركائز الدعوة إلى الحياة الطيبة، مستشهدًا بآيات من القرآن الكريم، وعلى ضوء هذه الركائز قام بتفسير القرآن المجيد.

ومن أهم القضايّا التي ركز عليها مغنية ابتعاد لغة المؤلف في تفسيره عن مخاطبة طبقة النخبة من العلماء والمفكرين، واستعماله لغة سهلة شفافة واضحة، وتركيزه على العنصر الإقناعي، لغاية إقناع القارئ بأن تعاليم الدّين الإسلامي تستهدف خير الإنسان وسعادته. قال : ((نظرت إلى القرآن على أنه كتاب دين وهداية، واصلاح وتشريع يهدف إلى أن يحيا الناس جميعا حياة تقوم على أسس سليمة؛ يسودها الأمن والعدل والرفاهية ... وإذا اهتم

---

(١) التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ، ط٤، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم المقدسة ١٤٣٨ هـ : ١/ ٥ ــ ١٧
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٨
(٣) التفسير الكاشف: ١ / ١٠

المفسرون القدامى بالتراكيب الفصيحة والمعاني البليغة أكثر من اهتمامهم بإقناع القارئ بالقيم الدينية ، فلأن العصر الذي عاشوا فيه لم يكن عصر التهاون والاستخفاف بالدين والشريعة وقيمه كما هو الشأن في هذا العصر فكان من الطبيعي أن تكون لغة التفسير أيام زمان غيرها في هذا الزمان)) [١] وهذا ما أُطلق عليه بـ (المنهج التبسيطي) [٢].

وأيضًا من الأمور التي ركزَّ عليها والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهدف التفسير الموضوعيّ (المتغيِّر) - في مرحلته الناضجة - وهو : المزاوجة بين النصّ والواقع، سعيًّا منه لربط الآيات القرآنية بواقع الحياة المعاصر. ومن تطبيقاته في ذلك هو حديثهُ عن الشيطان! متسائلًا من هو الشيطان؟! ففي معرض كلامه ربط بين شياطين الجن والإنس ، فيقول: ((نحن لم نر الشيطان وجها لوجه ، ولكن أخبر الوحي عنه فوجب التصديق ، ولسنا مكلفين بالبحث والسؤال عن هويته وشكله ، وعرضه وطوله .. أجل ، لقد وصفه الله سبحانه في كتابه العزيز بالتصدي لغواية الناس ، وصرفهم عن طاعة الله وعمل الخير وعلى هذا فكل خاطر، أو انسان يحول بينك وبين الطاعة والخير ويغريك بالمعصية والشر ويموه الأباطيل والأضاليل ويلبسها ثوب الهداية والحقيقة فهو شيطان حسيّ أو معنويّ.

وقال: ((ومن الطريف أنَّ شياطين الانس يتعوذون من الشيطان ، وهم بذلك يتعوذون من أنفسهم ، من حيث لا يشعرون ، تماما كمن يقرأ القرآن والقرآن يلعنه ، كما جاء في الحديث الشريف .. " ذلك ان القرآن يلعن الكاذب الخائن ، فإذا قرأه هذا فقد نطق بلعنة الله على نفسه بنفسه ...")) [٣] .

ولأهمية المرتكز العقلي الذي تمتع بهِ (محمد جواد مغنية) هو تأليفه لكتابهِ الشهير (عقليات اسلامية) ، فجاء في مقدمتهِ هو أنَّ أصل الدين العقل ، ودين محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) يقومُ على دعائم ثلاثة: الإيمان بالله تعالى، والنبوة، واليوم الآخر، وتتفرع الإمامة عن النبوة؛ لأنها رياسة عامّة في أمور الدين والدنيا عن النبي، والمهدي المنتظر (عجل الله فرجه) قسمٌ من الإمامة؛ لأنهُ الإمام الذي يأتي في آخر الزمان .

ووضع سلسلة عرض فيها الدليلَ العقليّ على أصول الإسلام، ودعائمه الأولى جنبًا إلى جنب مع الإحساس القلبي في عبارة سهلة واضحة ، مكتفيًا في طرح المعالم الرئيسة من الموضوع ، وجاءت تلك السلسلة في خمسة مواضيع أو كما أسماها (حلقات) وهي :

١- الله والعقل.

٢- النبوة والعقل.

---

(١) التفسير الكاشف : ١ / ١١

(٢) ثمة أسلوب آخر ظهر في مجال تفسير القرآن الكريم في القرن الأخير وهو التبسيط في عرض الأفكار والبعد عن التعقيد فقد كان الماضون يبالغون في توظيف مصطلحات مختلف العلوم والفنون ، حتى أنهم كانوا يتبارون في ذلك ، فكانت التفاسير التي لا تعتمد منهج التفسير بالمأثور أقرب إلى كتب الفلسفة والتصوف منها إلى تفسير القرآن! في حين أن تفاسير القرن الأخير خلعت عن نفسها ثوب التعقيد وتقمّصت التبسيط في الكتابة وبيان معاني القرآن ، فهدف التفسير الحديث لا يتوقف عند فهم الآيات كما كان شأن التفسير قديما ، بل صار يتعداه إلى إفهام المخاطبين وإقناعهم ، يُنظر: المصدر نفسه : ١ / ١٢، ويُعد المراغي ومحمد عبدهُ والسيد قطب ومحمد رشيد رضا من وراد هذا النوع من التفسير .

(٣) التفسير الكاشف: ١ / ٢٠

٣- الآخرة والعقل.
٤- إمامة علي والعقل .
٥- المهدي المنتظر والعقل [١].

لتكون هذه الحلقات الخمس التي انتجتها عقلية المفسر هي التطبيق الحقّ (للتفسير الموضوعيّ) ثُمَّ قام بعد ذلك بجمع تلك الحلقات في كتاب واحد ، قال :((وقد وقفت بحمد الله إلى ما قصدتُ إليهِ من تقوية الروح الدينية، وتثبيتها بالمنهج العقلي في نفوس كثير من الشباب، وحققت السلسلة نجاحًا عظيمًا... وبعد أن نفذت النسخ في جميع الطبعات، رأينا أن نجمع الحلقات الخمس، ونخرجها في كتاب واحد باسم (الاسلام والعقل) تسهيلًا على الراغبين، ومساهمة في نشر الثقافة الدينية)) [٢].

(١) ظ: عقليات اسلامية، محمد جواد مغنية، ط٢، دار الجواد، بيروت، ١٤٠٤هـ : ١ / ٥
(٢) المصدر نفسه : ١ / ٦

الفصل الثاني

الثَّابِتُ في التفسيرِ الموضُوعِيّ

المَبْحَثُ الأَوّل: الإشارات الاستباقيّة أو (المنابع الأولى) عند العلماء في التّفسيرِ الموضُوعيّ

المَبْحَثُ الثانيّ: المعالم الصريحة للتّفسير الموضُوعيّ الثّابت

توطئة:

وقع الخلاف بين العلماء في مسألة نشأة أو ظهور التفسير الموضوعيّ؛ وبذلك انقسمت آراء العلماء على قسمين: الأول: يرى أنَّ التفسير الموضوعيّ حديث، وقد مثَّل هذا الرأي (أمين الخولي) ودليله على حداثة التفسير الموضوعي هو تعرضه للتفسير التسلسلي في غير موضع عندما قال: ((وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضًا مفرقًا لموضوعات مختلفة تضمنتها السورة الواحدة)) [١] وإن التفسير التسلسلي فيه اخلال بوحدة الموضوع في القرآن الكريم، وسار على هذا النهج جملة من أعلامنا المحدثين [٢] .

أما الثاني: وهو الذي يرى بأنَّ التفسير الموضوعي قديم وله مؤلفاته الخاصة به وقد مثَّل هذا الاتجاه (محمد الذهبي) [٣] . ويذهب استاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجي إلى أنَّ التفسير الموضوعي لم يكن معروفًا عند القدامى بمصطلحهِ العلمي المعروف اليوم، وعند الاطلاع على مؤلفاتهم نرى بأنها لم تكن خالية منه، ثمَّ يذكر أن الذي ساعد على ظهور هذا المنهج مجموعة من الارهاصات القديمة[٤]، وقد تكون تلك الارهاصات خفيّة، لا تُبان إلا عند البحث والتدقيق، أو قد تكون جليّة، وذلك عند النظر إلى كتاب معيّن، نحكم عليه بأنه نحى المنحى الموضوعيّ مثل كتاب أحكام القرآن للجصاص ، وغيرها . وهذا الرأي هو المختار .

وأنا بصدد أن أُبيّن تلك الارهاصات بنوع من التفصيل والوضوح، ومن خلال ذلك رأيتُ أنَّ فكرة التفسير الموضوعيّ كانت راكزة عند القدماء، ودونك علماء التفسير وعلوم القرآن، منهم:(الطبري، والطوسي، والزمخشري، والرازي، والزركشي، والسيوطي، وغيرهم) وعلماء معاني القرآن منهم: (الفرّاء، والأخفش، وأبو عبيدة، وغيرهم)، فقد كانت رؤية التفسير الموضوعيّ حاضرة لديهم، ولكنهم لم يصرحوا بها ولكن في ضوء الوقوف على بياناتهم وعلى مراجعاتهم وعلى مكاشفاتهم في النصّ التفسيريّ نجد أنَّ الرؤية كانت حاضرة لديهم ، فكانوا عندما يجدون لفظًا قرآنيًّا يحاولون أن يستجمعوا له المرادفات من القرآن كله، والغاية الأساس من ذلك هو الوصول إلى المعاني المرادة التي تخدم وتبين ذلك اللفظ، هذا من جانب، ومن جانب آخر ظهور المؤلفات الصريحة التي اتجهت نحو التخصص والغوص في موضوع واحد لا غير، إذا فإنَّ أساسيات أو جذور هذا النوع من التفسير عميقة واسسه مترسخة كما بينا سالفًا، وهذا تصحيح لما اعتقده الكثيرون بأنه من المناهج المستحدثة والطارئة على ميدان التفسير .

---

(١) مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب/ ٣٠٤ – ٣٠٥ .
(٢) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعي، الاستاذ الدكتور حكمت عبيد الخفاجي، ط٣، دار الصادق، بابل / ٣٠
(٣) ظ: التفسير والمفسرون: ١ / ١٤٩
(٤) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعي/ ٣١

المبحث الأول : الإشارات الاستباقيّة أو (المنابع الأولى) عند العلماء في التفسير الموضوعيّ

المطلب الأول: الإشارات الاستباقيّة عند المفسرين

أولًا: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في كتابهِ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

تميّز شيخ المفسّرين ابن جرير الطبريّ بأنّه جمع في تفسيره بين المنحى الأثريّ الذي يقوم على جمع الروايات، وبين المنحى النقديّ الذي يقوم على المناقشة، والموازنة والترجيح.

ويرى الطبري أنَّ الآيات تنقسم على ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: الآيات التي هي فوق مستوى فهم البشر.

المجموعة الثانية: الآيات الميسّرة الفهم للنبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

المجموعة الثالثة: الآيات الميسّرة الفهم للعرب.

ويقول: ((المفسر الذي يعتمد أحاديث الرّسول الكريم ويستشهد بقواعد الأدب العربي، مثل الشعر العربي وما اشتهر من المحاورات، يعتبر تفسيره أصح التفاسير)) [١] ، ولكن إذا أراد المفسر الحكم على ظاهرة ما ، أو على موضوع محدد من مواضيع الحياة المختلفة، من خلال التفسير الذي يعمل عليهِ، استعان بالآيات القرآنية الأخرى ذات الصلة المباشرة أو غير مباشرة بذلك الموضوع؛ يطلب المدد لذلك.

وممَّا يُلفتُ النظر في تفسير الطبري، هو مراعاته للسياق ، والحفاظ على تواصل الآية وما يسبقها من الآيات، وهذا ضرب من تفسير القرآن بالقرآن، وهو مقياس كاشف عن معنى بعيدًا عن تضارب المرويات واختلافها في تحديد معاني الكثير من آيات القرآن الكريم، وهذهِ التفاته جدّ مبكرة في تاريخ التفسير المدوّن والنقد الأدبي .

ومن هنا يتّضح أن الطبري لم يقف في تفسيره عند حدود التفسير بالمأثور، وإن كان إمامًا فيه، بل تجاوزه إلى الاجتهاد بالرأي على نحو يدلّ على استقلال فكره وعمق رأيه فكان تفسيره تفسيرًا أثريًّا وعقليًّا، يعتمد الرأي أصلًا جوهريًا في منهجه، ويجعل من المعنى الظاهر ومن المأثور منطلقًا للغوص في دقائق المعنى القرآنيّ [٢].

وعلى ذلك يكون الطبريّ قد أصّل علم التفسير تأصيلًا موضوعيًّا راسخًا يعتمد الأثر واللغة والنظر ((فمنهجه يجمع بين الخطّين الأساسيّين في التفسير قبله: خطّ التفسير بالمأثور القائم على

---

(١) جامع البيان عن : ١ / ٥٦ – ٥٧

(٢) ظ: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، فتحي الدريني، ط١ ، دار قتيبة ، بيروت ١٨٨٩ : ١ / ٢١٠

النقل والرواية، وخطّ التفسير البيانيّ القائم على اللغة والبيان، فهو يوظّف الأثر واللغة والنظر، وهو خير من يمثّل منهج التفسير الأثريّ النظريّ)) [١].

ومن خلال تتبعي للمنهجية التي سار عليها ابن جرير الطبري في تفسيرهِ ، تبين بشكل جليّ أنّهُ قد بنى تفسيره على اسس ثابتة مهمة، ولكنني سأكتفي بذكر **الأساس الأول** فقط **وهو: تفسير القرآن بالقرآن** فهو مناط بحثنا ومبتغانا الذي نروم إليه والذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بـ(التفسير الموضُوعيّ الثّابت)

هذا هو من أهم الأسس التي اعتمدها في تفسيرهِ . ونلاحظ أنّ الطبريّ لم يتحدّث في مقدّمة تفسيره عن أهمّيّة تفسير القرآن بالقرآن؛ ذلك لأنّه يراه أمراً مسلّماً لا يحتاج إلى إثبات، ويدلّ على ذلك كثرة إيراده للنصوص القرآنيّة في سياق تفسيره ليبيّن علاقات العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والإجمال والتفصيل، وغير ذلك ممّا يستدعيه التفسير ليقوم على وحدة موضوعيّة متماسكة [٢] .

وممّا يدلّ على أهميّة تفسير القرآن بالقرآن عنده، ما بدأ به كتابه من الدعاء إلى الله سبحانه أن يوفّقه ((لإصابة صواب القول في مُحكمه ومُتشابهه، وحلاله وحرامه، وعامّه .وخاصّه، ومجمله ومفسَّره، وناسخه ومنسوخه)) [٣] .

وهو منهج ترشد إليه آيات القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ [٤] ، ومعنى قوله: ((متشابهاً أن آياته يشبه بعضها بعضًا، ويصدّق بعضها بعضًا، فليس بينها تناقض ولا اختلاف ولا تدافع)) [٥]

كما أنّ تصريح القرآن بأنّ آياته منها المحكم والمتشابه، وأنّ الآيات المحكمة هي أمّ الكتاب، أي أصله وعماده التي يُرجَع إليها في تفسير كلّ ما يتشابه ويُشكل معناه من آياته لأوضح دليل على حجّيّة تفسير القرآن بالقرآن ومكانته [٦].

وإنَّ امتداد هذا المنهج وتأصيله ابتدأ منذ عصر النزول فكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو المفسّر الأول الذي فسّر الآيات المباركة بآيات اخرى من القرآن الكريم ، وقد أشرنا

---

(١) تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط١، دار القلم، بيروت ٢٠٠٢م / ٣٥٧- ٣٥٨ ، بتصرفٍ

(٢) ظ: دراسة الطبريّ للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان، محمد المالكي، نشر وزارة الأوقاف في المملكة المغربية، ١٩٩٦م / ٩٥

(٣) جامع البيان: ١ / ١٥

(٤) الزمر: ٢٣

(٥) جامع البيان : ٢٣ / ٢٥٠

(٦) ظ: تفسير المنار ، محمد رشيد رضّا (ت ١٣٥٤هـ)، ط١، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٣م : ٣ / ١٦٥

إليه سالفًا عند تفسيره (الظلم) - في سورة الانعام - بـ (الشرك) - في سورة لقمان - ، وغيرها مما نُقِل عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

تفسير القرآن بالقرآن أصل عظيم اعتمده الطبريّ في تفسير القرآن تفسيرًا دقيقًا أمينًا بضبط مسالكه، وينأى بالمفسِّر عن الشطط .ومن أهمّ المجالات التي كان ابن جرير يعتمد فيها على تفسير القرآن بالقرآن ما يلي:

١- بيان معنى الكلمة من خلال تتبّع الاستعمال القرآنيّ لها

كان ابن جرير الطبريّ دائمًا ما يبين معنى كلمة معينة من خلال عرضهِ للأقوال التي قيلت فيها ، وبعدها يرجح أحد الأقوال ، لا لميل مذهبي ولا لرأي شخصيّ ، ولا شيء آخر، وإنما اعتمد في ترجيحه بعد عودتهِ إلى القرآن الكريم واستحكامه فيه، مثال على ذلك :

- قوله تعالى:﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ**﴾ [١]، ينقل الطبري قول كثير من المفسّرين أن السجّيل هو الطين، وينقل عن بعضهم أنّ السجّيل القول الأول لأنّ الله وصفها بأنّها هي السماء الدنيا، وعن آخرين أنه الصلب الشديد، ويرجّح القول الأول [٢]؛ لأن الله وصفها بأنها من طين في موضعٍ آخر من كتابهِ فقال : ﴿**لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ**﴾[٣].

- وفي تفسير قوله تعالى : ﴿**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ [٤] ، نقل عن بعض المفسّرين أنّ المراد بالوصيد التراب أو الصعيد، إلا أنّه رجّح [٥] أن المراد بالوصيد هو الباب أو فناء الباب ؛ وذلك أن الباب يوصد، وإيصاده: إطباقه وإغلاقه، وذلك مما دلَّ عليهِ بوضوح قوله تعالى: ﴿ **إنها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٍ**﴾ [٦].

فهو بهذا المجال ينظر إلى اللفظ أي الصورة الظاهرية للكلمة ، فيتتبع ذلك اللفظ ويستقرأ مواضع ورده في الكتاب كُله ، ثمَّ بعد ذلك يتوصل إلى معنى يريده مع موافقته للقرآن ، وهذهِ الطريقة سار عليها جملة من المحدثين أمثال (بنت الشاطئ) في تفسيرها البياني للقرآن الكريم .

---

(١) هود : ٨٢
(٢) ظ: جامع البيان : ١٢ / ١٢٣- ١٢٤
(٣) الذاريات : ٣٣
(٤) الكهف : ١٨
(٥) ظ: جامع البيان: ١٥ / ٢٦٨ ، ويُنظر: الكشّاف : ٢ / ٦٨١
(٦) الهمزة: ٩

٢- بيان معنى الكلمة من خلال آيات كريمة أخرى يتّفق معناها مع معنى الآيـة التـي وردت فيها الكلمة التي يُراد تفسيرها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ** ﴾[١] ، ففي تفسيرها يعرض الطبري أقوال عدّة ، منها:

أ- أنَّ الاستثناء منقطع وأن اللمم يقصد بها الفواحش التي ألمّوا بهـا فـي الجاهليّـة قبـل الإسلام.
ب- أن الاستثناء منقطع والمراد باللمم صغائر الذنوب .
ت- أن الاستثناء صحيح، ومعنى الكلام من يجتنب كبائر الإثم إلا أن يلمّ بها ثم يتوب .

ورجّحَ [٢] الطبري القول الثاني، وهو أن اللمم ما دون الفواحش الموجبة للحدود في الـدنيا والعذاب في الآخرة، فإنّ ذلك معفوّ لهم عنه، وذلك عنده نظير قول الله جل ثناؤه : ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ [٣].

وهكذا يعقد في تفسيره لمعنى كلمة معينة شبكة موضوعيّة يحاول فيها جمع الأقوال التي تؤدي إلى معانٍ مختلفة، ثمَّ يعرضها على القرآن الكريم ليتوصل بها إلى المعنى المراد ، فما وافقت تلك المعاني الآيات الواردة في الكتاب العزيز تؤخذ ، وما لم توافق تُرفض وتُضرب عرض الخائط .

٣- توضيح ما جاء مجملًا في آية بما جاء مفصّلًا في غيرها:

إنَّ آيات القرآن الكريم تفسّر بعضها البعض ، ويدلّ بعضها على بعض، وما أُجمِل في مكان فد فُسّر في مكان آخر ، مثال على ذلك قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ** ﴾ [٤] ، ذكر الطبري الأقوال المنقولة عن السلف في تفسير الآية، ومنها قول من قال :الأجل الأوّل هو النوم الذي تُقبض فيه الأرواح ثم تُردّ عند اليقظة، والأجل المسمّى عنده هو الموت ، ورجّح [٥] الطبري أنَّ الأجل الأوّل هو أجل هذه الحيـاة الدنيا، وأنّ الأجل المسمّى عنده أجل البعث، وهو يعتمد في ذلك على قوله سبحانه وتعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [٦] .

---

(١) النجم: ٣٢
(٢) ظ: جامع البيان: ٢٧ / ٩٠ . واللمم على القول الثالث مأخوذة من ألمّ بالشيء إذا قاربه ولم يخالطه، وعلى القول الثاني: اللمم ما قلّ وصغر . يُنظر أيضًا: الكشّاف : ٤ / ٤١٥
(٣) النساء : ٣١
(٤) الأنعام : ٢
(٥) ظ: جامع البيان : ٧ /١٩٧ ، ويقوّى ابن عاشور ذلك بأنه لم يقل في الأجل الأول "عنده" لأن الناس يعرفون مدته بموت صاحبه، أما الأجل الثاني، وهو ما بين الموت وبين البعث فلا يعلمونه، لا في الدنيا ولا يوم القيامة، لأنّهم عندما يقومون من قبورهم يقولون إن لبثتم إلا ساعة ، يُنظر: التحرير والتنوير: ٧ / ١٣١
(٦) البقرة: ٢٨

٤- تأكيد سعة معنى النصّ القرآنيّ وشموله بما جاء صريحاً في آية أخرى:

من سمات البيان القرآنيّ القصد في اللفظ مع الوفاء بحقّ المعنى [١] ، فالألفاظ القليلة تحمل معاني عظيمة وواسعة، ولذا كان في فهم معاني القرآن مجالًا رحبًا ومتّسعًا بالغًا، لأنّ العلوم كلّها داخلة في فهم أفعال الله سبحانه وصفاته، والقرآن يشرح صفاتِه وأفعالَه، ففهم كلام الله لانهاية له، كما لا نهاية لعلم من أنزله [٢]، وممّا يحجب فهم القرآن عن عقول بعض الناس غياب هذه الحقيقة عن عقولهم، ولذا قال العلماء: "من أحاط بظاهر التفسير، وهو معنى الألفاظ في اللغة، لم يكف ذلك في فهم حقائق المعاني" [٣].

وتفسير القرآن بالقرآن ممّا يكشف عن اتّساع معنى الآيات القرآنيّة، عند النظر إليها في ضوء الآيات التي في مجال معناها، ممّا يترتّب عليه ترجيح الأقوال التي تنسجم مع اتّساع المعنى وشموله، ومن الأمثلة على ذلك ما نجده في تفسيرهِ لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [٤].

فالطبريّ بيّن المعنى الواسع الذي دلّت عليه كلمة يدعون في الآية الكريمة " فالدعاء يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولًا وكلامًا، وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمالَ التي كان عليهم فرضُها، وغيرَها من النوافل " [٥] ، وهو ينتزع هذا المعنى الواسعَ للعبادة من الآية الكريمة: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [٦]

فالله سبحانه في هذه الآية سمّى العبادة دعاءً، وجعل من يستنكف عن الدعاء كأنّما استكبر عن العبادة، ولذا اختار في تفسير الآية من سورة الأنعام ما ينسجم مع اتّساع المعنى الذي دلّت عليه الآية من سورة غافر فقال "ولا قول أولى بذلك بالصحّة من وصف القوم بما وصفهم الله به من أنهم كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ، فيعمّون بالصفة التي وصفهم بها ربّهم، ولا يخصّون منها بشيء دون شيء" [٧].

وبذلك جعل الطبريّ معنى الآية شاملًا للأقوال المنقولة عن السلف في تفسيرها ، فمنهم من قال: إنّ المعنى هو صلاة الصبح وصلاة العصر، ومنهم من قال: الصلاة بشكل عام، ومنهم من قال: الذكر، ومنهم من قال قراءة القرآن.

---

(١) ظ: النبأ العظيم، محمد عبد الله درّاز ، ط١، دار القلم ، بيروت ١٩٨٤م / ١٠٩

(٢) ظ: البرهان في علوم القرآن، الزركشي : ٢ / ٢٩١

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٤) الأنعام: ٥٢

(٥) جامع البيان: ٧/ ٢٦٩ .

(٦) غافر: ٦٠

(٧) جامع البيان : ٧ / ٢٦٩

ثانيًا: الشيخ أبي جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ) في كتابه (التبيان في تفسير القرآن)

لا ريب أنَّ الشيخ الطوسي اعتمد في منهجيتهِ (تفسير القرآن بالقرآن) أيضًا، ولكنه تميّز بتفسير الآية بأكثر من آية، كأنما يستقرأ المعنى الواحد من مواضيعه المتعددة في القرآن الكريم ، فإذا ورد وجهه من بعض المفسرين قد خالف هذا الاستقراء أستبعده ورده ، ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾[١]يقول عند تفسيره لمعنى (فرقنا بكم البحر): ((جعلناكم بين فرقيه تمرون في طريق يبس)) [٢] ، بعد ذلك يستقرأ الآيات التي تؤيد ما ذهب إليهِ ، كقولهِ تعالى : ﴿**فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا**﴾ [٣] ، وقولهِ جلّا وعلا: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ [٤] ، إنَّ ما ذهب إليهِ الطوسي هو التفريق ههنا بمعنى الطريق اليابس ، والآيتين دليل على ذلك ، وهذا خلاف ما ذهب إليه البعض بأنَّ معنى (فرقنا) بينكم وبين والماء ، أي : فصلنا بينكم وبينهم ، جعلنا حاجزًا حيثُ مررتم فيه. وهذا خلاف الظاهر وخلاف ما بينته الآيات الأخر التي وردت مفسرة لذلك ، ومبيّنه لما ليس فيهِ اختلاف [٥].

وإلى جانب الشاهد القرآني وما فيهِ من حجة وبرهان في تأييد المعنى بعد استقرائهِ من مواضعهِ المختلفة فإنَّ الطوسيّ يستعين بآليّة أخرى تزيد من تلك الحجية وهي (دلالة السيّاق)، فعند تفسيره لقولهِ تعالى في صدر سورة البقرة ﴿**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**﴾ [٦]، فيذكر أن من حمل ذلك وأشار بهِ إلى التوراة والإنجيل فقد أخطأ و أبطل ؛ لأنه وصفهُ بأنه (لا ريب فيه)، وأنهُ (هدى للمتقين) فهنا بين أن الكتاب هو القرآن بدلالة السياق ، بعد ذلك وصف ما في أيديهم – يريد اليهود والنصارى – بأنهُ مغير ومحرف، ويزيدُ ذلك تأكيدًا قوله تعالى : ﴿**مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [٧] وعلى هذا فإن المراد بالكتاب هنا القرآن [٨] دون التوراة والإنجيل . وفي هذا الوادي رد الآيات المتشابهات إلى الأخر المحكمات الذي عقد له الطوسي بحثًا خاصة عند تفسيره لآية المتشابه في القرآن ، وهذا ما نراه في تفسير الآية السابعة من آل عمران ، وبيّن فيهِ أن منهجه في تفسير المتشابهات هو أن يردها إلى أخواتها المحكمات ، والأمثلة على ذلك كثيرة [٩].

---

(١) البقرة: ٥٠
(٢) التبيان في تفسير القرآن ، الشيخ الطوسي: ١ / ٢٢٦
(٣) طه : ٧٧
(٤) الشعراء: ٦٣
(٥) ظ: التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٢٢٦ – ٢٢٧
(٦) البقرة: ٢
(٧) النساء : ٤٦
(٨) ظ: التبيان: ١ / ٥٢
(٩) التبيان : ٢ / ٣٩٦- ٣٩٧

وهكذا من خلال اتباع هذه المنهجية الفذّة أضف إلى ذلك دلالة السياق القيمة في الكشف عن المعنى يعقدُ وَحْدَة موضوعيّة كاملة يستشهد بهذه وتلك من أجل الوصول إلى الغاية المرادة ومعرفتها وافرادها عن غيرها وتميّزها .

ومن اشاراته إلى وجود الجانب الموضوعيّ في القرآن الكريم هو ما ذكره في مقدمة تفسيرهِ عند حديثه عن معاني القرآن وتقسيماته لها ، فقد جعل لكل قسمًا عملًا خاصًا بهِ ، وجعل لكل واحده منهما آياته المباركة ، فهو بتقسيماته هذه بيّنَ لنا متى نستعمل العقل والرأي في التفسير ، مع ما أورده من روايات النبي و أهل بيتهِ الأطهار (عليهم السلام) والتي تحذر من ذلك ! [١]، فيقول: ((إنَّ معاني القرآن على أربعة أقسام)) [٢] :

أحدهما : ما اختص الله تعالى بالعلم بهِ ، فلا يجوز لأحد تكلف القول فيهِ، ولا تعاطي معرفتهِ ، ثمَّ يذكر الآيات الخاصّة بهذا القسم ومنها قوله تعالى : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [٣] ، ومثله قوله : ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[٤] ، فهذهِ الآيات ومثلها ما لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل .

ثانيها : ما كان ظاهره مطابقًا لمعناه ، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها ، عرف معناها ، ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [٥] . ومثله قوله تعالى : ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ [٦] ، وغيرها من الآيات التي يمكن أن تدخل تحت هذا القسم .

ثالثها: ما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلًا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[٧]، وأيضًا قوله تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾ [٨]، ومثلها كثير في هذا القسم.

رابعها: ما كان اللفظ مشتركًا بين معنين فما زاد عنهما ، ويمكن أن يكون كل واحد منهما مرادًا . فإنه لا ينبغي أن يقدم أحد به ، إنَّ مراد الله فيه بعض ما يحتمل – إلا بقول نبيّ أو إمام معصوم –

---

(١) ظ: التبيان : ١ / ٤
(٢) المصدر نفسه : ١ / ٥ – ٦
(٣) الأعراف : ١٨٧
(٤) لقمان : ٣٤
(٥) الاخلاص : ١
(٦) الاسراء : ٣٣
(٧) البقرة: ٤٣
(٨) آل عمران : ٩٧

بل ينبغيّ أن يقول : إنَّ الظاهر يحتمل لأمور ، وكل واحد يجوزُ ان يكون مرادًا على التفصيل. والله أعلم بما أراد .

ومتى كان اللفظ مشتركًا بين شيئين ، أو ما زاد عليهما ، ودلَّ الدليل على إنّه لا يجوز أن يريد إلا وجهًا واحدًا ، جاز أن يُقال: إنّ هو المراد . وللمشترك في القرآن الكريم الكثير من الآيات المباركة . منها لفظة القرء والعين وغيرها . وعمله هذا هو ضربٌ من التفسير الموضوعيّ .

تناول الشيخ الطوسيّ في كتابه التبيان مختلف الدراسات ، فلو أفردت هذه الدراسات، يمكن أن تكون لكل واحدة منها دراسة موضوعيّة خاصّة بها ، ومن تلك الدراسات مثلًا: (اللغوية ، النحويّة ، البلاغيّة) .

أما اللغويّة ، فقد اعتنى الشيخ الطوسي بالمفردات القرآنية، وتلك خطوة ينبغي لمفسر أن يخطوها ابتداء؛ لأنَّ هذهِ المفردات تمثل اللبنات التي تبنى منها الآية ، وبيانها أولًا يعني التمهيد لتفسير الآية، فهو يعمق الدراسة اللغوية للمفردات القرآنية، ويتناولها من جوانب عدّة ، لها مس مباشر أو غير مباشر في المعنى، كالرجوع في الاصل عند النظر في الاشتقاق ، وتصريف اللفظة على وجوهها المختلفة ، وبيان الصيغ الاخرى التي ترد في مادتها اللغوية، وغير ذلك مما يعد من صميم البحث اللغوي .

ومما ساعده في استعمال هذا الجانب استعانته بأقوال المشاهير اللغويين كـ (الخليل ، والفراء [١]، وابي عبيدة ، والمبرد، والزجاج، وابن دريد ، والأزهري ، والأخفش، وغيرهم) [٢] .

إلى جانب ذلك استعمال ما يتمتع بهِ الطوسي من قدرات عقليّة ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿**إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [٣] ، يشير إلى النظائر والنقائض ، فيقول: ((العجلة والسرعة والخفة نظائر، ونقيض العجلة التأني، ونقيض السرعة الإبطاء، وبعد نقيض قبل تقول: كان هذا بعد هذا ، وتقول: بعد بعدا، أو وأبعده الله أبعادًا ، وتباعد تباعدًا ، وباعده مباعدة واستبعده استبعادًا ، وبعده تبعيدًا، وتبعد تبعدًا ...)) [٤].

ونرى الطوسي يتوسع ويسهب في شرح بعض المفردات القرآنيّة ويأتي بالشواهد القرآنية العديدة لتوضيح المعنى المراد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [٥]، يعني في العدل من غير حاجّة أي خطٍ ولا عقد؛ لأن الله تعالى عالم به ، وإنما يحاسب العبد مظاهرةً في

---

(١) ظ: التبيان : ٤/ ٣٤٣ .
(٢) المصدر نفسه : ٣ / ١٨٥ . وأيضًا : ٦ / ٢٧ ، و : ١٠ / ٣١٢
(٣) البقرة : ٥١
(٤) التبيان : ١ / ٢٣٦
(٥) البقرة: ٢٠٢

العدل، واحاطةً على ما يوجبه الفعل من خيرٍ أو شر، والسرعة هو العمل القصير المدة... ونقول من الحساب: حسب الحساب يحسبه حسّبًا... واحسبني من العطاء إحسابًا ، أي كفاني، ﴿**جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا**﴾[١]، أي كافيًا .
والحسبان: سهام فصار منه: ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ [٢].
وقوله تعالى:﴿ **وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [٣]، أي بغيِّر تضيِّقٍ. وقوله جلّا وعلا: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ [٤]، أي قدّر لها مواقيت معلومةً لا يعدونها [٥].

وهكذا فأنه يأتي بكل لفظ مشابهٍ أو قريب من الحساب ، فيحيطه بما يستحقه من البيان والتوضيح، فهو بعملهِ هذا قد منح قارئ التبيان فرصة أوسع للاستفادة من المفردة القرآنية من خلال ربطها بغيرها، فتتكامل الصورة عن الكلمة ومشتقاتها، ما يقرب منها في الذهن مع شد القارئ لاستحضار العديد من الآيات القرآنية، والتي من شأنها أن تخلق في ذهنه نوعًا من المران، يستطيع من خلالها أن يربط بين المتشابه في الألفاظ القرآنيّة ، ويخلق منها وحدة متكاملة ، لإشباع الموضوع وإغنائهِ، وهو اسلوب علمي عالٍ.

وهذا الاسهابُ المقصود والربط الهادف بين آيات القرآن الكريم نجده في أكثر من مكان بين صفحات التبيان، من ذلك مثلًا عند تفسيره لقوله تعالى :﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ... ﴾ [٦]، فقد وضح معنى كلمة (أفرغ) بنوع من التفصيل، فقال: ((وقوله: " أَفْرِغْ " فالإفراغ: صبّ السيال على جهة اخلاء المكان منه، وأصله الخلو، وإنما قيل: (أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) تشبيهًا بتفريغ الاناء من جهة أنه نهاية ما توجبه الحكمة، كما أنه نهاية ما في الواحد من الأنية. وقوله تعالى: ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ**﴾ [٧]، معناه سنعمد؛ لأنه عمل مجرد من غير شاغلٍ. ومنه قوله تعالى:﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا**﴾ [٨]، أي خاليًا من الصبر، والفرغ مفرغ الدلوِ ، وهو خرفة الذي يأخذ الماء، لأنه يفرغ منه الماء "وافرغ علينا صبرًا" أي: صبّ...)) [٩]

وقد يعمد المفسر أحيانًا إلى تسليط الأضواء على جوانب المفردة القرآنيّة ويشبعها بحثًا بعد أن يجمع الأشتات، فيكوّن منها صورًا مختلفة قد تتباين أحيانًا لتؤدي إلى أكثر من معنى من خلال استعمالات متعددة تقتضيها طبيعة السياق والصيّاغة القرآنيّة، نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ**

---

(١) النبأ : ٣٦
(٢) الكهف: ٤٠
(٣) النور: ٣٨
(٤) الرحمن: ٥
(٥) ظ: التبيان: ٢ / ١٧٤
(٦) البقرة: ٢٥٠
(٧) الرحمن : ٣١
(٨) القصص: ١٠
(٩) التبيان: ٢ / ٢٩٨

الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[١]، إذ نجد الطوسي يفترض إشكالًا على النصّ بغية استجلاء الحقيقة واظهارها ، فإن قيل: كيف يجمع بين قولهِ تعالى: ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾**[٢]، وقوله تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ)؟ ثمَّ يُجيب الطوسي على هذا الإشكال الذي افترضه بقوله: ((قلنا فيه قولان: **أحدهما:** إنَّه نفى أن يسألهم سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يسألهم سؤال توبيخ وتبكيتٍ. **الثاني:** تتقطع المسألة عند حصولهم على العقوبة، كما قال: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ**﴾ [٣]، وقال في موضع آخر: ﴿**وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾**[٤] والوجه ما قلناه: أنه يسألهم سؤال توبيخ قبل دخولهم في النار، فإذا دخلوها انقطع سؤالهم)) [٥].

ثم يأتي الطوسي بالعديد من الآيات القرآنيّة الكريمة التي تعرضت لهذا الموضوع، وهو موضوع (السؤال) فيصنفها تصنيفًا رائعًا، ويضع كلًا منها في موضعهِ الصحيح الذي يتجلى من خلالهِ روعة النصّ القرآني وأسلوب التعبير الفنّي الذي جاءت بهِ الآيات البينات، فيعطي الكلمة القرآنيّة حقّها من التوضيح، كما ويحلُّ أي تناقض يتوهمه القارئ لهذه الآيات المبـاركة [٦].

ومن معالم التفسير اللغوي الذي اتبعه هو بيان المعاني الاصطلاحية للألفاظ الشرعيّة التي وردت في القرآن ، واتخذت مفهومًا جديدًا في ظل الإسلام مثل: (الصلاة ، الصوم الزكاة ، الربا ، الحج ، العمرة ، السجود ، الفسوق) ونحوها من الألفاظ .

وله في ذلك اسلوبان: أن يبدأ ببيان المفهوم الاصطلاحي الشرعي أولًا، ثم يليهِ بالمفهوم اللغوي [٧]، أو يتبع العكس [٨] .

أما الشواهد التي اعتمدها في هذا الباب هي :
- القرآن الكريم .
- الحديث النبوي الشريف.
- كلام العرب من شعر ونثر .

والدراسّة الاخرى التي عنى بها الطوسيّ هي (المباحث النحوية) ، ومما يميز تفسيره عن تفاسير الامامية الاخرى أنه جمع فيه أنواعًا عديدة من الدراسات النحويّة التي نضجت في عصرهِ . وكانت دراسات الطوسي في تبيانـــه موضع عنايّة أبي علي الفضل بن الحســن الطبـرسي

---

(١) الأعراف: ٦
(٢) القصص: ٧٨
(٣) الرحمن: ٣٩
(٤) الصافات: ٢٤
(٥) التبيان: ٤ / ٢٤٩
(٦) ظ: التبيان: ٤ / ٣٥٠
(٧) ظ: المصدر نفسه : ٦ / ١٩٧
(٨) ظ: المصدر نفسه : ١ / ١١٨ .

(٥٤٨هـ) ، وقد أفصح عن ذلك في مقدمة تفسيره ، فقال: ((ان الأعراب أجل علوم القرآن ، إليهِ يفتقر كل بيان، وهو الذي يفتح من الالفاظ الأغلاق ...)) [١] ، وإنَّ ما يميز الطوسي في الجانب توظيف قرينة السياق عند الاعراب ، فيرد اللفظة أو العبارة إلى ما قبلها أو ما بعدها، ليتبين موقعها في ضوئه ، فكلمة (هدى) مثلًا في قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾ [٢]، يرى أنها لا تحتمل إلا النصب على الحاليّة، لقوله تعالى: (وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) [٣] ، بل إنَّ عنايّة الطوسيّ بالسياق لا تقف عند الآية التي يتناولها في التفسير والاعراب، بل تمتد إلى القرآن كله ، إيمانًا منهُ بأنَّ (القرآن كله كالسورة الواحدة) [٤].

فكثرة النظائر القرآنيّة للحكم النحويّ ، تعني عنده قوة لذلك الحكم وترجيحًا له على ما سواه من الاحكام ، وكأن هذا امتداد للمنهج الذي اتبعه في تفسيره وهو (تفسير القرآن بالقرآن) والأمثلة التي ذكرها حول ذلك كثيرة [٥] .

ثالثًا: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)

قال الزمخشري واصفًا للقرآن الكريم: ((الحمد لله الذي أنزل القرآن كلامًا مؤلفًا منظمًا، ونزله بحسب المصالح منجمًا، وجعله بالتحميد مفتتحًا وبالاستعاذة مختتمًا، وأوحاه على قسمين متشابهًا ومحكمًا؛ وفصله سورًا وسورهِ آيات، وميّز بينهما بفصول وغايات... فسبحان من استأثر بالأوليّة والقدم، ورسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم؛ انشأه كتابًا ساطعًا تبيانه، قاطعًا برهانه؛ وحيًا ناطقًا ببيناتٍ وحجج، قرآنًا عربيًا غير ذي عوج، مفتاحًا للمنافع الدينيّة و الدنيوية ، مصداقًا لما بين يديه من الكتب السماويّة، معجزًا باقيًّا دون كل معجز على وجه كل زمان، دائرًا بين سائر الكتب على كل زمان في كل مكان ...)) [٦].

من خلال قوله يمكن تشخيص ملامح واشارات التفسير الموضوعيّ، وهي كالاتي:

١- قوله: "كلامًا مؤلفًا منظمًا" أي النظر في سياق الآيات وما تحتمله الآية من وجوه ومعانٍ والغرض من ذلك (الوصول إلى حقيقة واحدة) بعد ربطها بما قبلها وما بعدها من الآيات.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن : ١ / ٢٠
(٢) البقرة: ١٨٥
(٣) ظ: التبيان: ٢ / ١٢٢
(٤) المصدر نفسه: ٣ / ٤١١
(٥) ظ:المصدر نفسه : ٢ / ١٥٦ ، في بيان كلمة "ما" وما تحتمله من وجوه اعرابية بعد استقراءه لأسلوب القرآن الكريم في جميع مواضيعه . ، وينظر أيضا: التبيان : ٤ / ٤٥
(٦) الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقوايل في وجوه التأويل : ١ / ٦

٢- وقوله: " وميّز بينهما بفصول وغايات" اشارة واضحة المعالم على إن القرآن فيه فصول وفيه أقسام، وكذلك غايات ووسائل وحكم ومقاصد، وبقوله هذا اشارة واضحة للتفسير الموضوعيّ.

٣- و" نزل بحسب المصالح مقسمًا أو منجمًا " أي كل آية مباركة نزلت في تشخيص موضوع محدد وهذهِ الآية هي خاصّة بذلك الموضوع ومنها قد تنسجم معه في كل زمان ومكان .

٤- "وأوحاه على قسمين: متشابهًا ومحكمًا" ، وهو ضربٌ من تفسير القرآن بالقرآن، والمحكمات هنَّ أم الكتاب وهنَّ الأصل الذي يرجع إليهِ الفرع (المتشابه)، فبيان المتشابه لا يتحقق إلا بالرجوع إلى محكمات الكتاب؛ ولا ريب إنها لونٌ من ألوان التفسير الموضــوعيّ .

٥- " أنشأه كتابًا ساطعًا ... إلى نهاية قوله" إشارة منه إلى أنَّ القرآن بيِّنٌ وأنَّ آياته واضحة، وبراهينه قاطعة وهذهِ دعوة إلى التدبر الواعي ، والتعقل بآيات الكتاب الحكيم، وإنّهُ حيٌ لا يموت رادًا على كل شبهه تعارضه ، ولا يتوقف عند هذا الحد بل أنه يُعدُّ علاجٌ لكل مشكلة تطرأ على المجتمع والواقع والكون، باعتبار مجموعة من الاشارات وهي أنَّ القرآن يجري مجرى الليل والنهار ومجرى الشمس والقمر، وإنَّ الآية باقيّة لا تموت بموت من نزلت فيهم أو في عصرهم، وان مفاهيمه ثابته الاسس ، ولكن التجدد والتطور والتبدل إنما يكون بالمصاديق التي تتبدل في كل عصر ، وهذهِ الاشارات التي ذكرتها تثبتُ بأنَّ القرآن معجزٌ باقٍ دون كل معجز على وجه كل زمان، وهذا ما يميزه بين سائر الكتب السماوية الاخرى، وإذا كان كذلك (أعني باقيًا يساير الحياة في كل زمان أو مكان) بلا ريب إذًا إنَّ كل ما يطرأ علينا من مشكلات وقضايّا متعددة فإنَّ علاجها الاساس هو الرجوع إلى القرآن الكريم، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بمنهجيّة معيّنة يمكنها أن تلبي الغرض وهي (المنهجيّة الموضوعيّة).

ونــرى أن الزمخشري قد أشار في تفسيرهِ إلى بعض الآيات التي تنسجم مع المذهب الأعتزالي؛ لذلك تعرض إلى الانتقادات التــي توجهت إليه من بعض العلماء أمثال (ابن المنيّر ، وابن تيميّة ، والسيوطيّ، وابن القيم، وأبو حيّان، وابن السبكي، وابن خلدون ، وحيدر الغرويّ، وغيرهم)[1]، بسبب نزعته العقائدية، إلا إننا ههنا لا نلتفت إلى تلك الانتقادات بقدر ما نحاول أن نبينه من الإشارات في تفسيره التي يمكن أن تعد فيما بعد موضوعًا من موضوعات القرآن بالنسبة لأصحاب المذهب الاعتزالي .

وبعد ما تقدم نرى أن الزمخشريّ قد سلك طرقا ومسائل متنوعة في ممارستهِ التفسيرية التي تضمنت ما يليّ:

---

(١) ظ: الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجد،ط١ ، مطبعة العبيكان ، الرياض ١٤١٨هـ: ١ / ٢٠ – ٢٨

١- **تأويله للفظ القرآني:** وذلك كأن يتعرض لتفسّير آية فيكون لفظها على ظاهره ، فيذهب فيه إلى معنى آخر ، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [١]، فهذه آية تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، ولا ريب أنَّ هذا مردود عند المعتزلة، فيذهب الزمخشري إلى أن معنى "ناظرة" منتظرة؛ ((فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورًا إليهِ محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه ، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي. تريد معنى التوقع والرجاء ومنه قول القائل: من الكامل

وإذا نظـــرتُ إليـــكَ مِنْ مَـــلِكٍ والبَـحْـرُ دُونـَكَ زِدْتَـنِـــي نِـعَـمَـا

وسمعت سرويّة مستجديّة بمكة وقت الظهر ، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم – تقول : عيّنتي نويظرة إلى الله وإليكم ، والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ...)) [٢] .

أو أن يكون النظر هو الرجاء، فيكون معنى الآية أن المؤمنين يرجون الثواب والحسنى من الله يوم القيّامة، لذا لا يصح عنده تفسير النظر بمعنى الرؤية ، فيستقرأ الآيات التي تؤيد ما ذهب إليه ، ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ يذكر أنها تنظر إلى ربها خاصّة لا تنظر إلى غيرهِ، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى قوله: ﴿**إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾[٣]، و ﴿**إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾[٤]، ﴿و **أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾ [٥]، ﴿و**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [٦]، كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن عيون المؤمنين ناظرة إلى ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليهِ لو كان منظورًا إليه محال فوجب حمله على معنى التوقع والرجاء ... [٧] .

٢- **التأويل بالتمثيل والتخييل** ، كان الزمخشريّ عندما يتعرض للفظ قرآني ما يحاول حمله على التخييل ، فنراه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ [٨]، يذكر أربعة أوجه في معنى "الكرسيّ" يقول في أولها: ((أنّ كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمتهِ وتخييل فقط ، ولا كرسيّ ثمة ، ولا قعود، ولا قاعد؛ كقوله: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**ۚ

---

(١) القيامة : ٢٢ – ٢٣
(٢) الكشّاف : ٦/ ٢٧٠
(٣) القيامة: ١٢
(٤) القيامة: ٣٠
(٥) الشورى : ٥٣، النور: ٤٢، وآل عمران: ٢٨
(٦) هود : ٨٨
(٧) ظ: معجم تفاسير القرآن الكريم، د. عبد القادر زمامة، د. عبد الوهاب التازي سعود، وآخرين، ط١، دار التقريب بين المذاهب، بيروت، ١٤٢٤ هـ : ١ / ٣٨٥ .
(٨) البقرة : ٢٥٥

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١]، من غير تصور قبضة وطيّ ويمين ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيلٌ حسن ؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ الآية...)) [٢].

هنا بيّن بأنَّ مفهوم (الكرسي) يرمز إلى القوة والقدرة والعظمة، والالحاح على نفيّ الأشياء المادية ، ويدعو الانسان إلى استعمال عقله وصرف ذهنـــه إلى التصورات العقليّة والحالات النفسيّة ، ويدعو إلى تجاوز المعنى المباشر، بل لا بدّ من الذهاب إلى التخييل أو التصور من أجل تصوّر الغرض من الكرسي أو غيره .

وقال الزمخشري في ذلك: ((ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته تخيّلات قد زلت فيها الأقدام قديما. وما أتي الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ...)) [٣].

وقد توسع الزمخشري في تخييله وتمثيله حتى لو عضد مفهوم الآية حديث أو أثر؛ ففي تفسيرهِ لقوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [٤] ، يقول: ((وما يروون من الحديث: " ما من مولود إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها" والله أعلم بصحتهِ ، فإن صح معناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائهِ إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى على لسان إبليس: ﴿**وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[٥]، واستهلاله صارخًا من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيهِ، كأنه يمسه ويضرب بيدهِ عليهِ، ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لِمَـا تُـؤْذِنُ الدُنْـيَا بِـهِ مِـنْ صُـرُفِـهَـا يَـكُـونُ بُـكَـاءُ الـطِّفْـلِ سَـاعَةَ يُـولَـدُ

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدُنيّا صراخًا وعياطًا مما يبلونا بهِ من نخسهِ)) [٦].

فالتخييل يمكن أن يكون وسيلة من وسائل الفهم والاقناع ، اعتبارًا لمجموعة من المعطيات منها مثلًا أن التخييل يحرّر النص من الفهم السطحي والقراءة العابرة، أو إنَّ بعضًا من المفسرين أو الدارسين قد فهموا النصَّ على حقيقتهِ، فهذهِ قد تقودنا إلى مشكلات جمّة منها التجسيم وغيرها،

---

(١) الزمر: ٦٧
(٢) الكشاف : ١/ ٤٨١- ٤٨٣
(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٤٠٩
(٤) آل عمران: ٣٦
(٥) الحجر: ٣٩ – ٤٠
(٦) الكشَّاف : ١ /٥٥١- ٥٥٢

فالزمخشري استعمل كل قدراته العقليّة من أجل الوصول إلى غايتهِ ونصرة العقيدة، فالتخييل هو أداة لفهم عالم لا محدود وادراكه بوسائط ماديّة محدودة تتوسل بعالم الحسّ، ومع التخييل قد نكون بصدد خلق عالم جديد وافكار جديدة غير مألوفة تتلاءم مع التطور الحاصل في الكون ، إنَّ مثل هذه الأفكار وغيرها - مما لا مجال لذكرها هنا - يمكن أن تكون اشارات واسسًا وايحاءات لبناء منهج جديد وهو: (منهج التفسير الموضوعيّ) ، فلو جمعت تلك الافكار مع بعضها لخلصت إلى نتيجة مفادها : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[١] ، أو : ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** ﴾[٢]، فهذهِ النتيجة وتلك يمكن أن تكون موضوعًا قائمًا بذاتهِ .

السياق عند الزمخشري بوصفه وظيفة نحويّة :

ربط الزمخشري المعانيّ بالنحو القرآني خدمة في ممارسته التفسيرية إذ حاول التوسل في السياق بوصفه قرينة مهمة في إيضاح المعاني النحويّة في ظل أعاريبه ، فقد تمتد رعاية الزمخشري النحوية للنسق المعنوي في الآية الواحدة للتناسب المعنوي في القرآن كله، ففي قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ﴾[٣]، يعرض وجهين لمرجع الضمير في (مثله) وهو إما (لما نزلناه) أو (لعبدنا) ويفضل منهما الوجه الذي يتفق مع المعاني القرآنية ... ورد الضمير إلى المنزل أوجه لقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ﴾ ، وقوله: ﴿**فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ**﴾ [٤]، وقوله:﴿ **عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [٥] فثبت من خلال استقرائه للآيات أنَّ الحديث في المُنزَّل لا في المُنزل عليه وهو الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودًا إلى رسول الله أن يُقال: وان ارتبتم في محمدٍ مُنزل عليه فهاتوا قرآنًا من مثله ، ولأنهم إذا خوطبوا جميعًا وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ في التحدي من أن يقال لهم ليأتِ واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله تعالى : ﴿**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم**﴾ [٦] [٧]، فهو توسل بالسياق القرآني المؤدى بالقرائن المنفصلة من اجل الوصول إلى الدلالة المرادة والوجه المقبول رغبة منه في اثبات اعجازية النص القرآني .

إنَّ المعاني القرآنية وتناسقها يضعها الزمخشري نصب عينه حينما يعرض لحكم اعرابي، فيقول عند الآية:﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [٨]، فقوله:(موسى الكتاب) يقصد به قوم موسى التوراة، (لعلهم) يعملون بشرائعها ومواعظها ، ومثله: ﴿ **عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ**

---

(١) الشورى : ١١
(٢) الانعام: ١٠٣
(٣) البقرة: ٢٣
(٤) هود: ١٣
(٥) الاسراء: ٨٨
(٦) البقرة: ٢٣
(٧) ظ: الكشاف: ١/ ٢٢٠- ٢٢١ ، وينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه، د. مصطفى الجويني، ط٢، دار المعارف، القاهرة/ ١٦٧
(٨) المؤمنون: ٤٩

وَمَلَئِهِمْ﴾ [١]، يريد آل فرعون، وكما يقولون: هاشم وثقيف وتميم ويراد قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في (لعلهم) إلى فرعون وملئهِ؛ لأن التوراة إنما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه، لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ**﴾ [٢] [٣] .

وهكذا يوظف الزمخشري النحو في خدمة تفسير القرآن أضف إلى ذلك استعانته بآيات أخرى من أجل الوصول إلى المراد وله في ذلك الكثير من المواضع التي سلك فيها المفسر هذا الجانب ، وهذا النهج يمكن ان يكون اشارات واضحة وامارات بيّنة للتفسير الموضوعيّ.

منهج الزمخشري في بيان اعجاز القرآن

ذكر الزمخشري ان الكتاب معجز من جهتين:

الأولى : اعجازه بنظمه .

والثانية: اعجازه بما فيه من الاخبار بالغيوب . فهو يرى ان صدق الاخبار عن الغيوب معجزة ، ويشرح عند الآيتين : ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[٤]، فبعد ان يشرح هاتين الآيتين ، يشير الزمخشري الآي التي اخبرت بالغيب والتي تعد من المعجزات وان كانت في مواضع مختلفة في تفسيره، منها مثلًا قوله تعالى :

- ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾[٥]، (ولن يتمنوه ابدًا) من المعجزات لأنه اخبار بالغيب وكان كما اخبر به كقوله تعالى(ولن تفعلوا) ، فأن قلت: وما أدراك أنهم لم يتمنوه؟ قلت لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم ... [٦] .
- ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ [٧]، فهو من الاعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان [٨].
- ومثله قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [١]، وهو من الكائنات التي اخبر عنها في القرآن قبل كونها .

---

(١) يونس: ٨٣
(٢) القصص:٤٣
(٣) ظ: الكشّاف: ٤/ ٢٣٣
(٤) البقرة: ٢٣- ٢٤
(٥) البقرة: ٩٤- ٩٥
(٦) ظ: الكشّاف : ١ / ٢٩٩
(٧) الحجر: ٩١
(٨) ظ: الكشاف: ٣ / ٤٨١

- وفي الآيات:﴿ **الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ [٢]. يبين الزمخشري أن هذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وأنَّ القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله [٣] .
- ومنه قوله : ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [٤] ويرى أنَّ هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم البلاد ويقبض لهم من الغلبة على الاقاليم ما يستقلون إليهِ فتح مكة، (وكفى بالله شهيدًا) على أن ما وعده كائن ... [٥] .

هذه الآيات وغيرها التي ذُكرت في تفسير الزمخشري والتي ترتبط ارتباطًا وثيق في موضوع واحد والتي يمكن أن تجمع وتدخل تحت عنوان محدد يمكن ان نطلق عليه بالإعجاز الغيبي للقرآن الكريم.

وبعد هذه الالتفاتة إلى الاشارات التي وردت عند المفسرين المذكورين انفًا تبيَّن لنا رسوخ التفسير الموضوعيّ وأهميته وحضوره في كتب التفاسير ولكن بصورة جزئية ومن دون ان يصرحوا به ، واني ان تعرضتُ إلى مجموعة منهم (الطبريّ، الطوسيّ، الزمخشريّ) هذا لا يعنى ان هؤلاء فقط من ظهرت ملامح وسمات التفسير الموضوعيّ عندهم! ولكن بغية الاختصار وعدم الاطالة في الموضوع ، فدونك (ابن عطية المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، في كتابهِ المحرر الوجيز) وأيضًا (الفخر الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦ للهجرة ، في كتابه مفاتيح الغيب) و (أبو حيّان الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥ للهجرة ، في كتابه البحر المحيط) وغيرهم من علماء التفسير .

---

(١) المائدة: ٥٤
(٢) الروم: ١- ٢- ٣
(٣) ظ: الكشّاف: ٤/ ٥٦٤
(٤) الفتح: ٢٨
(٥) ظ: الكشّاف: ٥/ ٥٥٠

المطلب الثاني : الإشارات الاستباقيّة في كتب معاني القرآن

إنَّ معاني القــرآن الكريم تربو على خمسة عشر علمًا، فمعاني القرآن وسط الدائرة، والعلوم التي تكون هالة حـول هـذا القمــر: القــراءات ، اللّهجات ، فقه اللغة ، الأساليــب والبـلاغــة، والنحو، والصرف، علم التجويد، الصوت، غريب القرآن، ... والقائمة تطول وتعرض، فالقرآن هو مركز استقطاب [١] .

وسأشيرُ إلى أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وهي:

أولًا: كتاب معاني القرآن لمؤلفهِ أبي زكريّا يحيى بن زياد الفرّاء(ت ٢٠٧هـ).

يعد هذا الكتاب مدونة تفسيرية قيّمة لنحوي ومفسر كبير، إنَّ المرجعيّة الزاخرة بوصفه نحويًا كبيرًا مكنته من تفسير النصوص القرآنيّة ، وما عمله كانت محاولة أولى في تفسير الخطاب القرآني، القائم على التجوز والاتساع، وملاطفة المجالات التداولية الاستعمالية وموافقة الواقع التداولي المعيش [٢]، ونراه عند تفسير الآيات المباركة كثيرًا ما يقول: ((ومثله قوله تعالى، أو كما في قوله تعالى، أو نحو قوله تعالى)) [٣] فنراه ما يأتي دائمًا بشواهد قرآنية تساعده في الحكم على موضوع ما أو لحل قضيّة نحوية معينة وغيرها ، وهذا ضربٌ من التفسير الموضوعيّ.

وقد عاين الفرَّاء في ممارساته التفسيريّة الجانب اللغوي، الصوت والصرف والنحو والدلالة وعنايتهِ بقصد المتكلم وإرادته في افهام المتلقي، واستجدَائهِ وتوسله بآليات أخرى منها السياق الخارجي، - سياق خارج النصّ – وهو من الضوابط التي اعتمدتها مدرسة الأمناء، وبالأخص (أمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن) كسبب النزول والشواهد الحجاجيّة، وهذا ما سأشير إليه في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

وَوَجدتهُ عندما يصل لتفسير قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾[٤] يتعرض للمثل الوارد في الآية المباركة، قال: ((فإنما ضرب المثل - والله أعلم- للفعل لا لأعيان الرجال، وإنما هو مثل للنفاق)) [٥] ثم يؤكد ما ذهب إليهِ في هذا الموضوع باستحضار آيات مباركة، وذلك في جانبين:

الأول: أن الله تعالى قال:﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾ ولم يقل: "الذين استوقدوا" وهو كما قال تعالى: ﴿**تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾ [٦]،ومثله قوله تعالى: ﴿**مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [١].

---

(١) محاضرات في التفسير البياني، البذور والجذور للتفسير البيانيّ، المحاضرة التاسعة، أ.د رحيم كريم عليّ الشريفيّ / ١
(٢) ظ: المصدر نفسه / ٤
(٣) ظ: معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي، ط١، دار الكتب المصريّة ١٣٧٤هـ: ١ / ٩ – ١٦ – ٢٠ – ٦٥ .
(٤) البقرة: ١٧
(٥) معاني القرآن : ١ / ١٥
(٦) الأحزاب: ١٩

الثاني: إنَّ التشبيه لو كان للرجال لكان مجموعًا ، كما قال الله تعالـى: ﴿**كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ**﴾ [٢] يراد منه القيّم والأجسام، ومثله قوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾[٣]، ((فكان مجموعًا أذا أراد تشبيه أعيان الرجال، فأجر الكلام على هـذا،...)) [٤] .

واستعانَ الفرَّاء بآلية السيّاق في تفسيره، فعندما يصل لقوله تعالى: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ [٥] ، قال : ((مردود على قوله تعالى: "مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا" . ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ**﴾: أو كمثل صيب، فاستغنى بذكر "الذي استوقد نارًا" فطُرح ما كان ينبغي أن يكون مع الصيّب من الأسماء، ودل عليه المعنى؛ لأن المثل ضُرِبَ للنفاق، فقال: ﴿**فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**﴾، فشبه الظلمات بكفرهم، والبرق إذا أضاء لهم مشوا فيه بإيمانهم، والرعد ما يأتي في القرآن من التخويف ... وقيل لخوفهم من القتال إذا دعوا إليه، ألا ترى أنه قد قال في موضع آخر: ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**﴾ [٦]، أي يظنون أنهم أبدًا مغلوبون)) [٧].

واعتنى الفرَّاء بالقراءات فعرض لها في الآية مبينًا وجهة نظر كل قارئ مفسرًا قراءته، وقد تتعدد القراءات وتتعدد آراء المفسرين، فيفاضل بين آرائهم مختارًا ما يراهُ قريبًا من الصواب، ويرى أن النسق في الآية يوجب الترجيح لقراءة ما، والأمثلة على ذلـــك كثيـــرة [٨].

ثانيًا: كتاب معاني القرآن لأبي الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ).

وهو من الكتب المهمة في الخوض في هذا النوع ، إذ نرقب في مدونته التوسل بآليات بيانيّة مهمّة تمثل التحامات معرفيّة من الصوت والصّرف والنحو والسّياق وعلم المناسبة فضلًا عن الاستئناس بقول العرب.

ومن تطبيقاته الجليّة للتفسير الموضوعيّ هو تعرضه للحروف المقطعة في بدايّة سورة البقرة، فيبدأ ببيانها بالتفصيل، ولا يكتفي بذلك بل يقوم باستقراء جميع تلك الحروف الواردة في أوائل جميع السور القرآنيّة [٩]، وبعدها يتطرق إلى جميع الأقوال التي قيلت فيها وجميع الآراء التي وردت، ثُمَّ ينتهي إلى نتيجة واحدة في كل مواضع ورود تلك الحروف.

---

(١) لقمان: ٢٨
(٢) المنافقون: ٤
(٣) الحاقّة: ٧
(٤) معاني القرآن: ١ / ١٥
(٥) البقرة: ١٩
(٦) المنافقون: ٤
(٧) معاني القرآن، الفرّاء: ١/ ١٧
(٨) ظ: معاني القرآن: ١ / ٣ - ٢٢٤- ٢٢٠ – ٢٩٨ ...
(٩) ظ: كتاب معاني القرآن، الأخفش، تح: د. هدى محمود، ط١،مطبعة المدني، القاهرة ١٤١١هـ : ١ / ١٩ علي سبيل التمثيل ما ذكره في سورة: الأعراف: ١ ، ويونس: ١ ، الرعد: ١، مريم:١ ، الشعراء: ١ .... و سورة ص:١

ومِثْلُ هذا المنهج اتبع آخرًا يخضع لبعض أبواب النحو؛ وهو في إيراده لهذه الأبواب يحاول قدر الاستطاعة إيراد الآيات مرتبة في سورة البقرة، فنراه عندما يورد مجموعة من الآيات المباركة خاصة في موضوع معيّن يقول: ((هذا بابٌ من المجاز [١]، هذا باب الاستثناء [٢]، هذا بابُ الدعاء [٣]، ... باب المجازاة [٤]، باب اسم الفاعل ...))[٥]، فبعمله هذا عقد شبكة موضوعيّة متكاملة مقسمة على أبواب وأدخل تحت كل باب منها آياته المباركة الخاصّة به ، وهو يورد هذه الأبواب جل ما يتصل بها من أحكام وقواعد مستشهدًا لها بآياتٍ من سورٍ اخر، فكأنه بإيراده لمسائله هكذا في أبواب قد وضع أمام النحويين منهجًا للتصنيف يتبعونه.

وهكذا نجد مجموعة من الاشارات التي ترد في الموضوع الواحد في كتب معاني القرآن المختلفة، ومنها مثلًا:

- مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت ٢٠٩ هـ).
- ضياء القلوب في معاني القرآن، للمفضَّل بن سلمة (ت ٣٠٠هـ).
- معاني القرآن للزجاج (ت ٣١١هـ) .
- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، للشاعر العلويّ أبي شريف الرضـيّ(ت ٤٠٦هـ).

المطلب الثالث: الاشارات الاستباقيّة في كتب علوم القرآن

إنَّ كتب علوم القرآن هي الأخرى أيضًا التي وردت فيها اشارات واضحة في التفسير الموضوعيّ، وذلك لما لمسته من موضوعات تنسجم وتتلائم مع هذا النوع من التفسير، وهذا كثير في تلك الكتب ، ولكن سأشير إلى كتابين منهما فقط، وهي:

أولًا: البرهان في علوم القرآن لمؤلفهِ ، بدر الدِّين الزركشي (ت ٧٩٤هـ).

قسّمَ الزركشي كتابه إلى أنواع متعددة من العلوم، ووصلت إلى(٤٧) نوعًا، وإني وجدت أنَّ بعض هذهِ الأنواع فيها نوع من الارتباط والانسجام مع موضوعنا (التفسير الموضوعي الثابت) منها مثلًا:

١- معرفة المناسبـات بين الآيـات: وهو النوع الثاني الذي ذكره في كتابه، قال فيهِ : ((وعلم المناسبة علمٌ شريف، تحرز بهِ العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة فـي اللـغة :

---

(١) كتاب معاني القرآن، الأخفش : ١ / ٦١
(٢) المصدر نفسه:١ / ٦٤
(٣) المصدر نفسه:١ / ٦٥
(٤) المصدر نفسه:١/ ٨١
(٥) المصدر نفسه:١ / ٨٩ – ١٠٦

المقاربة ...)) [١]، وأعتنى المفسرون القدماء لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور كما فعل الفخر الرازي في تفسيره (الكبير)، وكما فعل البقاعي (ت ٨٨٥هـ) في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، وعبد الحميد الفراهي(ت ١٣٤٩هـ) في كتابه نظم القرآن. وهذا ما اشرنا إليه سالفًا وهو أنَّ القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس هو على نسق واحد، وعلى ترتيب واحد. والفائدة من ذلك هو جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ، فمن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض [٢].

ومن أمثلة ذلك افتتاح سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿**الم . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[٣]، فإنه إشارة إلى (الصراط) في قوله تعالى : ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[٤]، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهدايّة إليه هو الكتاب ، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بسورة الفاتحة [٥].

ومن لطائف إشارته إلى سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها وهي سورة الماعون؛ التي وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البخل، ترك الصلاة ، والرياء ، ومنع الزكاة، فقال تعالى:﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ [٦]، فذكر هنا في مقابلة البخل (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) أي الكثير ، وقوله: (فَصَلِّ) في مقابلة ترك الصلاة ، أي دم عليها . وقوله : (لِرَبِّكَ) في مقابلة الرياء، أي لرضاه لا للناس ، وقوله: (وَانْحَر) في مقابلة منع الماعون، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي فأعتبر من هذه المناسبة العجيبة [٧].

وغيرها من الأمثلة التي ذكرها في هذا الفصل على اختلاف أنواع ذلك الترابط [٨] وأيضًا ما أشار إليه في معرفة مناسبة الفواصل ورؤوس الآي [٩]، وهذا ضربٌ من التدبر في كلام الله تعالى، فهو يدل على أنَّ القرآن الكريم هو كالبناء المرصوص الذي يكمل بعضه بعضًا.

٢- حديثه في جمع الوجوه والنظائر [١٠]، الذي كتب فيه قديمًا مقاتل بن سليمان(ت ١٥٠هـ) وهو اشارة واضحة للتفسير الموضوعيّ، و ما ورد عنه قال: ((لا يكون الرَّجُلُ فقيهًا كل الفقهِ حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة)) [١١] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ، تح: أبي الفضل الدمياطي ، ط١، دار الحديث، القاهرة١٤٢٧هـ / ٣٦
(٢) ظ: المصدر نفسه والصفحة .
(٣) البقرة: ١-٢
(٤) الفاتحة: ٦
(٥) ظ: البرهان في علوم القرآن / ٣٨
(٦) الكوثر: ١- ٢
(٧) ظ: البرهان في علوم القرآن :١ / ٣٨
(٨) ظ: المصدر نفسه / ٣٩ ــ ٤٩
(٩) ظ: المصدر نفسه: ١/ ٥٠ ــ ٥٩
(١٠) ظ: البرهان في علوم القرآن: ١ / ٨١
(١١) الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، تح: د. حاتم صالح الضامن، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٣٢هـ / ١٩

فالوجه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدّة معانٍ كلفظ (الأمة) .
والنظائر: الألفاظ المتواطئة.

وقد تطرق مقاتل في صدر كلامه حول لفظة (الهدى) التي يختلف معناها من آية إلى أخرى ، والتي أوصلها إلى سبعة عشر وجهًا ، ثم أعطى لكل وجهٍ منها عنوانًا خاصًّا به وأدرج تحته الآيات التي تخدم ذلك المعنى . فقال في الأول: بمعنى البيان ، ثم يستقرأ جميع الآيات التي وردت فيها لفظة (الهدى) بمعنى البيان [١] ، وعلى هذه الشاكلة يذكر جميع تلك المعاني ويستجمع الآيات الخاصّة بها [٢] .

٣- حديثه في علم المتشابه ((وهو ايراد القصة الواحدة في صورٍ شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في ايراد القصص والأنباء وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكررًا ، وأكثر أحكامه تثبت من وجهين فلهذا جاء باعتبارين)) [٣].

فالحكمة من وجود المتشابه في القرآن هو لإثبات أنه معجز من جميع الطرق، ولهذا تحدث الزركشيّ فيه بالتفصيل بأسلوبٍ علمي راقٍ، وقسَّمه على فصول وصلت إلى (خمسة عشر فصلًا) وجعل لكل فصل آياته المباركة الخاصّة به التي جُمعت من سورٍ مختلفة من الكتاب العزيز [٤].

٤- حديثه في أسرار الفواتح والسور، قال: ((وقدد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور منها)) [٥] .

ثانيًا: مواقع العلوم في مواقع النجوم، لمؤلفهِ: جلال الدِّين بن عمر البلقينيّ (٨٢٤هـ).

يُعدُّ كتاب مواقع العلوم من أهم الكتب التي ألفت في علوم القرآن، وذكر مؤلفه في مقدمته فيه (اثنتين وخمسين) نوعًا من أنواع علوم القرآن الكريم[٦] ، وقد قسَّم تلك الأنواع بحسب ما يناسبها من الآيات المباركة أو ما تدخل في موضوعها وترتبط بها ، وهو ضربٌ من التفسير الموضوعيّ، وكانت تلك الأنواع تربو على أربعة أمور :

---

(١) ظ: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم / ١٩ – ٢٠
(٢) ظ: المصدر نفسه/ ٢٠- ٢٨
(٣) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٧
(٤) ظ: المصدر نفسه: ١ / ٨٧ – ١١٠
(٥) المصدر نفسه / ١١٧
(٦) ظ: مواقع العلوم في مواقع النجوم، تح: أنور محمود خطاب، ط٢، دار الصحابة للتراث، طنطا ٢٠٠٧م / ٢٨

الأمر الأول: تحدث فيه عن مواطن النزول وأوقاته ووقائعه، منها افرادهِ للآيات التي نزلت في مكة و الآيات النازلة في المدينة ، ولا يكتفي بذلك فقام بتقسيم وافراد الآيات التي نزلت في السفر والحضر، وخُصَّ في موضع آخر الآيات النازلة في الليل والنهار ، والآيات النازلة في الصيف والشتاء.

الأمر الثاني : تحدث فيه عن الأداء وقسَّمه إلى ستة أنواع: الوقف، والابتداء، والإمالة، والمد، وتخفيف الهمزة، والإدغام، فمثل لكل نوعًا منها آيات مباركة .

الأمر الثالث : ما أورده في الألفاظ، وأفرد فيه الآيات التي تعد من الغريب والمعرّب ، والمجاز، والمشترك اللفظي ، والاستعارة والتشبيه.

الأمر الرابع : ذكر فيه المعاني المتعلقة بالأحكام ، وقسّمها إلى أربعة عشر نوعًا؛ ولكل نوع منها آياته الخاصّة به مثل العام المتبقي على عمومه، والعام المخصوص، والعام الذي أريد منه الخصوص ، ... والمجمل والمبيّن، والمؤول والمفهوم ، والمطلق والمقيّد، والناسخ والمنسوخ.

وبعد هذه الالتفاتة السريعة إلى بعض ما كتبه العلماء تبيّن لنا جليًّا اشاراتهم لوجود الجانب الموضوعيّ في كتبهم، وان كانت اشارات خفيّة لا تبان إلا عند البحث والتدقيق، فلا نكاد نرى عالمًا من علماء علم المعاني والبلاغة والإعجاز و التفسير وعلوم القرآن إلا وله التفاته إلى موضوع محدد ولآيات معيّنة خاصّة بذلك الموضوع، بل إنَّ بعضهم أشار بصريح العبارة إلى الجانب الموضوعي وذلك ما رأيناه في مقدمة التفاسير مثل تفسير الطبري، وتفسير الشيخ الطوسي عندما قسّم معاني القرآن إلى أقسام أربع وجعل لكل قسم آياته المباركة التي تنسجم معه، وكذا قول الزركشي الذي بيناه سالفًا، فهذه إشارة مبكرة للتفسير الموضوعيّ.

وقد تنبه إلى ذلك استاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجي وهو أنَّ بعضٌ من كتب التفاسير العامَّة قد فسرت جملة من الآيات المتناثرة منها آيات الأحكام مثلًا حتى ليصح لنا أن نعدّها متخصصة في أحكام القرآن ، إذ لو قمنا بعمليّة رصد واحصاء للجهود في آيات الأحكام وغيرها لكانت عملًا مستقلًا منفردًا ضمن ما كتبوه في هذه التفاسير العامّة [١].

ويجدر بالذكر أن ثمة دراساتٍ نستشرفُ فيها بواكير التفكير في التفسير الموضوعيّ، من ذلك (رسالة القلة والكثرة، للإمام زيد الشهيد "عليه السلام") إذ استطاع أن يستجمع الآيات التي فيها لفظ الكثرة ، والآيات التي فيها لفظ القلة ، وفي ضوءِ هذا الاستجماع تبيّنَ أنَّ القرآن الكريم قد مدح القلة، كقولـــه تعالى: ﴿**وَقَلِـيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾[٢]، وقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ [٣]، وقوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن**

---

(١) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ / ٤٣- ٤٤
(٢) سبأ: ١٣
(٣) النساء : ٦٦

﴿رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [١]، وغيره الكثير من الآيات المباركة التي تتضمن مدح القلة التي وردت في مواضع كثيرة، وذمَّ تعالى الكثرة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [٢] ، وقوله: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٣] وقوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [٤]، وغيرها الكثير من الآيات القرآنية التي جمعها الامام الشهيد والتي تتضمن ذم الكثرة [٥]، وثمة رسالة أخرى له (عليه السلام) جمع فيها الآيات المتعلقة بالاصطفاء الالهي للأنبياء والمرسلين وبقاء الحق في ذراريهم ، وكذا جمع الآيات المتعلقة بالاصطفاء الالهي لأهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) ، وهي الغاية الأساس من تلك الرسالة لبيان مكانتهم وعظمتهم في القرآن الكريم [٦] ، من ذلك تبيّن لنا إسهام الإمام زيد الشهيد (عليه السلام) في التأصيل لمنهج التفسير الموضوعيّ.

المبحث الثاني: المعالم الصريحة للتفسير الموضوعيّ الثابت

المتطلع إلى الكتب التي ألفت قديمًا يجدُ أنَّ بعضًا منها أُختُص في بيان جانب محدد أو موضوع معيّن ولا يتعدى إلى غيرهِ فيفرد بهِ الآيات المتعلقة والمنسجمة مع ذلك الموضوع، فسمو كتبهم بالموضوع الذي من أجله أُلف الكتاب ، وخير دليل على ذلك هو ما كتبه العلماء في مواضيع متعددة منها : الفقه (أحكام القرآن) ، والأمثال ، والجدل، والقسم .

وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجانب من قبل الاستاذ الدكتور محمد حسين عليّ الصغير في حديثه حول التفسير الفقهي قال: ((إن التفسير الفقهي، والأحرى أن نسميه استخلاص آيات الأحكام من القرآن الكريم، ما هو إلا نموذج من نماذج التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم الذي حبرهُ الأوائل دون قصد إلى ذلك فيما يبدو لي)) [٧].

وفي تعريفه للتفسير الموضوعيّ قال: ((... فالمتخصص بالأحكام يبحث آيات الأحكام والمتخصص بالعقائد يحصي آيات العقائد وهكذا...)) [٨].

وبعد ذلك توسع استاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ في اشارتهِ إلى هذه المواضيع والتي عدّها من الملامح والسمات والامارات الجليّة للتفسير الموضوعيّ [٩].

---

(١) الأعراف: ٣
(٢) الزخرف: ٧٨
(٣) آل عمران: ١١٠
(٤) النساء: ١١٤
(٥) ظ: مدح القلة وذم الكثرة، للإمام الأعظم زيد بن عليّ (عليه السلام) مُنتزع من مجموع كتبه ورسائله، تح: ابراهيم يحيى الدرسي الحمزي ، منشورات مركز أهل البيت (عليهم السلام) للدراسات الاسلاميّة، اليمن – صعدة / ٢٥٥ – ٢٥٧ – ٢٨٠
(٦) ظ: كتاب الصفوة، للإمام الأعظم زيد بن علي (عليهم السلام) تح: إبراهيم يحيى الدّرسي، منشورات أهل البيت للدراسات الاسلامية' صعدة / ٢١٨ – ١٤٤ وما بعدها من الصفحات .
(٧) المبادئ العامَّة لتفسير القرآن الكريم / ١٢٧ .
(٨) المصدر نفسه/ ١٢٤ .
(٩) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ/ ٤٠

المطلب الأول: فقه القرآن

الفقه القرآني أو فقه القرآن أو فقه آيات الأحكام أو أحكام القرآن بحسب التسمية الموروثة، فقهٌ يتّخذ من النصّ القرآني موضوعًا لدراسته ومرجعًا لاستنباط الأحكام الشرعية منه، فهو ملتقى علمين إسلاميّين اثنين: أحدهما تفسير القرآن الكريم، وثانيهما علم الفقه الإسلامي، فجهود هذين العلمين المتمركزة على الآيات المعنيّة بالشأن الفقهي والأحكامي هي التي تكوّن الفقه القرآني، ومن هنا يحتاج الفقه القرآني إلى خبرةٍ تفسيرية وأخرى فقهيّة. فالقول أنَّه استنبط حكمًا شرعيًا من القرآن الكريم فهو فقيه فليس في هذا ضير بأن يكون الفقيه مفسرًا، أو أن يكون المفسر فقيهًا؛ لأن هدفهما واحد[١]، لذا فأنَّ رصد آيات الأحكام وبيانها سواء كان الراصد فقيهًا أم مفسرًا فهو يعدُّ جزءًا من الطريق إلى التفسير الموضوعيّ.

لذا فإنَّ الجهود التي كُتبت في فقه القرآن أو في تفسير آيات الأحكام تعد من الاشارات الأولى لتميّز وظهور هذا المنهج التفسيريّ وعدّهُ من الاتجاهات التفسيرية التي تبلور ظهورها منذ القدم ولكن بصورة غير واضحة؛ لأنَّ من كتب فيهِ لم يصرح بتلك التسميّة .

وإنَّ دراسة آيات الأحكام لدى العلماء كانت بطريقتين:

الأولى: كانت بنحو غير مستقل ، وهي على نحوين:

أ- ما قدَّمهُ الفقهاء لا سيما الذين يملكون موسوعات فقهيّة كبيرة، تنتشر وتتبعثر فيها بحوثهم الفقهيّة الاجتهاديّة، كالشافعي والسيد الخوئي .

ب- ما قدّمهُ بعضٌ من المفسرين الذين يملكون موسوعات تفسيرية شاملة لآيات القرآن الكريم ، فكان من الطبيعي أن تستخرج من تفاسيرهم أحيانًا ـ إذا كانت مبنيّةً على التفصيل لا الاختصار ـ فقهًا قرآنيًا، هو تلك البحوث المتعلّقة بتفسير آيات الأحكام، وهذا يمكن أن نجده عند الفخر الرازي في مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، وعند الطباطبائي في تفسير الميزان إلى حدّ جيّد.

فهذه الطريقة يمكن أن نصنفها من ضمن الاشارات الاستباقيّة للتفسير الموضوعيّ التي أشرتُ إليها سالفًا .

الثانيّة: كانت بنحوٍ مستقل، كما هي الحال مع المصنّفات الخاصّة بآيات الأحكام، والتي انطلقت وعُدَّت خاصّة بموضوع معين من خلال التسميّة (عنوان الكتاب)، وهذا هو مقصدنا في هذا

---

(١) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ / ٤١

المطلب والذي سنحاول من خلاله تسليط الضوء على تلك المصنفات لارتباطها الوثيق بعنوان الفصل وهو الثابت في التفسير الموضوعيّ، ومن هذهِ المصنفات ما يلي:

أولًا: كتاب أحكام القرآن لأبي النضر محمد بن سائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) .

يعدُّ هذا الكتاب هو الأول في أختطاطهِ وتفرده في هذا الفن التفسيري، قال الطهراني(ت ١٣٨٩هـ): ((آيات الأحكام الموسوم بكتاب أحكام القرآن لأبي النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي من أصحاب أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق (عليهما السلام)، والمتوفى ١٤٦، وهو والد هشام الكلبي النسابة الشهير وصاحب التفسير الكبير الذي هو أبسط التفاسير كما أذعن به السيوطي في " الإتقان "، قال ابن النديم في الفهرست عند ذكره للكتب المؤلفة في علم أحكام القرآن ما لفظه : "كتاب أحكام القرآن للكلبي رواه عن ابن عباس")) [١] ثم استمر الطهراني بالقول : ((أقول: هو أول من صنف في هذا الفن كما يظهر من تاريخه لا الإمام الشافعي محمد بن إدريس المتوفى سنة ٢٠٤، كما ذكره السيوطي، وكذا صرح به في كشف الظنون في عنوان أحكام القرآن، لأنه ولد الإمام الشافعي بعد وفاة الكلبي بتسع سنين، لأنه ولد سنة ١٥٥هـ ، ولا القاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف البياني القرطبي الأندلسي الأخباري اللغوي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ، والمولود بعد وفاة الإمام الشافعي بثلاث وأربعين سنة، لأنه ولد سنة ٢٤٧، كما ذكره السيوطي في بغية الوعاة)) [٢].

ثانيًا: أحكام القرآن، أبو عبد الله بن ادريس الشَّافِعي (٢٠٤هـ)، جمعه من كلامه البيهقي

وردت في كتاب الشافعي اشارات واضحة في تخصيص بعض المواضيع في القرآن الكريم واستقلالها مع ما يلائمها من الآيات المباركة وما ينسجم معها من ذلك مثلًا:

فصلٌ في معرفة العموم والخصوص في القرآن الكريم ، فقال: ((كل شيء : من سماء وأرض، وذي روح، وشجر، وغير ذلك فالله خالقه. وكل دابة فعلى الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودعها ، ... فهذا عام لا خاص فيهِ))[٣] ، ثمَّ يأتي بالشواهد القرآنية التي خرجت للعموم منها قوله تعالى:

- **﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾** [٤].
- **﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** [٥]
- **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾** [٦]

---

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ط١، (د.ط) النجف الاشرف ١٣٧٨هـ : ١ / ٤٠

(٢) المصدر نفسه والصفحة . ويُنظر: الفهرست، ابن النديم البغدادي : ١ / ٤٠

(٣) أحكام القرآن، جمعه أبو بكر أحمد بن حسن البيهقي (ت ٤٥٨هـ). تح: الشيخ عبد الغني عبد الخالق، ط١، دار احياء العلوم، بيروت ١٤١٠هـ/ ٣٢

(٤) الأنعام: ١٠٢

(٥) التغابن: ٣، الزمر: ٥

(٦) هود: ٦

-﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [١] ، فكل نفسٍ خوطبت بهذا في زمان النبي الأكرم وقبله وبعده ، مخلوقة من ذكرٍ وانثى ، وكلها شعــوب وقبائل [٢] ، وغيرها من الآيات المباركة التي تدخل تحت مسمى العموم .

ثمَّ بعدها يتحدث عن الخصوص في القرآن ويورد الأمثلة القرآنية التي تتفق معه [٣]، وهذا لون من ألوان التفسير الموضوعي واشارة استباقيّة من قبل الشافعي قبل خوضه في تفسير آيات الأحكام.

بعدها يتطرق إلى موضوعات تتعلق بآيات الأحكام مبتدأ كلامه حول الطهارات والصلوات ، فيتحدث مثلًا حول وجوب الطهارة مستشهدًا بآياتٍ قرآنية كريمة ، ومثله في موضوع الوضوء، والغسل والتيمم ، وغيرها [٤] ، فهو بعمله هذا فصل الكلام في موضوعٍ خاص يدخل تحت باب الطهارة إلى موضوع أكثر خصوصية منه ، وهكذا في بقيّة المواضيع الخاصّة بآيات الأحكام التي تعرض لها وهي (الصلاة ، والزكاة، والصيام، والحجّ) وغيرها من الأحكام يوردها ويفصلها على تلك الشاكلة .

ثالثُا: أحكام القرآن ، أبو بكر أحمد بن علي الرازيّ الجصاص (ت ٣٧٠هـ)

يعدُّ تفسيره من التفاسير الأولى بالنسبة للمذهب الحنفي ، تناول فيهِ سور القرآن الكريم كلها حسب تسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف، لكنه لم يفسر تلك السور إلا آيات الأحكام [٥] ، وسنبين منهجه الذي اعتمده في كتابه وفق النقاط الآتيّة :

١- منهجه في عرض السور :

كان يبدأ تفسير السورة مشيرًا إلى عنوانها مثل: "من سورة البقرة" أو ما شابه ذلك ، ثم ينتخب آيات معيّنة ؛ لاحتوائها على حكم شرعيّ معيّن ، بعدها يقوم بدراستها معتمدًا كل الامكانات العلمية التي يستلزمها تفسير الآية ، وهكذا يستعمل نفس المنهج عندما ينتقل إلى السورة الثانيّة والثالثة... مثال على ذلك للتوضيح :

لقد بدأ سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [٦] ، فيقول: ((يتضمن الأمر بالصلاة والزكاة لأنه جعلها من صفات المتقين...)) [١].

---

(١) الحجرات: ١٣
(٢) ظ: أحكام القرآن، البيهقي / ٣٤
(٣) ظ: المصدر نفسه / ٣٤ – ٣٦
(٤) ظ: أحكام القرآن، البيهقي/ ٥٣- ٥٩
(٥) ظ: أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، د. مساعد عبد الله آل جعفر، ط١ ، مؤسسة الرسالة، بيروت / ١٩٤
(٦) البقرة: ٣

وهكذا عندما يتحدث عن سورة آل عمران ، فيبدأ تحت عنوان: (سورة آل عمران) من قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [٢]، قال: ((قد بينا في صدر الكتاب معنى المحكم والمتشابه وان كل واحد منهما ينقسم إلى معنيين ...)) [٣]. وهكذا في سورة النساء وبقيّة السور المباركة .

٢- منهجه في عرض آيات الأحكام :

أما بالنسبة لمنهجه في عرض وابانة آيات الأحكام فإنه يختلف عن منهجه السابق في السور، فيعنون لكل آية مباركة يريد تفسيرها بالموضوع الخاص الذي تدور حوله ، ويسميه بالباب ، فيقول مثلًا في :"باب السحر وحكم الساحر" ((قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ..**﴾ [٤]، الواجب ان نقدم القول في السحر لخفائه عن كثير من أهل العلم فضلًا عن العامة ثم نعقبه بالكلام في حكمه في مقتضى الآية في المعاني والأحكام فنقول أهل اللغة يذكرون أن أصله في اللغة لما لطف وخفيّ سببه والسحر عندهم بالفتح : هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه ...)) [٥]. وكذلك يقول: "في باب الحيض" قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ...**﴾ [٦] ثم يشرع في ابانة وتفسير معنى (الحيض) بإرجاعها إلى أصلها اللغوي ، ثم يذكر رأي فقهي في ذلك . ومثلها يذكر باب "تحريم الدم" وباب "تحريم الخنزير" [٧]، وهكذا يعنون الموضوعات في أبواب إلى نهاية سورة البقرة ومثلها ما جاء في كتابه في بقيّة السور القرآنيّة المباركة .

إنَّ تفسير الجصاص يستهدف آيات الأحكام على وجه الخصوص، مما يوحي ببداية وظهور نواة التفسير الذي نجح نحو التخصص، فقد رأينا الجصاص يكتفي بعرض الآيات التي تحتوي على الأحكام ، معرضًا عن غيرها، وقد اعتمد في ذلك على دراسة الآيات بأسلوبٍ يتدرج فيه بشرح المفردات إلى المقارنة بين الآيات التي تتناول موضوعًا واحدًا أي ابتعادهِ عن الرأي وارتكازه على شرح القرآن بالقرآن ليخلص إلى نتيجة واحدة في بيان آيات الأحكام .

رابعًا: فقه القرآن، لمؤلفه: قطب الدّين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي(ت٥٧٣هـ)

---

(١) أحكام القرآن ، للجصاص، ط١، دار الخلافة العليّة . ١٣٣٥هـ: ١ / ٢٤
(٢) آل عمران: ٧
(٣) أحكام القرآن، الجصاص : ٢ / ٢
(٤) البقرة: ١٠٢
(٥) أحكام القرآن، الجصاص: ١ / ٤١ – ٤٢
(٦) البقرة: ٢٢٢
(٧) أحكام القرآن، الجصاص: ١ / ١٢٣ – ١٢٤

وهو من آثار قدمائنا التي تعتز بها المكتبة الاسلامية في أصالتها والمادة العلمية الثرية التي تحويها، فإنه مع اختصاره النسبي شامل لأطراف الموضوع جامع لما يجب أن يقال غني بما تناوله من الاستدلال. عرض الموضوع على ترتيب الكتب الفقهية حيث بدأه بكتاب الطهارة وختمه بكتاب الديات، مع رعاية المباحث التفسيرية والفقهية فأشبعها بحثا وتعمقا إذا كانت المسألة تحتاج إلى ذلك.

والقطب في هذا الكتاب شديد التأثر بآراء شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠) في كتابيه (التبيان في تفسير القرآن) و (الاستبصار فيما اختلف فيه من الاخبار)، كما أنه يبدو عليه التأثر الكبير أيضا بآراء الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي (ت ٤٣٦) في كتابه (الانتصار في انفرادات الامامية) وبعض أجوبته على المسائل، ففي كثير من المسائل نجده يتتبع ما قالاه وخاصة الأول منهما، بل ربما يأتي بعباراتهما عينا من دون تغيير أو تصرف فيها ... ويمتاز الكتاب بأنه يحاول في جمع الآراء وخاصة التفسيرية منها إذا ظهر عليها الاختلاف، فيوفق بينها ما وجد إلى ذلك سبيلا. ولذلك ترى بعض مسائل مطروحة في كتب الفقه أو التفسير بشكل يبدو عليها أنها معترك العلماء وتتضارب فيها آراؤهم، ولكنك عندما تعود إليها في هذا الكتاب تجد نقطة تنتهي إليها أقوال أولئك ولا يبقى شئ من الخلاف بينهم .

كما أنه يمتاز أيضا بما حواه من المسائل الخلافية بين المذاهب الشيعيّة والسنيّة، والتي وجدت العناية الكافية في تبسيطها وعرضها والنقاش فيها والاستدلال عليها، فربما كتب المؤلف فصولا عديدة في مسألة واحدة يتحدث عنها في فصل ويعود عليها في فصل آخر ليتكلم فيها من زاوية أخرى غير التي تكلم فيها [١].

قال مؤلفه – في المقدمة: ((الذي حملني على جمع هذا الكتاب ، أني لم أجد من علماء الإسلام قديمًا وحديثًا من ألف كتابًا مفردًا يشمل على الفقه الذي ينطق به كتاب الله ، ولم يتعرض أحد منهم لاستيعاب ما نصه عليه ، لفظه أو معناه ، ظاهره أو فحواه ، في مجموع كان على الانفراد ، صائب هدف المراد ... فرأيت أن أؤلف كتابًا في " فقه القرآن" يغني عن غيره بحسن مبانيه ، ولا ينصر فهم القارئ عن [إدراك] معانيه . متجنبًا الإطالة والتكثير ، ومتحريًا الإيجاز والتيسير ، ليكون الناظر فيه أنسيًا يصادقه ، وللفقيه ردءًا يصدقه ، فجمعت منه بعون الله جملة مشروحة أخرجها الاستقراء ، وذكرت إن نسيئ الأجل ما يقتضيه الاستقصاء، والله الموفق لما يشاء)) [٢] .

منهج الراوندي في مؤلفهِ :

---

(١) ظ: فقه القرآن، تح: السيد أحمد الحسينيّ، والسيد محمود المرعشى، ط١، المطبعة العلمية، قم المقدسة ١٣٩٧هـ : ١ كلمة المحقق / ١٠ – ١١

(٢) فقه القرآن، الراوندي : ١ مقدمة المؤلف/ ٣- ٤

قسَّمَ المؤلف كتابه إلى سبعة أقسام وسمى كل قسم بـ (الكتاب) وأدرج تحت الكتاب موضوعًا محددًا ليقترن اسم الكتاب بذلك الموضوع ، فقد أبتدأ الراوندي بـ (كتاب الطهارة) شارحًا ومفصلًا في هذا الموضوع بإيراد الآيات المباركة الخاصَّة بذلك الموضوع ولا يتعدى إلى غيرهِ إلى أن ينتهي منه .

يقول في مفتتح كتاب الطهارة : ((اعلم ان الله تعالى بيَّن أحكام الطهارة في القرآن الكريم في موضعيِّن ونبه عليها جملة في مواضع شتى ، منه خصوصًا أو عمومًا ، أو تلويحًا وأنا – إن شاء الله – أوردُ جميع ذلك أو أكثر ما فيه ، على غاية ما يمكن تلخيصه ، وأستوفيه وأومئ الى تعليله ووجه دليله . وأذكر أقوال العلماء والمفسرين في ذلك ، والصحيح منها والأقوى . وان شبهت شيئًا بشيء فعلى جهة المثال لا على وجه حمل أحدهما على الآخر وأقتصر في جميع ما يحتاج إليه ، على مجرد ما روي عن السلف – رحمهم الله – من المعاني إلا القليل النادر والشاذ الشارد ، وأقتنع أيضًا بألفاظهم المنقولة ... وهذا شرطي الى آخر الكتاب)) [١].

بعدها ينتقل إلى (كتاب الصلاة) ذاكرًا معنى اقامة الصلاة وتفصيل مواقيت الصلاة ، وتطرقه على - باب ذكر القبلة - وغيرها من المواضع الكثيرة التي تدخل تحت هذا القسم . وهكذا يليه بـ (كتاب الصوم) ، وعلى نفس الشاكلة (كتاب الزكاة) ثُمَّ (كتاب الحج) ، وأيضًا (كتاب الجهاد)، بعدها يختم مؤلفهِ بـ (كتاب الديون والكفالات والحوالات والوكالات) .

وليس بالاستطاعة أن يعرض البحث جميع ما ألف في هذا الاتجاه ، لذا سأكتفي بذكر بعض المؤلفات الأخرى التي كُتبت في أحكام لقرآن، منها:

- أحكام القرآن ، لمحمد بن عبد الله بن عربي (ت٥٤٦هـ).
- القول الوجيز في أحكام الكتاب ، أحمد بن يوسف الحلبي (ت ٧٥٦هـ).
- كنز العرفان في فقه القرآن، مقداد بن محمد بن عبد الله السيوري (ت ٨٢٦هـ).
- زبدة البيان في أحكام القرآن، أحمد بن محمد الأردبيلي (ت ٩٩٣هـ).
- منتهى المرام في شرح آيات الأحكام ، محمد بن الحسين (١٠٦٧هـ).
- قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر ، الشيخ أحمد الجزائري النجفي (ت ١١٥١هـ) .

وغيرها الكثير من المصنفات التي سلكت هذا المنهج وتوسعت فيه لكنها اختصت في بيان موضوع معيِّن من موضوعات القرآن وهو (الفقه أو تفسير آيات الأحكام) ولم تتعدد إلى غيره ، أما بلحاظ الأسلوب فهو من جهة تفسير موضوعي، ومن جهة أخرى ترتيبي؛ وذلك لأن آيات القرآن تنقسم من حيث المحتوى والموضوع إلى آيات المعارف والعقائد، وآيات التهذيب والأخلاق، وآيات العلوم والفنون، وآيات التاريخ والقصص، وآيات الأحكام؛ وفقه القرآن يتكفّل بالقسم الأخير؛ وعلى الرغم من أن الآيات الفقهية ـ كموضوع ـ تتصف بالعموم، ومن كون الآيات تتعلق بعناوين أكثر

([١]) فقه القرآن، الراوندي : ١ / ٥

تحديدًا، من قبيل: الصلاة، والحج، والجهاد، وأمثال ذلك، ويشكّل كلّ منها موضوعًا خاصًّا، إلا أنه يمكن تفسير هذه المجموعة من الآيات تبعًا لترتيبها، ولتسلسل السور القرآنية؛ وهو ما صنعه أغلبية أهل العامة، وأسموه «أحكام القرآن» أو «آيات الأحكام» كما هو الحال في صنيعة الجصاص، فلم يكن تفسيره موضوعيًا[١] بالمفهوم الفقهي للموضوع، وإنما كان تجزيئيًا تحليلًا، ولكن دون ان ينسى موضوع الحكم ولا يتعدى إلى آيات اخر ، ومن الممكن أن يجعل ترتيبه على أساس ترتيب الأبحاث الفقهية؛ وهو ما اختاره علماؤنا ، وقد أطلق الكثير منهم على هذه الآثار اسم «فقه القرآن» وقد شهدنا ذلك في مصنف قطب الدين الراوندي. وعلى هذا يكون تفسير آيات الأحكام من هذه الحيثية أحد نماذج التفسير الموضوعي.

المطلب الثاني : أمثال القرآن

جاء في القرآن الكريم من صريح الأمثال واحد وأربعون (٤١) مَثلًا، وقد وردت تلك الأمثال في سورٍ مختلفة ، فضرب الأمثال تعد من دلائل رحمة الله عز وجل وحبه وتوده لعباده، لذلك نالت مكانة رفيعة في نفوسهم، من هذا السبب جاءت عنايّة الأقدمين بجمع الآيات التي وردت فيها الأمثال القرآنيّة [٢]، ليكون هذا الجهد صورة تقدم معلمًا آخرًا وواضحًا من معالم التفسير الموضوعيّ الثابت ، فالأمثال القرآنية حظيت باهتمامٍ زائدٍ نوعًا ما عن باقي آيات القرآن؛ وذلك من ناحيتين:

الأولى: كونها نصوص خاصّة وقصيرة.

الثانيّة: لكونها محدودة ومعدودة .

فقاموا بجمعها وتدوينها في كتب خاصّة سميت غالبًا بـ (أمثال القرآن الكريم) وأطلقوا العنان لأقلامهم في شرحها والتنبيه على بعض أسرارها بين مقل ومستكثر . وهذا ما وقفنا عليه من القدامى الذي بيّن لنا أهمية ومكانة تلك المؤلفات التي خاضت جانبًا محددًا أو موضوعًا معيّنًا واستقلت به ، نذكر منها :

١- « أمثال القرآن » للجنيد بن محمد القواريري (ت ٢٩٨ ﻫ).

٢- «الأمثال في الكتاب والسنة» للحكيم الترمذي (ت ٣٢٠هـ).

٣- « أمثال القرآن » لإبراهيم بن محمد بن عرفة بن مغيرة المعروف بنفطويه (ت ٣٢٣هـ).

---

(١) ظ: المدرسة القرآنيّة / ١٢

(٢) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ، د. حكمت عبيد الخفاجيّ / ٤٤

٤- « الدُرَّة الفاخرة في الأمثال السائرة » لحمزة بن الحسن الاصبهاني (ت ٣٥١ هـ).

٥- « أمثال القرآن » لأبي علي محمد بن أحمد بن الجنيد الاسكافي (ت ٣٨١ هـ).

٦- « أمثال القرآن » أبي عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي النيسابوري (ت ٤١٢ هـ).

٧- « الأمثال القرآنية » للأبي الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠ هـ).

٨- «الأمثال الكامنة في القرآن » للحسن بن عبد الرحمن القضاعيّ (ت ٤٥٤هـ).

٩- «مجمع الأمثال» لأبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت ٥١٨هـ)

١٠-« أمثال القرآن » لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥٤هـ). وقد طبعت مؤخّراً.

ولتلك الأهميّة التي حظيَّ بها هذا الجانب والذي نعتبره صورة واضحة ومعلمًا بارزًا من معالم التفسير الموضوعيّ الثابت، رأينا أن نستعرض نموذجًا تطبيقيًّا للقدماء ، وهو كتاب:

- **الأمثال من الكتاب والسنة [١]، لمؤلفهِ الحكيم الترمذي [٢] (ت: ٣٢٠هـ)**

استسقى المؤلف مادة الكتاب من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ثُمَّ من أقوال العلماء والحكماء والبلغاء في تناسب وتناسق جميل، ولذلك فقد لوحظ أنَّ الكتاب ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام [٣]:
الأول: الأمثال من القرآن.
الثاني: الأمثال من الحديث النبوي والأخبار.
الثالث: الأمثال التي تفوه بها كبار العلماء والحكماء .

---

(١) كتاب الأمثال من الكتاب والسنة، حققه : علي محمد البجاوي، وعلق عليه وقدمه : الدكتور السّيد الجميلي ، وهو مجلد واحد يحوي (٣٤١) صفحة ، طُبع بدار ابن زيدون، في بيروت، وأيضًا في دار اسامة في دمشق ١٤٠٧هـ . جُمع فيه كثيرًا الأمثال القرآنيّة كنماذج لكنه لم يحشدها جميعًا، و إلا لصار أضعاف حجمه ، ظ: مقدمة المحقق / ٦

(٢) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، أبو عبد الله الحكيم الترمذي، وهو باحث صوفي ، سني حنفيّ المذهب، ولد في ترمذ ثم نفيّ منها ... وقد وصل الحد في تكفيره؛ لأنه ألف كتابًا في الإشارات الصوفيّة الباطنيّة . ظ: ترجمته : مفتاح السعادة: ٢ / ١٧٠ ، كشف الظنون: ١ / ٩٣٨ .

(٣) ظ: الأمثال من الكتاب والسنة، مقدمة المحقق / ٦

ومن بين هذهِ الأقسام ما يهمنا القسم الأول والذي يتعلق بدارستنا؛ ذلك إنه أخذ جانبًا من جوانب القرآن المتعددة وقام ببيانه وايضاحه وافرادها بالبحث والدراسَّة، غير إنه لم يعمد إلى الاستقصاء بل ترك كثيرًا من الآيات التي تتضمن المثل القرآني .

ذكر الترمذي في بدايّة حديثه عن الأمثال وأهميتها والحاجة إليها وفائدتها للناس ، فقال: ((أعلم بأنَّ ضرب الأمثال لمن غابَّ عن الأشياء وخفيت عليهِ الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء؛ فضرب الله لهم مثلًا من عند أنفسهم، لا من عند نفسه؛ ليدركوا ما غاب عنهم ... فالأمثال نموذجات الحكمة لما غابَ عن الأسماع الأبصار؛ لتهتدي النفوس بما أدركت عيانًا ...)) [١]

فمن رحمة الله لعباده ولطفه بهم وتدبيره لهم أنه تعالى ضربَ لهم الأمثال من انفسهم لحاجتهم إليها ، ليعقلوا بها، وفي هذا ادراكهم لما غاب عنهم واستحضار تلك الصورة في الذهن فمن عقل الامثال وصفه الله تعالى عالمًا؛ لقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [٢].

فقال : ((الأمثال مِرآة النفس)) [٣] .

بدأ الترمذي بعد ذلك في القسم الأول وهو (الأمثال في القرآن) ، حيث عرض حديثه بداية في مثل المنافقين ، وهو أول مثل في القرآن الكريم ورد في سورة البقرة ، قال جلَّ ذكره : ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**﴾ [٤] ، فبعد أن قام بجمع الآيات التي تتحدث عن مثل المنافقين يقوم بإبانتها، مستشهدًا ببعض آراء العلماء في التفسير منهم (ابن عباس ، قتادة، ومجاهد) وغيرهم [٥]

وهكذا يسير على هذه الشاكلة بإيراده للأمثال التي جاءت في القرآن الكريم كلًا على حدة وتميزها وتفسيرها ، فكان في مورد ما يطنب ، وفي آخر يقتصد . وقد أوصل الامثال في القرآن الكريم إلى (٢٣) مثلًا [٦] ، ليعدُّ عمله هذا ضربًا من التفسير الموضوعيّ الثابت ، ومعلمًا واضحًا وصريحًا الذي يسعى نحو التخصص والانفراد في موضوع محدد ومعيّن ، وسار من بعده

---

(١) الأمثال من الكتاب والسنة / ١٣- ١٤
(٢) العنكبوت: ٤٣
(٣) الأمثال من الكتاب والسنة/ ١٤
(٤) البقرة : ١٤ – ١٨
(٥) ظ: الأمثال من الكتاب والسنة/ ١٧ – ١٨
(٦) ظ: المصدر نفسه / ١٨ – ٤١ (مَثَل اليهود مع النبي، مثل المنافقين بتكذيب القرآن، مثل الذين كفروا ... مثل المشرك ، مثل المنافقين)

جملة من الرواد والاعلام في سلك هذا المنهاج وهو النجاح نحو التخصص في موضوع واحد ولا يتعدّون إلى غيره ، والتي أشرت إليها سالفًا لمن أراد الاطلاع عليها .

وهناك الكثير من الموضوعات القرآنية التي افردت نحو التخصص في موضوع معين، منها (الجدل في القرآن)، و (القسم في القرآن) و (القصص في القرآن) وغيرها التي أشار إليها الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ وفصل القول فيها، وهذا ما سنتطرق إليها بنوع من التفصيل في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى .

المطلب الثالث: إشارات في التفسير الموضوعي عند المستشرقين

لقد ساهم المستشرقون وألفوا في الكثير من المعارف الاسلامية، فلا تكاد تجد مجالًا يخصُّ المسلمين إلا وتجدهم قد تطرقوا إليه، حتى اصبحت كتبهم مصادر للدراسات الاسلامية ليس للأوروبيين فحسب بل للعرب والمسلمين أيضًا، وقد تأثر بدراساتهم وبإراءهم أجيال من الباحثين المسلمين، لذلك يتساءل المرء عن اسباب دراستهم للمعارف الاسلامية ؟ وهل دراساتهم تلك قصدوا بها العلم والمعرفة ؟ أم كانت لهم مقاصد أخرى**!؟** وماهي المآخذ التي تؤخذ عليهم بل ماهي المكائد والشبهات التي أثاروها على الاسلام ؟ . أترك الاجابة عن هذهِ الأسئلة إلى المعنيين بتلك الدراسة أو الباحثين الذين تخصصوا في هذا المجال.

أما الذي نحن بصدده هو معرفة تلك الابحاث أو الدراسة التي أنتجتها العقليّة الاستشراقية والتي نجحت نحو التخصص في أبانة موضوع معيّن أو محدد من موضوعات القرآن الكريم، فمن أجل أن تكون الدّراسة أكثر موضوعيّة وذات أهميّة علميّة واضحة؛ رأى الباحث ضرورة الإشارة إلى الجهود التي قام بها المستشرقون حول بعض الدراسات القرآنيّة وخاصةً تلك التي تتحدث عن الموضوع الواحد . فقد تميز طابع بعض الدراسات القرآنية عند المستشرقين بصيغة البحث الموضوعي لبعض الجزئيات في القرآن الكريم ، وهذا المنهج سليم للغاية ، ففي القرآن مئات الموضوعات المهمة ، والبحث فيها جملة قد لا يعطي ثماره ، ولا يفي حقّ كل موضوع ، أما تجزئتها وسبرها وإحصاؤها في أبحاث عدَّة متكافئة ، فمما يوفر للمتلقي فرصّة الامعان الحثيث في كل جزء وحيثية من هذه الموضوعات المتشعبة، ومن خلال الاطلاع اليسير يمكن تصنيف تلك الدراسات والبحوث إلى مجموعات، فمنها على سبيل المثال :

أولًا: في العقائد والديانات

ويشتمل هذا الجزء من الموضوع على ما كتبه المستشرقون عن القرآن في عقائده ، أو التشريع في آياته ، أو المقارنة بين ديانة وديانة من خلاله ، أو كشف العلاقات العامة بين شريعة وأخرى في ضوء معطياته ، أو الإشارات إلى الديانات والعقائد السابقة في محتوياته [١].

١- ذكر بروكلمان ثلاثة مباحث تتعلق بهذا الموضوع وهي [٢]:
أ- طابع الانجيل في القرآن بقلم ولكر ١٠٣١ م .
ب- عناصر نصرانية في القرآن بقلم اهرنس (د. ت).
ت- مجادلة المشركين في القرآن ، بقلم آتنجهانسن ، ١٠٨٣م .

٢- وكتبَ ريخلين " : الشرع في القرآن".
٣- ما كتبه المستشرق الألماني بومشتارك بحثان في علاقة الاسلام بغيره من الديانات هما (النصرانيّة واليهوديّة في القرآن ، مذهب الطبيعة الواحدة النصرانيّة في القرآن).
٤- بحث جوتين (الصلاة في القرآن) ١٩٥٥م .
٥- ما كتبه المستشرق الأنجليزي ريتشارد بل (العلاقات المسيحية بالنبي) .

وغيرها الكثير من الدراسات والبحوث التي كُتبت في مواضيع العقائد والديانات التي أشار إليها الاستاذ الدكتور محمد حسين علي الصغير بنوع من التفصيل [٣].

ثانيًا: الفن القصصي في القرآن

وهو يدور حول قصص الأنبياء والأمم الغابرة ، والقرون الماضية ، وأسلوب القصة وعرضها ، وأهداف القصص وثمارها ، وقد بدأ متأخرًا بالنسبة لغيره من البحوث ، فالمستشرق الألماني هوروفيتش ، تحتوي بحوثه القرآنية على طائفة كبيرة من الملاحظات والمعلومات الصائبة ، والجزء الأول منها يعالج النصوص القصصية في القرآن ويقسم كلامه على : عموميات وشكليات ، أساطير رادعة ، قصص الأنبياء والصالحين ، النبوة في القرآن ، والجزء الثاني : الأسماء والاعلام في القرآن [٤].

وهناك عناوين لموضوعات معيّنة كُتبت في قصص القرآن أوردها الأستاذ بروكلمان منها [٥]:

---

(١) ظ: المستشرقون والدراسات القرآنيّة ، د. محمد حسين علي الصغير، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت ١٤٢٠هـ / ٨٤
(٢) ظ: تأريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار، ط٥، دار المعارف، القاهرة(د. ت) : ١ / ١٣٤
(٣) ظ: المستشرقون والدراسات القرآنيّة / ٨٤ ــ ٨٥
(٤) ظ: الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الالمانيّة، رودي بارث ، ترجمة: مصطفى ماهر، ط١ ، مركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١١م / ٣٩ . ويُنظر: المستشرقون والدراسات القرآنيّة / ٨٦
(٥) ظ: تاريخ الأدب العربي / ١٤٣ .

١- عناصر الهجادة في قصص القرآن، بقلم Schapiro (سيجبار) عام ١٩٠٧م .
٢- مصادر القصص الإسلاميّة في القرآن وقصص الأنبياء، بقلم D. Sider sky (سايدر سكاي) في باريس عام ١٩٣٢م

وبعد هذا نجد المستشرق المجري بيرنات هيللر (١٨٥٧م – ١٩٤٣) يتخصص تقريبا في جزء من قصص القرآن، فينشر بحثا في مجلة الفصول بعنوان [١]:

أ- قصة أهل الكهف .
ب- قصص القرآن .

ثالثًا: موضوعات متفرقة منها [٢]:

١- النمو التاريخي في القرآن ، للمستشرق الأنجليزي سيل (١٧٥٦م).

٢- نبذة عن النفس في القرآن للمستشرق الفرنسي بلاشير (١٩٠٠م) .

٣- بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره، للمستشرق الالماني هرشفلد، نُشر في لندن ١٩٠٢م

٤- الطب في القرآن، للمستشرق أوبتز (١٩٠٦م).

٥- نشأة الأنسان كما في القرآن ، للمستشرق فرانكل (١٩٣٠م). وغيرها من المواضيع التي نُشرت ولم تطبع ، أو طُبعت ولم تصل إلينا .

رابعًا: الفهرسة الموضوعيّة للقرآن الكريم

إنَّ المحاولات الأولى لعمل فهرسة موضوعيّة للقرآن الكريم كانت على يد المستشرق الفرنسي (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) فقد تطرق في الفصل الثاني في الإشارة إلى الفهرسة الموضوعيّة للقرآن الكريم فقال: ((وإني أنقل من القرآن بضع آيات في كل موضوع مهم، وأرتب ما نقلته من الآيات على حسب الموضوعات نظرًا إلى أن ما ورد من الآيات في الموضوع الواحد مبعثر فيه اتفاقًا ، وإنني أبتدأ بما جاء في القرآن عن مصدره وعن قرباه الوشيجة بالكتب المقدسة التي أتت قبله ...)) [٣] .

---

(١) ظ: المستشرقون والدراسات القرآنيّة / ٨٦- ٨٧
(٢) ظ: تاريخ الأدب العربي: ١ / ١٤٢ – ١٤٣ .
(٣) حضارة العرب، غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بيروت ٢٠٠٤م / ١٢٢ – ١٣١

ففي علمه هذا فتح الباب أمام أخرين غيره في سلك هذا المنهج لكن بنوع من التخصص في فهرسة الكتاب الكريم وأول من عمل ذلك هو المستشرق الفرنسي (جول لابوم) في كتابه (تفصيل آيات القرآن الحكيم).

وضع لكتابهِ ثمانية عشر بابًا، ثمَّ حاول توزيع آيات القرآن الكريم على هذهِ الأبواب، وجعل تحت كل باب فروعًا، بلغت عدد هذه الفروع حوالي ٣٥٠ فرعًا، وجمع تحت كل فرع الآيات التي تتعلق به .

فالأبواب الرئيسيّة هي :

١- التأريخ. ٢- محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). ٣- التبليغ. ٤- بنو اسرائيل . ٥- التوراة. ٦- النصارى. ٧- ما بعد الطبيعة. ٨- التوحيد. ٩- القرآن. ١٠- الدّين. ١١- العقائد. ١٢- العبادات. ١٣- الشريعة. ١٤- النظام الاجتماعي. ١٥- العلوم والفنون. ١٦- التجارة. ١٧- علم تهذيب الأخلاق. ١٨- النجاح .

نموذج تطبيقي من كتابهِ :

تناول في الباب الأول (التأريخ) وأدرج تحته الآيات التي تتفق معه ، وقد قسمها إلى أربعة فقرات ، كل فقرة منها حملت عنوان تلك الآية [١]، مثلًا :

الفقرة الأولى: (أبابيل) قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ... ﴾ [٢].

الفقرة الثانيّة: (يأجوج ومأجوج) قال تعالى: ﴿**وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ. حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ...** ﴾ [٣]

الفقرة الثالثة: (ذو القرنين) قال تعالى:﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا...**﴾ [٤].

الفقرة الرابعة: (الروم) قال تعالى:﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ .فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون**﴾[٥].

ومن هنا نرى أن المؤلف قد فاته الكثير من الآيات القرآنية التي هي تحت عنوان التاريخ، فلم تدخل تحت الجمع ، في حين نرى أنَّهُ تعسّف كثيرًا في حشر بعض الآيات، وليس الغرض الاساسي

---

(١) ظ: تفصيل آيات القرآن الحكيم، نقله إلى العربية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء الكتب العربية ، بيروت ١٩٩٩م / ١٣- ١٤
(٢) الفيل: ١ – ٢ – ٣
(٣) الأنبياء: ٩٥ – ٩٦
(٤) الكهف: ٨٣ - - ٩٨
(٥) الروم: ٢- ٤

من الآية متفقًا مع الآية الاخرى ، إلا أن الكتاب خطوة مفيدة للباحث في لم شتات موضوع من الموضوعات القرآنية [١].

أما الباب الثاني الذي كان بعنوان (محمد صلى الله عليه وآله وسلم)، وبنفس الطريقة أدرج تحته الآيات التي تخصَّه، وقد قسمها إلى تسع فقرات يتفق عنوانها مع الآيات التي تحويها [٢]، وهي :

(١- طبيعة رسالته)
(٢- تأييد رسالته)
(٣- نُذر عامَّة)
(٤- شخصيّة محمد)
(٥- في شأن بعض مآثرِهِ وخصائصه)
(٦- الهجرة)
(٧- قريش)
(٨- المدينة)
(٩- المهاجرون)

وهكذا يسير إلى نهاية كتابه في ذكره للموضوعات السابقة التي أشرتُ لها ، وكل موضوع منهما يذكر فيهِ آياته المباركة التي تخصّه، وعلى هذا فإنَّ العمل الذي قام فيهِ المستشرق (جول لابوم) يقدم صورة واضحة ومعلمًا بارزًا من معالم التفسير الموضوعيّ، وقد تبعه صاحبه المستشرق الفرنسي (ادوارد مونتيه) قسّمَ فهرسه إلى (١٤٤) فرعًا، ولكنه أتبع فيه الطريقة المعجميّة مبتدأ بالألف ومنتهيًا بالياء . وكانت أكثر فروعه جمعًا للآيات هو (العبادات، والأمثال ، والتوبة) إلا أنه لم يكن موضوعيًا بالمعنى الذي تعطيه هذه الكلمة فهو في فرع التوبة مثلًا يذكر جميع الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة، فهو لم يوفق إلى حصر جميع الآيات القرآنية التي تخص الموضوع الواحد ... [٣] ، فهو كصاحبه (جول لابوم) لم يوفق إلى وضع فهرس موضوعيّ كامل للقرآن الكريم، ولكن (جول) كان أكثر دقة من (مونتيه) وأصح في اختيار الآيات القرآنيّة التي تخص الموضوع الواحد وادق ترتيبًا منه، إلا إنَّ لهذين المستشرقين فضيلة السبق وفتح الباب أمام من أراد ان يعمل مثل ما قاما به [٤].

بعد أن تلمسنا المحاولات الأولى أو الإشارات الاستباقيّة من قبل السابقين المشتغلين في التفسير وعلوم القرآن، وأعجازه وبيانه ، وبينا أنَّ الجذور الأولى للتفسير الموضوعي مترسخة منذ

---

(١) ظ: مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم / ٢٢
(٢) ظ: تفصيل آيات القرآن الحكيم / ١٤ - ٣٥
(٣) ظ: دورس في أساسيات منهج التفسير الموضوعي / ٧٤ – ٧٥
(٤) ظ: المصدر نفسه / ٧٥

القدم بإيرادنا للمعالم الصريحة له والتي نجحت نحو التخصص والانفراد ، من ذلك تنبين لنا أن للتفسير الموضوعيّ (الثابت) خصائص معينة منها :

١- شرح وابانة الألفاظ القرآنية في ضوء ألفاظ أخرى .
٢- العنايّة بالسيَّاق القرآني ، واعتباره من الاليات المهمة التي توجه عمل المفسر الموضوعي .
٣- الإيجاز والاقتصاد (الوجوه والنظائر) ، فالمعاني الكثيرة توضع في ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود ، مع الإبانة والإفصاح ، والوصول إلى المراد.
٤- عدم المزواجة بين النصِّ والواقع ، فالعمل يكون في داخل القرآن فقط وذلك من خلال الجمع والاستقصاء ولم يتعدَّ خارج هذا الاطار .
٥- ومن خصائص الثابت أيضًا هو الابتعاد عن الشرح والتطويل وتعدد الوجوه .

الفَصْلُ الثَّالث

المُتَغيِّر في التفسير الموضُوعيّ (مَرْحَلة قبل النُضوج)

المَبْحَثُ الأوَلُ: تجديد الإحساس الزمنيّ بالنصّ القرآنيّ

المَبْحَثُ الثَّانِيَ: صيرورة مصطلح التفسير الموضوعيَّ (الاشاراتُ الأولىٰ لهُ)

المَبْحَثُ الثَّالثُ: الدّراسات التَّطبيقيَّة لمنهج التَّفسير الموضوعيّ في العصرِ الحديث

توطئة:

كان انتهاء القرن الثالث عشر مؤذنًا بإعادة قراءة العلوم الإسلامية والعربية والدراسات القرآنية قراءة جديدة ولا سيما بعد أن أضفى التقليد والتكرار وغياب الابتكار، وكذا الجدل حول المسائل التي خلفها التراث، فأصاب كلًا من البلاغة والتفسير نوع من الجمود الفكري ... فقد تاه العالم الاسلامي في ظلمات تتكاثف فلا تدع للنور طريقًا، هذه الظلمات التي طمست العالم الإسلامي وسلبت أهل القرآن روح الحياة بعد أن كانوا حماة الفكر وقادة التقدم وأهل الابتكار، فتملكهم الجمود الفكري فأصبحوا أسرى الأوهام ومرتع الاستعمار [١] ، فأضحى واقع المسلمين السياسيّ والاجتماعيّ والفكريّ في حالة متأخرة بما يحملون في عقولهم من معتقدات باطلة ومذاهب فاسدة وآراء منحرفة بعيدة كل البعد عن واقع القرآن الكريم ، كان مصدر تلك الآراء هي الافتراءات الباطلة والادعاءات الكاذبة التي تسلحَّ بها الغرب (المستشرقون) على الإسلام وعلى القرآن الكريم، فأقحمت عقول بعض من العرب المسلمين - فتاهوا في هدايتهِ وضلّوا عن تحقيق غايته التي حققها الأولون .

وبعد هذا الجمود الفكريّ الذي أصاب العالم الاسلاميّ هذه المرحلة نتيجة الحروب والاستعمار نهض محمد عَبدُهُ (ت ١٣٢٣هـ) في مطلع القرن الثالث عشر بتفسير القرآن لا ليضم نسخة جديدة تتشابه مع تفاسير مَنْ سبقوه، بل ليجعله صيحة البعث، فكان صاحب دعوة إسلامية تنبه الغافلين وتهدي الحائرين ، فبعدما ابتعدت الأُمة عن الإسلام محاولًا إرجاعها إلى القرآن والاهتداء بهِ، فأراد من الإنسان التمسك بالقرآن بمعنى أن القرآن الكريم حيٌّ باقٍ مع الإنسان إلى قيام الساعة، من هذا يتبين لنا أنَّ التفسير الموضوعيّ كان حاضرًا عنده ولكنه لم يصرّح بهِ بوصفهِ مصطلحًا ، فكانت دروسه القرآنية دائرة معارف تلبّي حاجات اللغوي والفقيه ورجل الاجتماع، وكل طالب علم ملتمس للحقيقة [٢] . وجاء أمين الخولي بعد أستاذهِ بوصفهِ رائدًا طليعيًّا متزودًا بالذكاءِ والمعرفة، وقد أسس جماعة الأمناء هذهِ النخبة المميزة من الدارسين الأوفياء لأستاذهم استطاعوا بما أُوتُوا من العلم والمعرفة والذكاء أن ينتهجوا النهج الذي أرسى قواعده الشيخ محمد عبدة وأعاد صياغة تلك القواعد وزادها رونقًا أستاذهم أمين الخولي ، فكانوا من المطبقين الحق لما دعا إليهِ ، فوجدت آثارها في فِكَرِ الدّارسين و الباحثين قولًا وعملًا في بياناتهم .

---

(١) ظ: خطوات التفسير البياني ، د. محمد رجب البيومي، ط١، المكتبة الازهريّة (د.ط) ١٣٩١هـ / ٢٥٦- ٢٨٣

(٢) ظ: التفسير البياني للقرآن الكريم: بدايات وامتدادات، بحث طالبة الدكتوراه خولة حاجي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة تبسه في الجزائر ، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة ، المجلد ١٣ العدد الأول / ١٩٩

المبحث الأول: تجديد الإحساس الزمنيّ بالنصّ القرآنيّ

إنَّ الشعور بضغط العقل الحديث، وضغط الأسئلة المحرجة التي واجهت العقل الدينيّ في العالم بوجه عام، والعرب بوجه خاص كان لا بدّ من بذل الجهود من بعض العلماء في مواجهة ذلك، الأمر الذي دفع محمد عبدُهُ إلى ابتكار منهجية جديدة بالتفسير قادرة على مواجهة أسئلة العصر الحديث، وبذل جهود ضخمة في سبيل الدفاع عن الحقائق الدينية، وعلى الرغم من إيمانه العميق بكون القرآن كتاب هداية وإرشاد، إلا أنه انزلق في مجاراة الإيقاع السريع لعصره، واستعماله المفرط للغة المجازية في تفسير الكثير من الآيات القرآنية، التي تصادم العقل الحديث، لكن هذا كله لا يقلل من ريادته للطلائع الحديثة التي اقتحمت لجّة التفسير، وحاولت بإخلاص ملحوظ أن تُغيِّر طبيعة التفكير لدى القارئ المعاصر للقرآن الكريم [١].

المطلب الأول: بواكير التجديد والمعاصرة عند الشيخ محمد عَبْدُهُ [٢].

يُعَدُّ محمد عَبْدُهُ امتدادًا نقديًا واعيًا لشخصيّةِ استاذهِ المُصلح الاسلامي جمال الدين الأفغانيّ (ت ١٣١٥هـ) وعلى الرغم من الفروق الجوهرية بين الشخصيتين إلّا أنَّ الأثر القوي الفاعل للأفغانيّ في شخصيَّة تلميذه ظلَّ واحدًا من المسلمات التاريخيَّة في سياق الحديث عن العلاقة بينهما، ويمكن الاعتماد على التحليل المتقصِّي العميق الذي قدمه إلبرت حوراني لطبيعة التفكير لدى كلا الرجلين ومدى إسهامها في إيقاظ الحسّ الدينيّ المستنير في العالم الإسلامي ضمن سياق حضاريّ بالغ التعقيد اكتشف فيهِ الشرق ضعفه الحضاريّ الشامل أمام الغرب المدجج بالمعرفة والقوة والنظام [٣].

كانت القضية الأساسية لدى الأفغانيّ، هي كيفية اقناع المسلمين بأنَّ عليهم أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح، وأن يعيشوا وفقًا لتعاليمه، وما يريده منهم، لذلك فإنَّه كان يعنى بالدين كخلفية اجتماعية تقدم الإسلام مدنية مزدهرة للعالم المتحضر، فالبذرة الأولى للإصلاح والتجديد كانت على يد الأفغاني، ثم بعد ذلك انتقلت إلى تلميذه محمد عَبْدُهُ الذي اشتهر بدوره الإصلاحيّ للمجتمع وإرجاع الأمة إلى القرآن الكريم .

---

(١) ظ: أدبية النصّ القرآني، بحث في نظرية التفسير، عمر حسن القيّام ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الامريكية، ١٤٣٢هـ / ١٩

(٢) هو محمد عبدة بن حسن خير الله، علم من أعلام النهضة الاسلامية، وقائد من قادة الفكر العربي، ووطني مخلص أعطى الوطنية حقها، ولِدَ بـ(محلة نصر) مركز شبراخيت، مديرية البحرية سنة ١٨٤٩م وبها نشأ وترعرع، وقد ظهرت في طفولته مخائل النباهة والنجاهة، ودلائل العبقرية والنبوغ ... وكانت له شخصية خاصَّة تميَّز فيها عن الباقين من علماء الأزهر، إذ كان الصوت الجهوري الجريء ، الذي يعد أول صوت ارتفع في مصر يدعو في غير تردد أو خوف إلى نشر العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات الانسانية وغيرها من السمات الخصال التي كان يتمتع بها الشيخ محمد عبدة حتى قال فيه استاذه (جمال الدين الافغاني): "لقد تركتُ لكم الشيخ محمد عبدة وكفى به لمصر عالماً" . **يُنظر:** شخصيات ومواقف، محمد الصالح الصدِّيق، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٩٢ م / ٢٦٣- ٢٦٦

(٣) ظ: الفكر العربي في عصر النهضة ، إلبرت ، ترجمة : كريم عزقول ، ط٤، دار النهار ، بيروت ١٩٨٦ / ١٤٢ . ويُنظر: أدبية النصّ القرآني، بحث في نظرية التفسير، عمر حسن القيّام / ٢٣

وفي هذا السياق ينبغي الحديث عن جهود محمد عبدهُ في التأسيس لمفهوم القراءة المعاصرة للقرآن، وتحديث رؤى المفسر وأدواته بما تُمليه عليه رهانات الواقع وتحولاته، وهو تأسيس نابعٌ من رؤية شاملةٍ للإصلاح والتجديد، وإرجاع الأمة المسلمة إلى القرآن الكريم من خلال فتح باب الاجتهاد فيما يتعلّق بجوانب الحياة الاجتماعية والفكرية ، فكانت من بين الأشياء التي استهوته من أفكار استاذهِ هي فكرة (تصور حديث وجديد للإسلام).

ينطلق محمد عبدهُ في تجديد علم التفسير من لزوم بعث الإحساس اللّغويّ وإرهاق الذائقة الأدبية ، ولم يألُ جهدًا في سبيل الارتقاء بالذوق الأدبي وتخليصه من أوشاب الزخرفة اللغوية، التي كبلت طرائق التفكير والإبداع في العصور المتأخرة، وتأصيلًا لهذهِ الرؤية اتّجه نحو الأصول التراثيّة القادرة على تكوين ذائقةٍ لغويةٍ صقيلةٍ، وإرهاق الحسّ البلاغيّ ويأتي في طليعة هذهِ الأصول كتابا عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ) : (دلائل الأعجاز) و (أسرار البلاغة) اللذان تتجسد فيهما ذروة التفكير البلاغيّ القائم على تذوّق النصوص (قرآنًا وشعرًا ونثرًا) وتأكيد أدبيتها المتفوقة ، على الرغم من طابعها الجزئيّ ضمن معايير نقدية جديدة التي استلهمها محمد عبدهُ في تفسير القرآن الكريم [١].

حدَّد عبدُهُ هدفهُ من تفسير القرآن المتجدد والمتمثل في ((فهم الكتاب من حيث هو دينُ يُرْشِد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإنَّ هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابعٌ له أو وسيلةٌ لتحصيلهِ)) [٢]، فهذا يتوجه باللومِ إلى المفسرين الذي غفلوا عن الغرض الأول للقرآن، وهو هداية البشر وارشادهم إلى الحقّ المبين، وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلا بالنهوض والتجديد واعتماد آلية تمكنه من الوصول إلى هذا الهدف، فكان التفسيرُ الموضوعيّ هو الذي يستطيع تحقيق هذهِ المهمة؛ ويحقق تلك الرغبة، وذلك من خلال ربط القرآن بالواقع المعاصر الذي دعا أليه . فضلًا عن استجلاء المفاهيم القرآنية الكبرى والمقاصد العُظْمَى.

ولكن الغرض الأساس الأول في بناء منهجية التفسير لديه هو المعطى اللّغويّ، ويؤكد ذلك بقوله: ((فهم حقائق الالفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكثف في قول فلان وفهم فلان، فإنَّ كثيرًا من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعانٍ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد ... والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسِهِ، بأن يجمع ما تكرر منه في مواضع منه وينظر فيهِ)) [٣]. وهذهِ الجملة الأخيرة من كلامهِ هي منهجية تفسير القرآن بالقرآن، وذلك من خلال استقراء اللفظ القرآني المراد بيانه في جميع موارده في القرآن كله .

---

(١) ظ: تأريخ النقد الأدبي، عباس إحسان ، ط٤، دار الثقافة، بيروت ١٩٣٨م / ٤١٩ .
(٢) مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الفاتحة، محمد عبده ، ط٢، دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت / ٧
(٣) المصدر نفسه / ١٥

بدأ تفسير القرآن بمنهج حديث يجمع بين العقل والنقل والدراسة الأدبيّة لم يسبق في الشرق منذ يقضتهِ ، طبَّق فيه منهج أستاذه الأفغانيّ، إلى جانب ذلك ظهور الملامح البيانية في تفسيره بشكل واضح فهو لم يترك لنا تفسيرًا متكاملًا للقرآن الكريم، إلا أنَّهُ وضعَ حجرَ الأساس في نهوض التفسير الأدبي الذي يعدُّ لونًا من ألوانِ التفسير الموضوعيِّ في العصر الحديث، فقد أشار إلى ذلك حين حدد لتلامذته الشروط التي يجب أن يلتزمُ بها مفسر كتاب الله ، وهي:

١- فهم حقائق الألفاظ التي أودعها القرآن وتتبع الإصلاحات التي حدثت في المِلَّة ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، ومن ثم يحثُ على تفسير القرآن بالقرآن نفسه؛ وذلك بأن يجمع ما تكرر في مواضيع منه وينظر فيهِ، وينظر كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب بين معانيه .

بمعنى استقراء اللفظ في جميع موارده بالقرآن الكريم الذي يتحدث عن الموضوع الواحد، ليتوصل إلى الغاية المرادة .

٢- يجب أن يكون محيطًا بعلم الأسلوب والإعراب متقنًا لعلمي المعاني والبيان .

٣- علم أحوال البشر .

٤- العلم يوجه هداية البشر كلّهم بالقرآن، يجب على المفسّر أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، وكيف كان هذا القرآن سببًا في هدايتهم .

في هذا الشرط يؤكد محمد عَبْدُهُ على ديمومة القرآن الكريم وبقائهِ المستمر مع البشر إلى قيام الساعة، فإذا كان القرآن سببًا كبيرًا وفعَّالًا في هداية الناس في ذلك الوقت البعيد ، فلا ريب أنْ يكون أيضًا سببًا في هدايتهم في هذا العصر وفي كل عصر استنادًا إلى قاعدة الجري والتطبيق – في تطبيقها الابتدائي - التي أشرنا إليها فيما سبق، وفي هذا إشارة بيِّنة من محمد عَبْدُهُ إلى التفسير الموضوعيّ ؛ لأن هذا الشرط من متبنيّات هذا النوع من التفسير .

٥- العلم بسيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابهِ وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها [١] .

المطلب الثاني : منهج محمد عبده في الوحدة الموضوعيّة، وتطبيقه لها .

إنَّ القرآنَ الكريم بناءٌ محكمٌ متراصٌّ يكملُ بعضه بعضًا، فهو من سورة الفاتحة إلى سورة الناس على نسق واحد وعلى ترتيب واحد ، وهذا ما أشار إليه الكثير من المفسرين، وطبّقه محمد عَبْدُهُ في تفسيره، فهو يصل بين معنى الآيات برباط محكم من الفهم السليم وبين إظهار الوَحْدة الموضوعيّة والاتّساق وتأخذ كلُّ آيةٍ بحجز الأخرى في نسق بيانيّ معجز، لقد فهم القرآن

([١]) ظ: تفسير المنار، محمد رشيد رضا : ١ / ٢١- ٢٤

الكريم فهمًا جعله ينظر إليه وحدة واحدة متماسكة السور من دون تفريق ويتدبره ببصيرة عميقة الإيمان بوصفهِ كتاب الله الذي لا يشكُّ أحدٌ في إحكام بيانه، فلا تجد فيه اختلافًا ولا تناقضًا ، وصدق الله حين قال في وصفهِ [١]: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ [٢] .

لا جرم أنَّ المنهج البنائي المحكم هو بمثابة التسلّح المُتْقَن قِبال افتراءات المستشرقين والطاعنين في القرآن بأنَّهُ مفكّكُ الأجزاء مهلهل الترتيب مشتت المعاني وغيرها من الادّعاءات الباطلة ، لهذا نجد محمد عَبْدُهُ فسَّر الوحدة الموضوعيّة وعرض للسور، ليبيّن مدى التناسق في الآيات وما تهدف إليه من معنى يرتبط أوله بآخره وبالعكس ، فهو في بداية تفسيره للسورة يوضح هذه الحقيقة، ويرسم للسورة لوحة متناسقة في ألوانها ومتكاملة في معالمها، ومترابطة في مبانيها، ففي سورة الفاتحة يمهد لتفسيرها وارتباطها بسورة البقرة؛ إذ يقول في ذلك: ((ومن عجيب شأن النزول أنهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الالهي ويجعلون القرآن عضين متفرقة بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها عن بعض وبما يفصلون بين الجمل الموثوقة في الآية الواحدة فيجعلون لكل جملة سببًا مستقلًا كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سببًا مستقلًا)) [٣]. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في أول سورة آل عمران في تفسيره من محاولة الربط بين السورتين البقرة وآل عمران ، في البدء يذكر الكتاب ومحاجّة أهل الكتاب والتذكير بخلق آدم وعيسى على غير سُنّة سابقة في الخلق ((وأحكام القتال وختام بالدعاء واثبـــات الفـــلاح للمتقين)) [٤].وهذه المشاركة تمثل طابعًا عامًا للقرآن لا سيما إنَّ السورتين مدنيتان نزلت احداهما عقب الأخرى من ختم الثانية بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها؛ ذلك إنه بدأ الأولى بإثبات الفلاح للمتقين وختم الثانيّة بقوله: ﴿...**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [٥] ، والسبب في ذلك؛ لأن ما في الأولى أحق بالتقديم وما في الثانية أجدر بالتأخير، فالدعاء يناسب ما بعدها ذلك؛ لأنه يتضمن كلامًا في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة ، ونلاحظ من هذا التطبيق أنَّ السورة القرآنية عند محمد عَبْدُهُ متعانقة الآيات والجمل حول موضوع كلّيّ واحد وتشتمل على وَحْدات ومعانٍ متماسكة من خلال وَحْدة القرآن وبلاغة عباراته [٦].

ويبدو لي في ظلِّ بيانات محمد عَبْدُهُ أنَّهُ أشارَ إلى قضيّة مهمة أن معارف القُرآن و حقائقهِ مترابطة متّصلة وإنِ اخْتلفت الموضوعات و الحقائق ولا سيما في السورة الواحدة وفي ذلك تجسيد واصب للوَحْدة الموضوعيِّة في القرآن الكريم، وهي من أمارات التّفسير الموضوعيّ عندهُ الذي يقومُ على ترابط المفاهيم والحقائق ذات الصّلة، وهذا ما نلمحهُ في بياناتهِ الدّالة على

---

(١) ظ: المنار : ١ / ٦٩ ، وينظر: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث، د. عقيد خالد حمودي العزّاوي، ط١، دار العطاء، دمشق ١٤٣٣هـ / ٩٢

(٢) النساء : ٨٢

(٣) المنار: ٢/ ١١

(٤) المصدر نفسه: ٣/ ١٥٣

(٥) آل عمران: ٢٠٠

(٦) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث / ٩٤

هذا الربّط (وَحْدة، حبّات من الجوهرِ، اللّوحة المتناسقة، الثانيّة متمّمة للأُولى، مُتصلٌ بعضهُ ببعض...) وغيرها من الأوصاف .

ومن تطبيقاته للوحدة الموضوعيّة في مستهل تفسيره لسورة الانفطار ثم يبرز حقيقة لأول مرة حينما يربط بسورة (الانفطار) وبين السورة التي بعدها (المطففين) برباط في دِقّة الفَهْم وقوة الاستنباط وعمق التحليل وسهولة التعبير، قال : ((قد ذكر الله في هذه السورة تفصيلًا لما أجمله في السورة السابقة فقد جاء بنوع من أنواع الفجور وهو التطفيف في المكيال ثم جاء بنوع آخر وهو التكذيب بيوم الدِّين)) [١]، ثم يعلق على هذه الآيات من أول سورة البقرة في قوله تعالى: **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾** [٢] ، قلنا : ((إن الكلام في أول السورة في القرآن وتفصيل أحوال الناس في الأيمان بهِ وعدمه . وهذهِ الآية دليل على عدم الخروج عن هذا الموضوع في كل ما تقدم فالآيات متصل بعضها ببعض كحبات من الجوهر نُظمت في سلكٍ واحد فأنه بعد ما ذكر المتقين الذين يهتدون بالقرآن وعلاماتهم، وبيّن خصائصهم وصفاتهم وذكر الجاحدين المعاندين... ثمَّ المذبذبين بين ذلك فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وذكر فِرقهم وأصنافهم، وبيّن خلائقهم و أوصافهم، وضرب لهم الأمثال)) [٣] .

وعودٌ على بَدْء، وتتمّة لما سبق أنَّ محمد عَبْدُهُ أكد على الوحدة الموضوعيَّة في القرآن الكريم، والتـــي لا بُدَّ للمفسّر أن ينتبه عليها في ممارستهِ التفسيريّة، فهي تكشفُ في جلاء عن تماسك آياته و ترابط أفكاره. وبدأت الوحدة الموضوعيّة فكرة دارَ حولها خلاف بين مؤيد ومخالف حتـــى قيّـض الله تعالى لها من جَلَّى وَجْهَ الحقّ فيها وأحلهـا محلَّ التطبيق تلامذته من بعدهِ [٤].

---

(١) تفسير جزء عمَّ / ٣٢
(٢) البقرة: ٢٤
(٣) المنار : ١ / ١٩٠
(٤) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث / ٩٦

المبحث الثاني : صيرورة مصطلح التفسير الموضوعيَّ (الاشارات الأولى له)

أشرنا سالفًا إلى أنَّ التفسير الموضوعيّ بوصفهِ منهجًا تفسيريًّا تبلور ظهوره والعمل به منذ القدم أي منذ عصر الرسالة؛ من خلال عرضنا للآليات التي استند عليها هذا النوع من التفسير والتي من دونها لا يمكن أن يُعدَّ التفسيُر موضوعيًّا، ولكن كمصطلح حقيقيّ له فقد ظهر في وقتٍ متأخرٍ وخصوصًا عند المُحْدَثِين، فهو منهج جديد له حضوره في المنظومة التفسيريّة وعدَّه من المناهج التفسيرية المهمة .

كان المفسرون في عصرٍ مبكر يتناولون تفسير القرآن على ترتيب سورهِ، يقفون منها عند بعض الآي أو الآية، أو الجملة من الآي ، وهذا الصنيع كان سائدًا ومهيمنًا في الحركة التفسيريّة والمكتبة القرآنية زاخرة بهِ، حتى عندما يعنى المفسر بناحيِّة خاصَّة من القرآن ويؤثر موضوعًا بعينه في القرآن الكريم، فبين أيدينا مثلًا أحكام القرآن للجصّاص الحنفيّ (ت ٣٧٠هـ) وهو فقهي الاتجاه - يُعنى بهذا الجانب قبل كلِّ شيء - ولكنه مع هذا يسلك تلك المنهجيّة التقليدية السائدة في تفسير السور على ترتيبها في المصحف المبارك ... وأقل من ذلك أن يتبع المفسر موضوعًا خاصًا في القرآن يجمع متفرقه ، فنرى مثلًا كتاب التبيان في أقسام القرآن لشمس الدين بن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) الذي قصد فيه إلى درس موضوع خاص وهو (القسم في القرآن) قد انتظم نظرات عامَّة لصنيع القرآن في الأقسام، ولكنه مع ذلك لا يستقصيّ تتبع النظائر ويتلوها بالتفسير المقابل، الذي يُستعان فيه على فهم القرآن بعضه ببعض فيما يعطي الفكرة الموحدة عن المنهج القرآنيّ بالقسم بشيء خاصّ، ويحصي ما ورد من ذلك فينظر في جملتهِ [١].

تُعدُّ مدرسة الأمناء الأولى التي دعت إلى تفسير القرآن تفسيرًا موضوعيًّا الذي سيكون بعدًا من المناهج التفسيرية الحديثة، فبعد تطاول السنين وظهور الجامعات والتخصص في مدارس العلم وتنوع موضوعات البحث العلمي وتشعب مفرداتها وجد المحدثون الذين يعيشون عصر التنوع والتشعب في البحث وضيق دائرة التخصصات ودقتها ضالتهم في ما يحتويه القرآن الكريم من كنوز المعرفة الكثيرة والمتشعبة فكانت اسهاماتهم في دراسة ظاهرات أو موضوعات مما جاء في الكتاب الكريم يمثل جهدًا علميًا بينًا ورصينًا في مجرى التفسير الموضوعيّ، وظهر من العلماء من تصدى لمهمة التفسير الموضوعيّ التي تكمن صعوبتها في الخروج على المألوف في التفسير وجمع آيات الموضوع الواحد وتفسيرها [٢]، فرواد تلك المدرسة لهم السبق في التفكير لتأصيل مفهوم (التفسير الموضوعيّ) .

---

(١) ظ: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي/ ٣٠٠ – ٣٠١.

(٢) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعي، د. حكمت عبيد الخفاجيّ / ٥٢ – ٥٣

المطلب الأول: أمين الخولي المنظر الأول للتفسير الموضوعيّ (مرحلة التأصيل)

أولًا: حياته:

ولد الشيخ أمين الخولي في ١ مايو ١٨٩٥م من مركز اشمون بمحافظة المنوفية بمصر، حفظ القرآن وهو في سن العاشرة من عمرهِ . وتخرج من مدرسة القضاء الشرعيّ ، أصبح مدرسًا في مدرسة القضاء الشرعيّ في ١٠ مايو عام ١٩٢٠م ، وهذا ما أكد عليه الذين عرفوه، أنه كان يعطى قضية وطنه كل الاهتمام، وقد دفعته ثورة سنة ١٩١٩م إلى أن يعدّ العدّة، ويهيئ نفسه للنضال والجهاد، وبدأت مشاعره الوطنية قوية متأججة تنطلق هاتفة محتجة، وتعلن سخطها وغضبها على المستعمرين... [١].

وكان الشيخ الخولي أول رجلٍ دين مسلم حاول العبور من المناهج والمفاهيم والأدوات التراثيّة في فهم الدين ونصوصهِ، إلى استعمال مناهج ومفاهيم وأدوات جديدة، وتوظيفها في بناء فهمٍ بديل ونقد الفهم القديم، وتميز بخبره رصينة، وشجاعة كبيرة في توظيفها ، ولبث الشيخ الخولي كلَّ حياته وفيًّا لتجديد التفكير الديني الذي يعتقد أنه يقوم على تفاعل الدين وتكامله مع مختلف العلوم والمعارف البشرية وتوظيفها في فهمهِ وتفسير نصوصه كما يلخص لنا الخولي ذلك بقولهِ: ((إنَّ الدين في هذه الحياة لا مفرَّ له من التفاعل والتبادل مع ما سواهُ من فهم وتنظيم لتلك الحياة، وأنّهُ لن يُكتب لهذا الدّين البقاء إلا على قدر ما فيهِ من قدرة على هذه المسايرة والمفاعلة والاستفادة، والانتفاع بما سواهُ من التفسيـرات والتدبيـرات الأخـرى)) [٢].

ثانيًا: أعماله ومؤلفاتهِ:

أُولع الخولي بالتأليف، ومضى في مزاولة البحث والتدوين إلى آخر أيامه، وأجاد قلمه في نواحي شتى في المعرفة، وألف في علوم وفنون مختلفة، حتى كانت طبيعة التأليف إحدى ملكاته القوية، وقد أدرك الناس قوته فيه، ورأوا أن غرامه به كان يدفعه إلى ارتياد رياض أنف، وترك خلاصة فكره الناضج وعصارة قلبه الكبير لتعلن أنه عالم مجدد مبدع خلّاق، له اليد المبسوطة، والبصر النافذ، والنظر الناقد، والإحساس الدقيق، ومجهوده العظيم أنفقه في الدرس والبحث أثمر مقالات وبحوثًا في اللغة والأدب والبلاغة، والنحو والتفسير، نُشرت في المجلات المختلفة كمجلة كلية الآداب والسياسة الاسبوعيّة والرسالة والمقتطف والعربي والأدب ومجلة مجمع اللغة العربية وغيرها، وجعله يشارك في التعليق تصحيحًا لدائرة المعارف الاسلاميّة [٣]، ومن مؤلفاته نذكرُ منها:

---

(١) ظ: أمين الخولي والبحث اللغوي، د. حامد محمد أمين شعبان، ط١، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٨٠م / ٧

(٢) ظ: دعوة الشيخ أمين الخولي للتجديد، د. عبد الجبار الرفاعي (وهو مفكر وكاتب عراقي، متخصص في الفلسفة الاسلامية، مدير مركز دراسات فلسفة الدِّين في بغداد، له العديد من الاصدارات في الفكر الاسلامي والفلسفة) بحثٌ صادر من مركز أفكار للدراسات والأبحاث سنة ٢٠١٩م / ٣- ٤ .

(٣) ظ: أمين الخولي والبحث اللغوي / ١٥

١- من هدي القرآن .
٢- فن القول .
٣- الجندية والسَّلم ، واقع ومثال .
٤- دراسات اسلاميّة .
٥- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب .
٦- المجدّدون في الإسلام .
٧- كتاب الخير ، دراسة موسعة للفلسفة الأدبية مطبّقة على الحياة الشرقيّة والتفكير الاسلامي.

ثالثًا: وفاته:

توفيَّ رحمه الله تعالى في ٩ مارس سنة ١٩٦٦م ، ودفن في قريتهِ .

رابعًا: الخولي مؤسس مدرسة الأمناء :

يعدُّ أمين الخولي المؤسّس الفعليَّ لمدرسة الأُمناء وهو رائد الدعوة إلى الاتجاه الأدبيّ في التفسير بمصر في العصر الحديث ، أراد تحديث مناهج تفسير القرآن وتوظيف المناهج الحديثة في تفسير ونقد النصوص الأدبية، وتعميمها لتشمل النصّ القرآني، لذلك دعا إلى ما سماهُ "التفسير الأدبي للقرآن" ويشرح طريقته بالتفسير الأدبي قائلًا: ((التفسير اليوم – فيما أفهمه – هو الدراسة الأدبية، الصحيحة المنهج، الكاملة المناحي، المتسقة التوزيع، والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف، غير متأثر بأي اعتبار، وراء ذلك ، وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه ... هذهِ هي نظرتنا إلى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه ، وعلى هذا الأساس نقصد لبيان طريقة تناوله ومنهج درسه)) [١].

إنَّ التفسير الموضوعيّ بوصفه خطوة مهمة من خطوات التفسير البيانيّ وهو إرهاص جديد يجب الأخذ بهِ، فهو أول من نادى به في الجامعة المصرية مبينًا أثر ترتيب القرآن في تفسيره : ((وننظر بين يديّ الخطة في مسألة الترتيب لتبني عليه الرأي في كيفية تناول التفسير، وهل نتبع الخطة التي سارت حتى اليوم متدرجة على ترتيب سورة وآية في السور أم على غير هذا الترتيب ؟)) [٢].

إذا فإنَّ صيرورة فهم (التفسير الموضوعيّ) أو الإشارة الأولى له كانت على يد الشيخ أمين الخولي إذ يُعدُّ المنظر الأول والداعي الحقّ لتأصيل هذا الفهم الموضوعيّ . وذلك من

---

(١) مناهج تجديد، الخولي / ٣٠٤ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .

خلال عرض قوله في ترتيب القرآن، ويتجلى هذا الفهم الباصر والوعي المُعجب عنده في نظريتهِ لوَحْدة الموضوع في القرآن الكريم ذات المعاني المتشابهة، ومن ثم جمع عدد كبير من الموضوعات القرآنيّة، وهو صنيع مهم في الظفر بمفاهيم القرآن الكبرى ومقاصده وحقائقه ودقائقه ووقائعه العظمى، قال : ((فجملة القول إنَّ ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقًا ، وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبدًا وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد، والموضوع الواحد في سياقات متعددة ومقامات مختلفة ظهرت في ظروف مختلفة ، وذلك كله يقضى في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعًا موضوعًا، وان تجمع آية الخاصّة بالموضوع الواحد جمعًا احصائيًا مستقصيًا وان يعرف ترتيبها الزمنى ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ثمَّ بعد ذلك لتفسر وتفهم ، فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده)) [١] .

وأكد على جدّة هذا اللّون من الفَهْمِ الموضوعيّ وطرافتهِ بقوله : ((وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضًا مفرقًا لموضوعات مختلفة تتضمنها السورة الواحدة)) [٢].

ثمَّ ينتهي أمين الخولي بنتيجة عدَّها الصواب بالنسبة للتفسير و الغاية المرجوة والهدف الأَسْمَى ، فقال: ((فصواب الرأي فيما يبدو أن يفسر القرآن موضوعًا موضوعًا ، لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم ، سورًا أو قطعًا)) [٣] .

خامسًا: آمين الخولي واشارته للمنهج الأدبي بوصفهِ لونًا من ألوان التفسير الموضوعي :

إنَّ الخلاصة التي انتهى لها أمين الخولي بخصوص المنهج الاجرائيّ المقترح للتفسير هي أن يُفَسَّرَ القرآن موضوعًا موضوعًا، وأن تُجمع آيهُ الخاصَّة بالموضوع الواحد جمعًا إحصائيًا مستقصيًا ... ، بيد أنَّ هذهِ الخطوة المنهجيّة في التفسير مرتبطة بخطوتين منهجيتين أُخريين لا تتم الدّراسّة الأدبية للقرآن الكريم إلا بهما :

أما الأولى: فهي دارسة ما حول القرآن .

والثانيّة : دراسةٌ في القرآن .

يقول في ذلك: ((وإذا كان وجه الرأي أنَّ هذا التفسير الأدبي ينبغي أن يتناول القرآن موضوعًا موضوعًا، لا قطعة قطعة ... فأما دراسة ما حول القرآن: فمنها دراسة خاصَّة قريبة إلى القرآن، ومنها دراسَّة عامَّة بعيدة عنه ... ودراسة القرآن نفسهُ)) [٤].

---

(١) مناهج تجديد / ٣٠٦- ٣٠٧

(٢) المصدر نفسه / ٣٠٧

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه / ٣٠٧- ٣١٢

فمن تلك الفقرة أوضح منهجهُ التفسيري فهو : ((أدبي محض صرف، غير متأثر بأي اعتبار وراء ذلك)) [١] .

دراسة ما حول النَّص:

وهي أسباب النزول، والقراءات، والجمع وهي دراسة لازمة لتناول التفسير ((وما يتصل بالبيئة الماديّة والمعنويّة التي ظهر فيها القرآن وعاش فيها وجُمع، وكتب، وقرئ، وحفظ وخاطب أهلها أول مَنْ خاطب. و إليهم ألقى رسالتهِ لينهضوا بأدائها وإبلاغها شعوب الدنيا وما يتصل بالبيئة المعنوية بكل ما تتسع له تلك الكلمة من ماضٍ سحيق وتاريخ معروف ونظام أسرة وقبيلة)) [٢] .

إنَّ ما حول النّص من أسباب النزول والقراءات وغيرها هي مجرد تنوير طريق المُفسر وإضاءتهِ ، فهو لا يعتمد عليها عندما فسَّر بعض الآيات من كتابهِ (من هديّ القرآن) ؛ لأن العبرة عند الأصوليين بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإنَّ هذا القرآن رأس هذا الأدب وقلبه الخافق ولن يدرس درسًا أدبيًا صادقًا يفي بحاجة المعترض لتفسيرهِ إلا بعد أن تستكمل لحلِّ وسائط تلك المعرفة للبيئة العربيّة ماديّة ومعنويّة [٣].

دراسّة النَّص نفسه:

هي دراسّة المفردات من ناحيّة معناها اللغويّ، وهي تبدأ بالنظر إلى المفردات وهي ((تدرج دلالة الألفاظ وأثرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال وبفعل الظواهر النفسيّة والاجتماعية وعوامل حضارة الأمة، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية...)) [٤] ، والدراسة الأخرى التي أشار إليها هي (دراسة في المركّبات - الجمل -) بقولهِ : ((ثم بعد المفردات يكون نظر المفسّر الأدبي في المركبات وهو في ذلك مستعينًا بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة ... إلخ ، ولكن لا على أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاتهِ، ولا لون يلون التفسير كما كان الحال قديمًا، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديدهِ والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآيات الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كلهِ. ثم أن النظرة البلاغية في تلك المركبات ليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعنى بتطبيق اصطلاحيّ بلاغيّ بعينهِ وترجيح إنما في الآية منه ما هو كذا لا كذا، أو ادراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر لا بل على أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تمثّل الجمال القوليّ في الاسلوب القرآنيّ وتستبين معارف هذا الجمال وتستجلي قسماته في ذوقٍ بارع قد استشف

---

(١) مناهج تجديد / ٣٠٤
(٢) المصدر نفسه/ ١١٠
(٣) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث ، د. عقيد خالد حموديّ، / ١٣٥ .
(٤) مناهج تجديد / ٣١٢

خصائص تركيب العربية منظمًا إلى تلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب الفنية لمعرفة مزاياها الخاصّة بها بين آثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاتهِ فنًا فنًا، وموضوعًا، معرفة تبين خصائص القرآن في كلِّ فنٍ منها ومزاياها التي تجلوا جماله)) [١] .

وعلى هذا يمكن القول: إنَ الخولي قد فتح الباب أمام المُحدَثين الآخرين في نهج هذهِ الطريقة في التفسير وتطبيقها في بحوثٍ خاصة تدخل ضمن دراسات موضوعيّة لموضوعات القرآن الكريم المتعددة والمتشعبة ، فملامح التغيير والتجديد والتطوير في المناهج وخاصةً التفسيرية منها نمت ونضجت على يد شيخ مدرسة الأمناء ، فقد وضع خطوات يسير وفقها المفسر ، وهذه الخطوات نذكرها باختصار كما جاءت في كتاب أصول التفسير ومناهجه [٢]، وهي :

١- أن يجمع المفسر الآيات ذات الموضوع الواحد بعضها إلى بعض ويتدبرها جميعًا ويفسرها .
٢- ان يرتب آيات الموضوع الواحد ترتيبًا زمنيًا حسب تاريخ نزولها .
٣- أن يدرس دراسَّة خاصَّة ما حول النصّ كتأريخهِ وأسباب نزولهِ وجمعه وكتابتهِ وقراءتهِ ونحو ذلك من علوم القرآن .
٤- أن يقدم دراسَّة عامَّة للبيئة التي نزل فيها هذا النص ، البيئة الماديّة المتمثلة في الأرض والسماء والجبال والسهول والأودية، والبيئة المعنويَّة المتمثلة في تاريخ هذهِ الأمة وأعرافها وعاداتها وتقاليدها .
٥- دراسة النصّ القرآني في مفرداتهِ؛ وذلك بدراسة:
أ- استعمالات هذه المفردة لغويًا .
ب- دراسة استعمالاتها في القرآن الكريم ، في مواضع مختلفة ومدلولها في كلِّ موضع .

٦- دراسة النصّ القرآني في معانيهِ المركبة، وذلك عن طريق العلوم الأدبية من نحو وصرف .

هذه الخصائص التي أشرتُ لها هي التي وضعها أمين الخولي ونظَّر لها لسير المفسر نحو التفسير البياني للقرآن، وقد سارت على وَفْقِ هذهِ الخطوات وطبقتها في تفسيرها تلميذته وزوجهُ الدكتورة عائشة عبد الرحمن – المعروفة ببنت الشاطئ – (ت١٤١٩ هـ) وظهر تأثرها بهِ واضحًا جليًا في كتاباتها وخصوصًا كتاباها (التفسير البيانيّ للقرآن الكريم، والأعجاز البيانيّ ومسائل ابن الأزرق) [٣]. وأيضًا طبقه محمد خلف الله أحمد في كتابه (الفن القصصيّ

---

(١) مناهج تجديد / ٣١٤- ٣١٥
(٢) ظ: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط٤، مكتبة التوبة، الرياض ١٤١٩هـ / ١٠٨ – ١٠٩
(٣) بنت الشاطئ من قريب، حسن جبر، ط١، دار الكتاب الحديث ، بيروت ٢٠٠١م / ٢٦٤- ٢٦٧ . ويُنظر: التفسير البياني: بدايات وامتدادات ، د. خولة حاجي / ٢٠٢

في القرآن الكريم) والدكتور شكريّ عيّاد، في كتابهِ (من وصف القرآن- يوم الدين والحساب) وغيرهم .

وعلى الرغم من جهد الشيخ الخولي في ميدان التفسير وما خصَّ به التفسير الموضوعيّ بتلك التسميّة الواضحة، بوصفه خطوة من خطوات التفسير البيانيّ إلا أنه لم يذكر ولم يحدد التفسير الموضوعيّ ! بل تحدث عن المنهج المتبع في هذا النوع من التفسير، وعلى هذا لم يكن الخولي من التطبيقيين في التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم [١]. قال أحمد خليل: ((ولا نكاد نظفر بجديد عنده)) [٢] ويستفاد من كتابه أنه من دعاة المنهج التاريخي في تفسير القرآن الكريم. وبعد البحث والاستقصاء تبين أنه لم يقل ذلك ولم يدع إليه بل كان يدعو إلى التتبع الشامل لقول القرآن في الموضوع الواحد واستقصاء غرضه في المرمى الواحد، على اختلاف تناوله له في الازمنة المتباعدة، والمناسبات المتعددة . وهو يقصد بالأزمنة المتباعدة، الأوقات التي نزلت فيها الآيات القرآنية على مدى (٢٣) سنة وليس القصد من ذلك النظر إلى التفاسير القديمة مرتبة ترتيبًا زمنيًا ، وبالرغم من هذا فإنَّ لأمين الخولي فضيلة السبق، والتنبيه على أهمية التفسير الموضوعيّ في حياتنا المعاصرة، والتأكيد على التجديد في تفسير النص القرآني [٣] .

ولكننا نلمس منهج الشيخ الخولي واضحًا كل الوضوح عندما طبقه في كتاباتهِ لا سيما (من هدي القرآن) و (في أموالهم) حيث نجده يتتبع اللفظ القرآني إلى أن يصل إلى تفسير لغويّ مقنع من خلال عقد مقارنات عدّة، وهذا المنهج كما هو معروف ومشهور عنه طبقته تلميذته – وزوجه فيما بعد- (عائشة عبد الرحمن) بوضوح في كتاباتها ، وكذا طبقه بعضٌ من تلامذته من بعدهِ ، ومن الأمثلة التطبيقية التي نرى فيها ارتباط الالفاظ وتمازجها مع المعنى المراد من أجل الوصول إلى نتيجة واحدة، من خلال الاحتكام للغة والذوق الأدبي الرفيع ، قال تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم**﴾ [٤].

فالذين يشعرون بروعة الفن القولي في القرآن الكريم وروعة اسلوبه وجمال استعماله ، يجدون القرآن يستعمل لفظ (الأخذ) في مواطن متعددة منها :
الأول : يستعمل لفظ الأخذ هذا في الميثاق؛ لأنه موثوق ومربوط ، فيقول: ﴿**أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ**﴾ [٥] ، ويقول: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [٦] ، ويقول: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**﴾ [٧].

---

(١) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ، د. حكمت عبيد الخفاجي / ٥٣
(٢) دراسات في القرآن ، أحمد خليل، ط٣، دار المعارف ، بيروت ١٩٧٧م / ١٤٦ .
(٣) ظ: دروس في أسياسيات منهج التفسير الموضوعيّ/ ٥٣- ٥٤
(٤) التوبة: ١٠٣
(٥) يوسف: ٨٠
(٦) المائدة: ١٢
(٧) البقرة: ٦٣

الثاني: استعمال الأخذ في مواطن القهر والعنف والرهب ، ثم يأتي بالآيات التي تؤيد هذا المعنى ، قال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [١] ، ويقول: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**﴾ ، ويقول: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾، ويقول: ﴿**فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً**﴾ [٢] .

الثالثة: استعمال الأخذ مع التحصيل الجاد المؤكد ، كقوله تعالى: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ**﴾ [٤] وقوله: ﴿**قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ** ﴾ [٥]
الرابعة: التناول الجاد والحازم القويّ، نحسه واضحًا في قوله تعالى: ﴿**وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ...** ﴾ [٦] ، وقال: ﴿**فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ [٧]، فنجد الجد في التناول في هذهِ الآيات [٨] .

ومن تطبيقاته أيضًا للفظ (الإحسان) متتبعًا الإيحاء الفني والسياق اللغوي : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ [٩]، فيذهب الخولي إلى أنَّ استعمال القرآن لهذه المادة (الإحسان) ويُريد منها معنى الكمال والحسن، ثم يستقرأ الآيات لما ذهب إليه: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ [١٠]، و ﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ [١١] و﴿**... يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا**﴾ [١٢]، و ﴿**...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [١٣]. وغيرها من المواضع القرآنية التي طبق فيها منهجية التفسير الموضوعيّ على هذهِ الشاكلة .

وهكذا نرى الاستاذ الخولي يطبق هذا الفهم - تفسير القرآن تفسيرًا موضوعيًّا- في تفسيره على نصـــوص من آيـــات الذكـــر الحكيم وان لم تكن بالكثيرة، وإنما قام بأعبـــاء هذا المنهـــج

---

(١) البقرة : ٥٥
(٢) الحاقّة: ١٠
(٣) البقرة: ٩٣
(٤) الأعراف : ١٤٥
(٥) طه: ٢١
(٦) النساء: ١٠٢
(٧) الرحمن: ٤١
(٨) ظ: من هدي القرآن(في أموالهم) الخولي ، الأعمال الكاملة ، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨م / ٥١-٥٣ ، ويُنظر: المنهج البياني في تفسير القرآن ، د. عقيد خالد حمودي / ١٣٦- ١٣٧
(٩) النحل: ٩٠
(١٠) البقرة: ١٧٨
(١١) البقرة: ٢٢٩
(١٢) النساء ٦٢
(١٣) النساء: ٣٦ ، والبقرة: ٨٣ ، والأنعام: ١٥١ ، والإسراء: ٢٣

وهـذه الفقرة بالذات تلامذته من بعده سواء من أشـرف عليهـم بنفـسه أم اختـياره لموضـوعات طلبـتهِ [١] .

وهناك بعض المقاربات الموضوعيّة لمسائل محددة في القرآن الكريم، ويشتمل كتابه (من هدي القرآن) على ثلاث قراءات مطولة لبعض القضايا الواردة في القرآن، إذ طبَّق منهجيته الأدبية في هذا الكتاب الذي اشتمل على ثلاث دراسات هي:

- القادة والرسل .
- في رمضان .
- في أموالهم .

وهي في الأصل أحاديث إذاعيَّة ألقاها بين عاميّ (١٩٤١م – ١٩٤٢م) ، ثم جعلها بين دفتيَّ ذلك الكتاب، وبعد أن صدَّره بمقدمةٍ لخّص فيها المعالم الاساسية لمنهجه الأدبي، فقد أراد لهذه الأحاديث أن تكون قبساتٍ من نتائج الدراسَّة الأدبية الفنيَّة للقرآن، ثم بين أن التفسير الأدبي أو البياني لا يتم إلا بآلية محددة وهي آلية التفسير الموضوعيّ، وذلك نلمحه بعد أن أعاد تلخيص القسمات الأساسية لهذا المنهج الأدبي، وسرد أهمها ليكون القارئ على بيّنة من خصائصها العقلية، ومميزاتها الأدبية قبل معاينة قراءة هذه الأحاديث على النحو الآتي [٢]:

١- إنَّها تقصد إلى التدبير النفسي والاجتماعيّ في القرآن للحياة الإنسانية، وترى أنَّ هذا هو المجال الخاص للقرآن، وهو السبيل المفردة لتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية، وتأثيرها في الحياة .
٢- إنَّها تعمدُ إلى معاني الآيات القرآنية التي تؤديها ألفاظها العربية المبينة...
٣- إنَّ هذه الأحاديث تتجه إلى تفسير القرآن موضوعات لا سورًا، وأجزاء وقطعًا متصلة على ضربٍ من الترتيب، بل هي تتبع ما يخصُّ موضوعها من آياتٍ في مختلف السور والأجزاء القرآنية؛ لأنَّ (هذا القرآن يُفسِّر بعضهُ بعضًا) .

من ذلك تبيَّن لي أنَّ تفسير الخولي مرَّ بمرحلتين مهمتين قبـل التطبيق ، **المرحلة الأولى :** إشارته إلى التفسير الموضوعـيّ بوضوح وتأكيـده الكبـير عليه ، ووجـدتُ ذلـك واضحًا إذ قال : ((والقرآن كما هو معروف لم يرتب على الموضوعات والمسائل فيفرد كل شيء منها بباب أو فصل يجمع ما ورد فيه عن هذا الموضوع أو تلك المسألة فليس على ترتيب كتب التشريع مع ما فيه من أصول التشريع ولا هو كذلك على نسق كتب الأخلاق أو التاريخ وعلى القصص... كما لم يرتب على شيء من تاريخ ظهور آياتهِ إنما جرى القرآن على غير ذلك كله

---

(١) مؤلفات الخولي في هذا الجانب (الفن البياني في القرآن) و (القسم في القرآن) و اشرافه على رسائل طلبته منها (الفنن القصصي للقرآن الكريم) لمحمد خلف الله أحمد ، و (من وصف القرآن يوم الحساب)لشكري محمد عياد ، و (الأنسان في القرآن) لزوجه بنت الشاطئ ، و (العزة في القرآن الكريم) لأحمد الشرباصي .
(٢) ظ: من هدي القرآن ، الخولي/ ٨

... وهكذا تقرأ في السورة الواحدة فنونًا من القول وتمر بألوان من الأغراض المختلفة تعرض لها سورة أخرى فيتكامل العرضان وتتم الفكرة بتتبــعها في مواطــن وذلك لحــكمة ومــرمى)) [١] . فيمضي الخولي في هذه المرحلة قُدمًا في تجديد نظرية التفسير حين يقترح تفسير القرآن موضوعيًّا، يخالف عن طريقه الأسلاف الذين كانوا يفسرونه على ترتيب سورهِ وآياته [٢]، ((فيبدو للناظر أنَّ تفسيره سورًا وأجزاء لا يمكّنُ من الفهم الدقيق، والأدراك الصحيح لمعانيه، وأغراضهِ إلا إن وقف المفسر عند الموضوع يستكمله في القرآن ويستقصيه احصاءًا فيرد أولــه إلى أخــره، ويفهم لاحقــه بسابقه)) [٣].

ثم ضرب مثلًا لذلك ما نجده في صدرِ سورة البقرة من الحديث عن المؤمنين وأنه لن يفهم الفهم الصحيح إلا إذا قورن بنظيره مما ورد في سورة المؤمنون، في الجزء الثامن عشر من القرآن، ثم عقَّب على هذا المثال ونظائره من القرآن الكريم بقوله: ((وأنت – أرشدك الله – مقدرٌ أن الذي يفهم جملة نصوص خاصّة بموضوع واحد، إنما يصل إلى صحيح معناها ودقيقهِ بمعرفة سابقها ولا حقها، متقدمها ومتأخرها، إذا ما كان الزمن قد تباعد بين تلك النصوص مثل هذا التباعد الزمني الذي بين آي القرآن)) [٤].

إنَّ مجمل رأي الخولي في المرحلة الأولى إنَّ التفسير لا يكون إلا بالأسلوب الموضوعيّ الذي يجمع الآيات ذات الموضوع الواحد من أماكنها المتفرقة وينظر إليها نظرة واحدة، وبهذا يكون الفهم الصحيح ((... وقصّة آدم في البقرة إنما تُفسَّر مع ما ورد عنها في سورة الأعراف والحجر والكهف وغيرها)) [٥] ، وعلى هذا الأساس تكون هذه المرحلة هي الخطوة الأولى والأهم التي يجب أن يخطوها المفسر البياني كما يراها أمين الخولي .

أما المرحلة الثانية: فهي اشارته إلى الترتيب الزمني للآيات ذات الموضوع الواحد ، ويقصدُ بها أن المفسر بعد أن يجمع آيات الموضوع الواحد يجب أن يخطو الخطوة الثانية فيرتب هذهِ الآيات حسب ترتيب نزولها ، وقد أكد الخولي على هذا حين قــال: ((وترتيب القرآن لم يرع شيئًا ممن تقدم الزمن وتأخر فمكيهِ يتخلل مدنيه ويحيط بهِ ومدنيه يتخلل مكيه ويحيط بهِ، وهكذا نرى من النظر في ترتيب القرآن على سورهِ أي: ترتيب ما كان في المصاحف المختلفة ما لا يساير حاجات مفسره المتفهم له بل يقضي ما كان من أمر الترتيب بالنظرِ الجديد والترتيب الخاص لآي الموضوع بحيث يكشف هذا الترتيب لنا النواحي التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر إلى مراعاتها وتقديرها توصلًا إلى الفهم الصحيح والمعنى الدقيق)) [٦]، فهو يرى وجوب ترتيب آي الموضوع الواحد ترتيبًا خاصًا بحيث يكشف هذا الترتيب عن النواحي التي

---

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم / ٣٥ ، ويُنظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق / ٦٣ ، ويُنظر: المنهج البياني في تفسير القرآن ، د. عقيد خالد حمودي / ١٥٢

(٢) ظ: أدبية النص القرآني، عمر حسن القيّام / ٤٩

(٣) مناهج تجديد / ٣٠٥

(٤) المصدر نفسه / ٣٠٥- ٣٠٦ .

(٥) المصدر نفسه / ٣٠٦

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

يحتاجها المفسر للوصول إلى الفهم الصحيح ثم أجمل الخولي القول في المرحلتين السابقتين [١]: ((فجملة القول أنَّ ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقًا وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به مطلقًا ...)) [٢].

كان الخولي واعيًا بدوره الطليعيّ ، ومكتحلًا بالذكاء والمعرفة، وواثقًا بقدرته على تجديد القراءة القرآنية، ومن هنا جاء تأسيسه لجماعة الأمناء، هذه المدرسة العلمية التي ضمَّت نخبة مميزة من الدارسين، اللذين كان لهم أثر كبير في تطبيق ما جاء به الخولي، يأتي في طليعتهم (عائشة عبد الرحمن ، محمد خلف أحمد، شكري عيّاد) وقد أسهم كل واحد منهم إسهامًا ملحوظًا في نظرية التفسير المعاصرة .

المطلب الثاني: إِرْساء مصطلح التفسير الموضوعيّ عند عائشة عبد الرحمن

أولًا: حياتها:

ولدت في مدينة دمياط بشمال دلتا مصر في منتصف نوفمبر عام ١٩١٣م، ابنة لعالم أزهري، وحفيدة لأجداد من علماء الأزهر وروَّاده، وتفتحت مداركها على جلسات الفقه والأدب، وتعلمت وفقًا للتقاليد الصارمة لتعليم النساء وقتئذٍ في المنزل، وفي مدارس القرآن (الكُتَّاب).

وكانت تكتب مقالاتها باسم مستعار؛ فاختارت لقب بنت الشاطئ لأنه كان ينتمي إلى حياتها الأولى على شواطئ دمياط والتي ولدت بها، حتى توثق العلاقة بينها وبين القراء وبين مقالاتها والتي كانت تكتبها في جريدة الأهرام وخوفًا من إثارة حفيظة والدها كانت توقع باسم بنت الشاطئ أي شاطئ دمياط الذي عشقته في طفولتها.

ومن المنزل حصلت على شهادة الكفاءة للمعلمات عام ١٩٢٩م بترتيب الأولى على القطر المصري كله، ثم الشهادة الثانوية عام ١٩٣١م، والتحقت بجامعة القاهرة لتتخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٣٩م، ثم تنال درجة الماجستير عام ١٩٤١م، وقد تزوجت أستاذها بالجامعة الأستاذ أمين الخولي أحد قمم الفكر والثقافة في مصر حينئذٍ، وصاحب الصالون الأدبي والفكري الشهير بـ (مدرسة الأمناء)، وأنجبت منه ثلاثة أبناء وهي تواصل مسيرتها العلمية لتنال رسالة الدكتوراه عام ١٩٥٠م، ويناقشها عميد الأدب العربي د. طه حسين [٣].

---

(١) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن، د. عقيد خالد حمودي / ١٥٤

(٢) مناهج تجديد/ ٣٠٦

(٣) ظ: موقع إسلام أون لاين، الرابط http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mashaheer-10.asp :

وتــوفيت رحمــها الله تعالى عن عمر يناهز ٨٦ بسكتة قلبية في يوم الثلاثاء ١١ شعبان ١٤١٩هـ [١].

ثانيًا: أعمالها ومؤلفاتها:

تركت بنت الشاطئ وراءها ما يربو على الأربعين كتابًا في الدراسات الإسلامية والأدبية والفقهيّة والتاريخية؛ فلها مؤلفات في الدراسات القرآنية والإسلامية أهمها:

١- الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق .
٢- التفسير البياني للقرآن الكريم.
٣- تراجم سيدات بيت النبوة.
٤- الشخصية الاسلامية، دراسة قرآنية .
٥- القرآن وقضايا الإنسان.

كذا تحقيق الكثير من النصوص والوثائق والمخطوطات، ولها دراسات لغوية وأدبية وتاريخية أبرزها:

١- رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.
٢- الخنساء الشاعرة العربية الأولى .
٣- مقدمة في المنهج وقيّم جديدة للأدب العربي .
٤- تحقيق رسالة الصاهل والشاحج .

ولها أعمال أدبية وروائية أشهرها:

- على الجسر.. سيرة ذاتية، سجلت فيه طرفا من سيرتها الذاتية، وكتبته بعد وفاة زوجها أمين الخولي بأسلوبها الأدبي.
- كتاب «بطلة كربلاء»، وهو عن السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، وما عانته في واقعة عاشوراء في سنة ٦١ بعد الهجرة، ومقتل أخيها الحسين بن علي بن أبي طالب، والأسر الذي تعرضت له بعد ذلك.

ومن مؤلفاتها أيضًا : ((بنات النبي، سكينة بنت الحسين ، مع المصطفى مقال في الانسان ، نساء النبي ،أم الرسول محمد آمنة بنت وهب، أعداء البشر ، أرض المعجزات))

---

(١) ظ: مجلة المعيار، مجلد : ٢٣، عدد ٤٥ لسنة ٢٠١٩م / ٣- ٥

ثالثًا : لقاءها بأستاذها الخولي وانتهاج منهجه :

في ذكرى مولدها في السادس من نوفمبر عام ١٩٣٦م تقول: ((... ثم انتهى بي التخصص إلى دراسة النصّ القرآنيّ على منهج أستاذي وظل الأستاذ لمدة ثلث قرن يقود خطاي على الطريق الشاق، ويحميني من عثرة الرأي ومزالق التأويل وسطحية النظر، ويأخذني بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذي لا يجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها في الكتاب المحكم، ولا أن نتناول موضوعًا قرآنيًا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية، دون استيعاب لنظائرها وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كله ...))[١] .

إنَّ ما قام بهِ أمين الخولي من عملٍ في التفسير والذي اتَّجه نحو التخصص في (منهج التفسير الأدبي) يعدُّ الأول في صيرورة فهم تفسير الموضوعيّ، وكان له الفضل الأكبر في رسم المنهاج أمام المحدثين الأخرين في تطبيقه والعمل فيه، وهذا ما رأيناه في كتاب (**التفسير البياني للقرآن الكريم**) للدكتورة عائشة عبد الرحمن ، إذ ذكرت في مقدمة تفسيرها وقالت: ((إنَّ المنهج البيانيَّ هو موضوع محاضراتي في كلية الشريعة، والمنهج قد شرحه أستاذنا الدكتور "أمين الخولي" في كتابهِ الجليل)) [٢].

فالمنج الأساس المعتمد عندها هو (البياني) وهي تصرح بذلك بوضوح ، من ذلك بدا لي بأنَّ منهج التفسير الموضوعيّ لم ينضج عندها ولكنها أكدت عليه وجعلته الأساس في موضوع محاضراتها البيانيَّة ، وهذا ما سنراه في منهاجها المعتمد .

أكدت عائشة عبد الرحمن أنَّ استاذها أمين الخولي لم يرضَ لها أن تخطو الخطوة الأولى في طريق دراسة النص القرآني، إلا بعد أن تتزود بالمعرفة العلمية التي تؤهلها للنظر في كتاب العربية الأكبر [٣].

رابعًا : منهجها المتبع في التفسير :

ذكرت الدكتورة بعد ذلك ضوابط كتابة تفسيرها، ويتضح لنا من الضابط الأول صيرورة مصطلح التفسير الموضوعي ونضوجه غير الكامل في تفسيرها، أو الإشارات الأولى له ، قالت: ((الأصل في المنهج التناول الموضوعيّ لما يراد فهمه من كتاب الاسلام، ويبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سورٍ وآيات في الموضوع المدروس)) [٤].

---

(١) التكوين، حياة المفكرين والأدباء والفنانين بأقلامهم ، مكرم محمد أحمد ، سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال، ط١، دار الهلال، عمان ١٩١٥ م / ٢٦٣

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم، ط٢، دار المعارف، بيروت (د.ت) : ١ / ١٠

(٣) أنجزت عائشة عبد الرحمن دراسة عن (رسالة الغفران) لأبي علاء المعري في مرحلة الماجستير، ثم سعتْ إلى تحقيق (رسالة الغفران) في مرحلة الدكتوراه ، يُنظر: التكوين، حياة المفكرين والأدباء والفنانين بأقلامهم ، دار الهلال / ٢٦٣

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٠ .

ويبدو لي أنَّ التناول الموضوعيّ الذي تتحدث عنه عائشة عبد الرحمن هو محور المنهج البيانيَّ لتفسير القرآن وجوهرهِ ، بلحاظ أنَّهُ الأمارة الواضحة والعلامة الدَّالة على ملاكِ هذا المنهج وشعارهِ .

من هنا فهو من أهم خُطُوات المنهج البيانيّ والأصل الذي يُعتمدُ عليه هذا المنهج في مساراتهِ ودروبهِ البيانيَّة .

في هذا الكتاب تحاول بهِ المؤلفة أن تنهج بالنصّ القرآني منهج التفسير الأدبي، كما كان استاذها أمين الخولي يفعل مع طلبتهِ في الجامعة. وكما كان يحاول مصطفى صادق الرافعي في دراسة الإعجاز، فقالت: ((ولم أنس محاولة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في أعجاز القرآن، والحديث عن قيمتها يأتي في مدخل كتابي "الأعجاز البياني"))[١].

ثُمَّ انتهت الدكتورة بالقول: ((والأصل في منهج هذا التفسير- كما تلقيتهُ من أُستاذي – هو التناول الموضوعيّ الذي يفرغ لدارسة الموضوع الواحد فيهِ، فيجمع كل ما في القرآن منهُ، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك... وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيهِ، مقتطعًا من سياقه العام في القرآن كله، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية للألفاظ، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانيّة))[٢].

وهذا بطبيعة الحال اجتهاد واختيار، وهي تحاول تطبيقه في تفسير بعض السُّور القصار، الملحوظ فيها وحدة الموضوع. فضلًا عن كونها جميعًا من السور المكية ، من جهة العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلاميّة.

في ظل ما سبق فإنَّ هذا التفسير لا يشمل القرآن كله إنما يشملُ الجزء الأول منه كلًا من سورة : (الضحى، الشرح، الزلزلة، النازعات، العاديات، البلد، التكاثر)، كما يشمل في الجزء الثاني منه سورة : (العلق، القلم، العصر، الليل، الفجر، الهمزة، الماعون) .

بيد أنَّ اقتصارها على قصار السور قد جعلها قريبة جدًا من التفسير الموضوعيّ؛ لأن هناك وحدة موضوعيّة ملحوظة في كلِّ سورةٍ على حدةٍ إلى حدٍ ما، وهذا الأمر كما ذكرنا قد تنبهت إليه عائشة عبد الرحمن في طالعة كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم) فضلًا عما يُتيحهُ تفسير السور القصيرة من ((مجالات أخرى أمام المفسر قد تختلف عن الدراسة الموضوعيّة، ومن ذلك مثلًا مسألة المناسبة بين الآيات، وملاحظة السياق في السورة الواحدة، وهكذا يمكن أن يقال: إنَّ المؤلفة

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم : ١ / ١٤
(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٧- ١٨

في تفسيرها لهذه السور القصار قد جمعت بين التحديد الموضوعيّ وبين التناول الأدبي للسورة كلها))[١].

ونلمحُ أنَّ عائشة في ضوءِ تطبيقِ منهجها البيانيَّ للنصِّ القرآني تتنــاول آراء بعض المفسريــن منــهم (الطبري، النيسابوري، الزمخشري، والرّازي، وغيرهم) كما تهتم بما كتبه الشيخ محمد عبدة في الجزء المسمى بتفسير (عمَّ) وفي اثناء تناول آراء هؤلاء وغيرهم، تجتهد في إيراد ما وصلت إليهِ من تحديد وتوضيح للدلالة القرآنية الراجعة إلــى الكلمــات والتراكيــب والأساليب [٢].

ولا بدَّ من القول : إنَّ عائشة عبد الرحمن قد اتَّبعت مجموعة من القواعد والآليَّات في تحليل النصّ القرآني بيانيًّا وسارت على وَفْقِها ، وهي:

الأولى: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

تناولت المؤلفة ذلك في تفسيرها البيانيّ في مقدمة سورة العصر ، إذ قالت : ((إنَّ المرويات في أسباب النزول موضع اعتبار في فَهْمِ الظروف التي لابست نزول الآية مع تقدير أنَّ الصحابة اللذين عاصروا نزولها ورويت عنهم أقوال فيها، ربطها كل منهم بما وهم أو فهم أنه السبب في نزولها وهذا هو معنى قول علماء القرآن إنَّ المرويات في أسباب النزول يكثر فيها الوهم)) [٣].

ومن تطبيقاتها لهذا الأصل، فهي تورد سبب النزول ثم تعلق عليهِ بقاعدة الأصوليّين هذه، وتعلق عليه، ومثل ذلك ما قالته في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [٤]. قالت: ((وللمفسرين في الأنسان قولان: إنه لعموم الجنس، أو أنَّ (أل) للعهد مرادًا بالإنسان جماعة من المشركين : الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب... وفي خبر مرفوع أنها نزلت في أبي جهل... ولا نقف عندما اختلفوا عليهِ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيهِ الآية، والسياق ظاهره لا يخص الإنسان بفلان أو بآخر والتعميم فيه مُفاد صراحة من الأطلاق ثم استثناء : ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [٥]،وهذا الاستثناء ينقطع إذا ما كان الإنسان خاصًّا بالمعهودين الذين ذكروهم، وليس فيهم مَنْ يخرج بالاستثناء مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإنما استثنى الذين آمنوا من الإنسان، لأن الإنسان بمعنى الجــمع لا بمعنــى الواحد)) [٦]. وفي تفسيرها مثل هذا كثير [٧].

---

(١) الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث، عفَّت شرقاوي ،ط٢، دار احياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م / ٣٤٠، وينظر أيضًا: أدبية النص القرآني، بحث في نظرية التفسير ، عمر حسن القيَّام / ٧١

(٢) ظ: معجم تفاسير القرآن الكريم، د. عبد الوهاب التازي سعود، و د. محمد الكتاني ، ط١، دار التقريب بين المذاهب الاسلاميّة، بيروت ١٤٢٤هـ : ١ / ٢١٥

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم : ٢ / ٧٣ .

(٤) العصر: ٢

(٥) العصر: ٣

(٦) التفسير البياني للقرآن الكريم: ٢ / ٨٠- ٨١

(٧) ظ: المصدر نفسه : ١ / ٣٦، ٣٧، ٥٩، ١٠٧، ١٥١، ، ويُنظر: ٢/ ١٦ ، ٣٩ .

الثانية: استقراء اللفظ القرآنيّ في مواضع وروده جميعًا :

وقد وضحت هذا الأصل في مقدمة تفسيرها؛ إذ قالت عنه: ((والمنهج المتبع هنا هو الذي خضعت له فيما قدمت من قبل بضوابطه الصارمة التي تأخذنا باستقراء اللفظ القرآني في كلِّ مواضع وروده للوصولِ إلى الدلالة ، وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، ثم سياقها العام في المصحف كله، التماسًا لسرّها البيانيَّ، وإذ نضع معجمات العربية وكتب التفسير في خدمة هذا المنهج فإننا نحاول أن ندرك حس العربية للألفاظ التي نتدبرها من النص القرآني على طريق لمح الدلالة المشتركة في شتى وجوه استعمالها لكل لفظ، وواضح أنَّه لا سبيل إلى دراسة أي نص في لغة ما دون فقه لألفاظه في لغته ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية أو يضيف إليها ملحظًا ينفرد بهِ)) [١].

ثم توضح بعد ذلك أن القول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية لا يعني تخطئة سائر الدلالات المعجمية وإنما يعني أنَّ لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه المعجز فلا يعترض معترض بأنَّ العربية تعرف صيغًا ودلالات أخرى للكلمة [٢].

ومن الجانب التطبيقي الذي اتبعته في هذا الأصل، هي حين تدرس كلمة قرآنية تحاول أن تستجمع نظائرها من القرآن كله، فتبذل وسعها في استقراء معانيها في القرآن ومدلولها حتى تصل بحسب فهمها إلى نتيجة محددة وترى أنهُ الصواب فما توصلت إليهِ ، ففي حديثها عن (الساعة) في قولهِ تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾ [٣] ، ولفظ الساعة في العربية يعني الجزء من الوقت وأضيف إليهِ حديثًا استعمالها في جزء محدد منه بستين دقيقة،

ويستعمل معرفًا بـ(ال) للعهد في الوقت الحاضر، فيقال: أزورك الساعة، أي: الآن، ثم غلب على الساعة استعمالها في الآلة الضابطة للوقت بعد اختراعها لكن للقرآن استعماله الخاص للساعة فهو لا يستعملها نكرة إلا في برهة من الوقت قصيرة دون تحديد لها بالدقائق والثواني . ثمَّ تستقرأ الدكتورة لما ذهبت إليهِ بالآيات المباركة :

قال تعالى: ﴿**يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾ [٤]، ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً**ۖ**وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [٥]، ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ**﴾ [٦]، ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ**﴾ [٧] .

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم : ٢ / ٧- ٨
(٢) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث / ١٩١
(٣) النازعات: ٤٢
(٤) الروم: ٥٥
(٥) النحل: ٦١
(٦) يونس: ٤٥
(٧) الأحقاف: ٣٥

أما حين يستعمل القرآن "الساعة" معرفة بـ: ال، فتلك - دائمًا - هي ساعة الآخرة، لم يتخلف هذا في أي موضع من المواضع الأربعين التي جاءت "الساعة" فيها في القرآن الكريم، بدلالتها الإسلامية في المصطلح الديني.

والملحظ البيانيّ في هذا الاستعمال المطرد، أن هذه "الساعة" تنفرد دون ساعات الزمان كله، بأنها الحاسمة الفاصلة التي يتغير فيها نظام الزمن وسير الكون، لما يحدث فيها من حدث هائل خطير. وهو معنى يقوى ويتضح، بإسناد القيام، والإتيان، والمجيء، إلى هذه الساعة المتميزة الحاسمة، دلالة على بروزها وشخوصها وفاعليتها: قال تعالى: **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾** [١] ، **﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾** [٢].

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٣]، **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾** [٤] ، **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾** [٥] ، **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾** [٦]، **﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾** [٧] .

ثم تقول: ((وفي السؤال ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ؟ إنكار واستبعاد ، فما قصد السائلون إلا أن يحرجوا الرسول عليه الصلاة والسلام بسؤالهم: (أَيَّانَ مُرْسَاهَا) ؟ على الاستبعاد والجَحْد والإنكار. ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾. وعن عمد، صرف القرآن عن السؤال عن مرسى الساعة ومستقرها وأوانها؛ لأن الله تعالى قد استأثر بعلمها، فإليه وحده منتهاه، على وجه القصر الصريح بالتقديم والتأخير في الآية: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ لا إلى غيره: ونظيره ما في آيات:﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾** [٨] ، **﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** [٩]، **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾**[١٠]. عنده وحده علم الساعة، وإليه وحده مردها ومنتهاها، ففيم أنت من ذكراها يا محمد، والله استأثر بعلمها، لم يؤته أحدًا من خلقه!))[١١].

---

(١) الأنعام : ٣١
(٢) الأنعام: ٤٠
(٣) يوسف: ١٠٧، والحج٥٥ . والزخرف: ٦٦ ، ومحمد : ١٨
(٤) الروم: ١٢ ، و طه : ١٥ ، و الجاثية : ٣٧
(٥) سبأ: ٣
(٦) القمر: ١
(٧) الكهف: ٣٦، و فصلت: ٥٠ ، يُنظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٥٩- ١٦٠
(٨) الأحزاب: ٦٣
(٩) فصلت: ٤٧
(١٠) لقمان: ٣٤ ، والزخرف: ٨٥
(١١) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٦٠

ومن استقرائها للفظ (اليتيم) في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ**﴾ [١] ، في هذا الموضع أوردت أقوال المفسرين في ايراد معنى اليتيم قالت: ((ففي اليتم والإيواء، قال "الرازي": إنه من قولهم درة يتيمة، والمعنى: ألم يجدك واحدًا في قريش عديم النظير، فآواك أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب، وقرئ: فأوى - بالتخفيف، أي رحم. ويقول الزمخشري، محقًّا: "إن تفسير يتيم هنا بالدرة اليتيمة، من بدع التفاسير" وإنما اليتم عنده فقدان الأب، ومثله أبو حيان في البحر، وقال: "الراغب" في المفردات: اليتم - في آية الضحى - إنقطاع الصبي من أبيه قبل بلوغه)) [٢].

وبعد إيرادها لتلك الأقوال، ذهبت في الاحتكام للقرآن الكريم ، فقالت: ((والقرآن استعمل اليتم، مفرداً ومثنى وجمعًا، ثلاثًا وعشرين مرة، كلها بمعنى اليتم الذي هو فقدان الأب، ويلحظ فيه اقتران اليتم بالمسكنة في أحد عشر موضعًا [٣])) [٤].

كما ذكر فيه من آثار اليتم: الجور، وأكل المال، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [٥].

وعدم الإكرام : ﴿**كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ**﴾ [٦]،والدع. الذي هو الدفع العنيف مع جفوة: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [٧]. والقهر في آية الضحى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾ [٨].

بعدها تختم الدكتورة حديثها بالقول: ((وأمام هذا التتبع، لا نملك إلا أن نستبعد تفسير اليتم بغير ذاك الذي في القرآن، وقد ولد محمد يتيمًا، ثم تضاعف يتمه بموت أمه وجده، لكنه تعالى نجاه من آثار اليتم التي هي بشواهد من آيات الكتاب الكريم: الدع والقهر، والانكسار والجور. مما كان مظنه أن يكسر نفسه. فذلك هو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ترشيحًا بهذا الإيواء الإلهي - غير المقيد بمتعلق - إلى ما بعده من نعمة الهداية بعد حيرة وضلال، وتهيئة لحمل الرسالة الكبرى)) [٩] ، ((وقد جاء الفعل من (آوَى) في القرآن، أربع عشرة مرة، لا يخطئ الحس فيها جميعاً معنى المأمن والحمى والملاذ، إما حقيقة، وإما على سبيل الرجاء)) [١٠].

ومن هذا فإنها ترفض ما ذهب إليهِ الرَّازي في تفسيره لليتيم وهو فقدان الأب . وغير ذلك من المواضع والألفاظ القرآنية التي بينتها على هذه الشاكلة كثير؛ ومنه تبين لي بأنَّ الدكتورة

---

(١) الضحى: ٦
(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ٤٢
(٣) البقرة: ٨٣- ١٧٧ – ٢١٥، والنساء: ٨- ٣٥ ، والأنفال: ٤١ ، والحشر: ٧، والدهر: ٨، والفجر: ١٧ ، والبلد: ١٥، والماعون: ٢
(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ٤٣
(٥) النساء: ١٠، والأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٤ ، والنساء ٢- ٥
(٦) الفجر: ١٧
(٧) الماعون: ١- ٢- ٣
(٨) الضحى: ٩
(٩) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/ ٤٣
(١٠) المصدر نفسه والصفحة

عائشة عبد الرحمن قد وصلت إلى مرحلة متقدمة في تطبيق منهج التفسير الموضوعيّ الذي يعتني باللفظ الواحد من أجل الوصول إلى الغاية المرادة ، أو إلى نتيجة معينة خاصة بالموضوع التي تتحدث عنه، فقد اعتنت بهذا الأصل عناية كبيرة جدًا فجاء تفسيرها محتويًا على معجم خاص للألفاظ التي تناولتها بالتفسير .

وقد تنبه عفَّت الشرقاويّ على ظاهرة التفاوت في طبيعة المعالجة النقدية التي تبلورت على يديها للنصّ القرآنيّ، فهي ترتفع بقراءتها في بعض الأحيان لتكون خيرة الجهود في التفسير الحديث، ومن مِثل تأملاتها العميقة في سورة (العلق) وقدرتها على التموضع في لحظة المتلقيّ الأول للقرآن الكريم، ناهيك عن صبرها الجميل في تتبع دلالات الألفاظ القرآنية في سياقاتها المختلفة، والتمييز بين الاستعمال المعجميّ للألفاظ واستعمالها في السياق القرآني، مع ما يرافق هذه اللحظات الذكية من مشاعر الزهو والاعتداد الملحوظ في الذات، والغَمزِ في جهود المفسرين القدامى، الذين لم يتفطَّنوا لما تفطَّنت إليه عائشة عبد الرحمن، حتى إذا استنفذت هذه القوة النقدية عادت إلى تراث القدماء في التفسير، وتقديم آراء لا تعدو كونها اختيارًا لوجهٍ من وجوه التفسير الموروثة [١] .

الثالثة: التدبر الواعي لدلالة السياق:

للسياق حضور وأيما حضور في مجال تفسير النصوص القرآنية، وهو خطوة مهمَّة من قبل المُفسِّر نحو تفسير سليم لكتاب الله تعالى، فيعدُّ السياق من القواعد والقرائن المهمة التي وقف جُلُّ المفسرين على دورهِ المميَّز، جنحتْ عائشة عبد الرحمن في الاحتكام لسياق النصّ في الكتاب المحكم لفَهْمِ أسرار التعبير فيه، مع الأخذ بمجمل أقوال المفسرين وانتقاء ما يتقبله النصّ بعيدًا عن شطط التأويل واعتساف الملحظ.

ومن تطبيقاتها في هذا الأصل هو حديثها عن معنى (كبد) في قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [٢]، فهي تدرج أقوال المفسرين لما ذهبوا إليه ، وترفض لما ذكروه من (مشاق الحمل، والنمو، والعيش، والموت، والحساب) واستبعدت أن يكون "الكبد" في هذه الآية هو مرض القلب وفاد الباطن، كما ذهب إلى هذا الزمخشريّ، ورجحت من أن يكون الكبد هو ((ما هيئ له إنسان بفطرتهِ من احتمالِ المسؤوليَّة ومشقة الاختيَّار بين الخير والشَّر))، ثم تعلل ذلك محتجَّة بدلالة السياق : ((ووجه ارتباطه بالقسم قبله - بحال أهل مكة وما اختاروا لأنفسهم من استحلال أذى الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" وهو مقيم بالبلد الحرام - واضح ظاهر. وهو أوضح ارتباطاً بالآيات بعد. من ضلال الغرور بهذا الإنسان الذي وهب الله له وسائل الإدراك والتمييز. وبين له معالم الطريقين: الخير والشر)) [٣] .

---

(١) ظ: الفكر الديني في مواجهة العصر / ٣٤٠ – ٣٤١ ، ويُنظر: أدبية النص القرآني / ٧١

(٢) البلد : ٤

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٧٩ – ١٨٠

وقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ بدلًا من: جعلنا، إشارة إلى أن الإنسان مخلوق بفطرته لهذه المكابدة، على ما فهمناها من معاناة المسؤولية وأمانة التكليف، والابتلاء بالشر أو الخير، دون حاجة إلى ما أثاره المجبرة أو المعتزلة من كلام في المسؤولية والجزاء. ثم تأتي بعد هذا، مبينة الكبد الذي خلق فيه الإنسان، موضحة ما هيئ له من وسائل الهدى والتمييز [١]. ومثل ذلك كثير في تفسيرها . وعلى هذا اتّخذت من خلال هذا الأصل أنَّ القرآن هـو القـاعدة : ((نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصًّا وروحًا، ونعرض عليهِ أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص، ونتحاشى ما أقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية وبدع التأويل)) [٢]، فهي رفضت وردَّت كثيرًا من أقوال المفسرين التي توافق قواعد النحو وتخالف قواعد القرآن الأسلوبية، وعدَّت القرآن الكريم هو القاعدة الأساس.

الرابعة : التناول الموضوعيّ الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد :

اعتمدت الدكتورة عائشة عبد الرحمن عند تفسيرها للقرآن الكريم علي الوَحْدة العضويَّة الكاملة؛ لأنها نظرت إلي القرآن الكريم بوصفهِ منهجًا إلهيًّا متصلًا وأرجعت الضرورة عند تناول كتاب الله – القرآن الكريم – بالدراسَّة إلى جمع كلّ ما فيه من آيات و سور في الموضوع المعني بالدراسة، فالتناول الموضوعيّ عندها منزلة أولى بل عدته في مقدمة تفسيرها والأصل الذي يقوم عليه المنهج في التفسير، فقالت : ((والأصل في منهج هذا التفسير كما تلقيته عن أستاذي هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه فيجمع كل ما في القرآن منه و يهتدي بمألوف استعماله للألفاظ و الأساليب و تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك)) [٣]، وقد أخذت الدكتورة تطبيق هذا المنهج ((في تفسير بعض سور قصار ملحوظ فيها وحدة الموضوع)) [٤]، لكنها لم تلتزم بهذا الأصل الذي دعت إليه في بعض الأحيان، وقد سجل مخالفتها لهذا الدكتور عفَّت الشرقاوي ومن بعده الدكتور محمد إبراهيم شريف، فقال الأول: ((ولقد نلاحظ ان المؤلفة قد خالفت استاذها فلم ترتبط بفكرة الموضوع التي طالت دعوته اليها ولو فعلت لكان امامها فسحة من الدراسات المنتجة الخصبة؛ ذلك أنَّ التحديد الموضوعيّ يسعف على تنبيه دقيق على الدلالات المستخدمة في الموضوع وعلى ايه حال فأن المؤلفة فسرت هذه السور القصار، فلم تبعد كثيرًا عن التفسير الموضوعيّ لأن الوحدة الموضوعية ملحوظة في كل سورة على حدٍ ما، وزيادة على ذلك فإنَّ تفسير السور يفتح مجالات اخرى امام المفسر قد تختلف عن الدراسات الموضوعية، ومن ذلك

---

(١) ظ: التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٧٩ – ١٨٠
(٢) المصدر نفسه مقدمة الكتاب: ١ / ١١.
(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٧
(٤) المصدر نفسه : ١ / ١٨

مثلا مسألة المناسبة بين الآيات وملاحظة السياق في السورة الواحدة)) [١]، ونقل الثاني عن الأول النص نفسه [٢] .

ومن تطبيقاتها في هذا الاصل عن صيغة (شديد) في القرآن الكريم فجاءت في القرآن في نحو أربعين موضوعًا مضافًا لعذاب الله او بطشهِ واخذه وعقابه في الآخرة، او وصفًا لهذا البطش والأخذ والعذاب في مقام الزجر والوعيد فيمثل قوله تعالـى: ﴿**أَنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ** ﴾ [٣] ،﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ [٤].

وجاءت مرة وصفًا للحديد في قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**﴾ [٥]، ومرة على لسان هود (عليه السلام) إذ قال لقومهِ :﴿ **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [٦]،

لاحظتُ أنَّ الدكتورة تتناول مجموع الآيات حتى تصل الى موضوعٍ واحد تظهر فيه دقته البيانية، وهذا من صلب الإعجاز البياني .

خامسًا: رفض التفسير الذي تناول القرآن سورة سورة :

هذا الأصل يُعَدُّ السبب الرئيس لاختيارها السور القصار في تفسيرها؛ لأنَّ التفسير الذي تناول القرآن سورة سورة يجعل اللفظ مقتطعًا من سياقه العام، فهذا الأصل تناسب مع الموضوع الذي تعرض له انطلاقًا من تناسب المعاني في هذا الترابط ، ونرى ذلك من خلال تناولها لآية من سورة العصر : ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [٧]. إذ تقرّرُ أن هذهِ السورة مسؤولية الإنسان الاجتماعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وربطت هذه السورة بآيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [٨]، وكقوله تعالى: ﴿**الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [٩]، ثم تعرض في مقابلة هذهِ الآيات مع سورٍ أخرى ، كقوله تعالى:﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [١٠]،

([١]) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث / ٣١٧ .
([٢]) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث / ٢١٥ ، ويُنظر: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر / ٥٩٧
([٣]) البقرة من الآية: ١٩٦ ، و٢١١، وآل عمران: ٤ – ١١ ، والمائدة: ٢- ٩٨ ، والأنعام: ١٢٤، والأنفال: ١٣- ٢٥- ٤٨- ٥٢
([٤]) البروج: ١٢
([٥]) الحديد: ٢٥
([٦]) هود: ٨٠ ، ويُنظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ١٦١- ١٦٢
([٧]) العصر: ٣
([٨]) آل عمران: ١١٠
([٩]) التوبة: ١١٢
([١٠]) المائدة: ٧٨- ٧٩

وقوله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [١]، وبعد أن تنتهي من هذه المقابلة تقف موضحة اهتمامها بالوَحْدة الموضوعيَّة ورفضها للتفسير المتقطع، وهذه من الملاحظ البيانية في هذه السور ((هذا القصر ملحوظ فيه قوة الجزم بما يلقي في نفس السامع من جديَّة الموقف الحاسم وخطره بحيث لا يحتمل الإطالة والتأني)) [٢] وهي تؤكد الوَحْدة الموضوعيَّة مثلما سار عليها أستاذها أمين الخولي، ومن قبل أستاذها محمد عَبْدُهُ ومدرسة التفسير على أساس ((البحث من الناحية الموضوعية اللغوية)) وقد سارت على منهج أستاذها الخولي – رحمه الله تعالى- فتجد هناك توافقًا وتلاؤمًا من حيث الوَحْدة العضويَّة والتفسير الموضوعيَّ والتقابلُ في الأفكارِ كيفَ لا وهي تلميذته المخلصة والمطبّقة لمنهجه التجديدي الذي دعا إليه والذي أنعكس في تفسيرها [٣].

وعلى الرغم من تصوِّرها الباصر وفَهْمها الواعي والمهم في تناول هذهِ الخطوة المحوريَّة والجوهريّة في تفسيـر النصّ القرآني تفسيـرًا بيانيًّا الذي اتّبعتهُ وسارت على وفقهِ ودعتْ إليهِ كذلك ، إلّا أنَّ هناك بعض المآخذ التي ذُكِرتْ في اجرائها وتطبيقها، منها:

١- القصور في الاستقراء لبعض الألفاظ القرآنية، لذلك جعلناها ضمن مرحلة قبل النضوج؛ لأنها لم تقصد التفسير الموضوعيّ بقدر ما أرادت أن تشي بمدلولاتها البيّانيَّة .

٢- تحديد المعني قبل الاستقراء اللغوي.

٣- اعتدادها برأيها دون غيرها من المفسرين، وهذا ما جعل حكمها في بعض الأحيان غير مصيب، وجزمها بصحة ما توصلت إليه ؛ لأنها اختصت باللغة والأدب وليس بعلوم القرآن والتفسير .

٥- إنَّها تقلل من شأن المفسرين السابقين وتفسيرهم لبعض الألفاظ، إذ يقول الدكتور غفَّت الشرقاوي: ((ولكن ما يلفت النظر في منهج المؤلفة حملتها السافرة على قدامى المفسرين واعتدادها الشديد فيما تحقق من نتائج)) [٤].

٦- الإدّلاء بآراء قاطّعة ومحكمة في تبيّان كثير من دلالات الألفاظ القرآنيّة وهو أمرٌ غير محمود في الدرس التفسيريّ، فالسياق وغيرها من القرائن قَدْ تشي بدلالات أخرى والقطعيّة لا مبرر لها .

([١]) التوبة: ٦٧
([٢]) التفسير البياني للقرآن الكريم : ١ / ٧٩
([٣]) ظ: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث / ٢٢٥- ٢٢٦
([٤]) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث / ٣١٧

٧- الاقتصار في التحليل والتفسير البيانيّ في بيانتها على السور القصّار و ترك السور الأخرى وهو انتقاءٌ غير كامل واستقراء غير تام .

هذه هي اهم ملامح التفكير النقدي التي تجلت في القراءة التطبيقية التي أنجزتها عائشة عبد الرحمن للنصّ القرآنيّ، وتمثلت من خلالها المعالم الاساسية للمنهج الأدبيَّ الذي أرسَى دعائمه أمين الخولي وعلى الرغم من جهودها الصادقة في الارتقاء بقراءة النصّ القرآنيَّ إلا إنَّها لم تكن القارئ الاقوى بين (جماعه الامناء) ويبدو أنَّ شكري عيَّاد هو الناقد الأوفر حظًا بين أعضاء هذه الجماعة استشرافًا بأسرار هذا المنهج وقدرةً على تطبيقهِ وتطويرهِ [١].

المبحث الثالث: الدراسات التطبيقية لمنهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث

لقد رسم الأستاذ أمين الخولي منهجه التفسيري بوضوح وطبق فيه أفكاره التي تجلت فيها فكرة التجديد والمعاصرة ونقد القديم، واستحداث مناهج جديدة تتلاءم مع الواقع المعيش، وعمل أن يكون درس التفسير درسًا أدبيًا محضًا، بيد أنَّ هذهِ الدراسة لا تتم ولا تُنجز إلا باعتماد آلية مهمة وهي (آلية التفسير الموضوعيَّ) إذ انتهى إلى نتيجة محددة وهي أن التفسير الصائب اليوم هو (أن يفسر القرآن موضوعًا موضوعًا، لا أن يفسر على أساس ترتبه بالمصحف الشريف سورة سورة أو آية آية) ثم بعد ذلك زادت ذلك تأكيدًا تلميذته عائشة عيد الرحمن، وهي تصرح بوضوح بأن التفسير الموضوعيّ هو الأساس المعتمد في التفسير الذي اقترحه أستاذها ، وقد طبقت ذلك بوضوح في تفسيرها للألفاظ القرآنية كما سلف ذكره، أضف إلى ذلك فأنَّ أفكار الاستاذ أمين الخولي انتقلت إلى تلامذته بشغف وحب ووفاء وذلك عندما نرى أن تلك الأفكار قد انعكست في التطبيق في كتاباتهم التي اتخذت موضوعًا محددًا من موضوعات القرآن الكثيرة، وأشبعت ذلك الموضوع بحثًا ودراسةً فكانوا الترجمة الجيدة لما نادى به شيخهم أمين الخولي .

---

(١) ظ: أدبية النص القرآني / ٧٨

المطلب الأول : الدراسة التطبيقيّة لشكري عيَّاد [١]. في كتابهِ (من وصف القرآن- يوم الدين والحساب)

كان تأثر شكري عيَّاد بأستاذه أمين الخولي في تطبيق القراءة الأدبية واضحًا جدًا، وذلك من خلال النظر إلى مؤلفاته؛ لذا تصعب الكتابة عن أي من اعضاء (جماعه الامناء) دون التوقف عند الاثر الروحي والفكري العميق الذي تركه امين الخولي في اعضاء هذه الجماعة، واذا كانت هنالك بعض الحيثيات والملابسات الخاصة التي أفضت الى التماهي (التطابق والتماثل) بين الخولي وعائشة عبد الرحمن فان المعرفة والمنهج هما العاملان الفاعلان في تشكيل موقف شكري عياد، واذا كانت بدايات هذا الموقف محكومة بظروف التلمذة المباشرة فإن النهايات هي الأصدق تمثيلًا والأعمق دلالة، ويلحظ الناظر في طبيعة هذه العلاقة انها ظلت شديدة التوهج في فكر عيّاد على الرغم من تجاوزه للآفاق المعرفية التي بلغها شيخه الخولي [٢].

كان شكري عيَّاد واعيًا بالدور الطليعّي التنويريّ، وبالمهمة الكبرى التي استقلَّ أستاذه بأعبائها؛ مَهمَّة ((أن يضع شيئًا من الزيت في عقولنا لتظل مضيئةً حتى ينقشع الظلام)) [٣] ويبدو أنَّ هذا الاحساس بجلال نور المعرفة ظلَّ شديد التغلغل في فكر شكري عيَّاد ووجدانه؛ آية ذلك: أنَّه حين قصَّ طرفًا مقتضبًا من تكوينهِ الفكري في الجامعة أشار الى تلاشي غاشية الانبهار التي كان يشعر بها حين تُذكر أمامهُ أسماءُ النقادِ الكبار، وكيف أنَّ إبراهيم مصطفى وأمين الخولي هما اللذان اخْتَصَّا بالمنزلة العلمية من قلبه، فيقول: ((تبيَّن لي بعد ذلك أنَّ ما أتعلمه من كتبهم خيرٌ وأبقى ممّا أتعلمه بين أيديهم لا أستثني من ذلك طه حسين نفسه، وإن كان له حضور رائع، لسِحر شخصيته، وخلابة عرضه وموسيقية صوته حين يحاضر ... ولعل الدَّين الكبير الذي أشعر به نحو أستاذين بالذات: أمين الخولي وإبراهيم مصطفى، راجعٌ إلى أني لم أجد في كتبهما ما ينوب عن شخصيتهما. فأما إبراهيم مصطفى، فكتابه (إحياء النحو) - ولا أعرف له غيره – لا يُمثِّلُ إلا جانبًا صغيرًا من علمه بالنحو وذوقه فيهِ، فضلًا عن إنَّه قارئ للشعر القديم، خبيرٌ بدروبهِ الفنيَّة ... وأما أمين الخولي فإنهُ دائمًا (يحاور) وكان دائمًا (يحاول) ، وكان بمحاوراته السقراطيَّة يكسرُ قشرة الموضوع عن لبابهِ، ويعلم طلابهِ أن يحذو حذوه . وكان في جميع مشروعاتهِ العلمية يُحاول غاية هو أول من يعلم أنَّ دركها بعيد، ومن ثَّم يبقى باب الاجتهاد مفتوحًا لِمَنْ بَعْدَهُ. وقد وجدتُ نفسي قريبًا من هذين الأستاذين الجليلين دون أن أتمسح بهمها، أو أهجم بجهلي على علمها. واستمرت

([١]) وُلد بقرية كفر شنوان بمحافظة المنوفية بمصر عام ١٩٢١م . تلقى تعليمه الابتدائي في أشمون، وحصل على الثانوية عام ١٩٣٦، ثم ليسانس الآداب من كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٤٠، ودبلوم المعهد العالي للتربية بالقاهرة عام ١٩٤٢ والماجستير عام ١٩٤٨ والدكتوراه عام ١٩٥٣. عمل مدرسًا بمدارس وزارة التربية والتعليم، ثم انتقل إلى مجمع اللغة العربية محررًا به عام ١٩٤٥. انضم إلى هيئة التدريس بجامعة القاهرة عام ١٩٥٤، ثم عُين أستاذًا لكرسي الأدب الحديث في قسم اللغة العربية عام ١٩٦٨، ثم عميدًا لمعهد الفنون المسرحية عام ١٩٦٩، ثم وكيلًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٧١. له الكثير من الأعمال النقدية والأدبية وأهمها : كتابه ، من وصف القرآن – يوم الدين والحساب. توفي الدكتور شكري عيَّاد رحمه الله تعالى في عام ١٤١٩هـ . ظ: قراءات نقدية، في دائرة المنهج، عمر حسن القيام، منشورات أمانة عمان الكبرى ٢٠٠٥م / ١٩٤.

([٢]) ظ: أدبية النص القرآني / ٧٩

([٣]) تجارب في الأدب والنقد، شكري عيَّاد، ط١، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧م / ٦٥

صلتي بأمين الخولي وتوثّقت إلا أن لَحِقَ بربّهِ. وعندما عُدْتُ إلى الجامعةِ لأتعلمُ من جديد مع طلابي سُرْتُ على دَرْبهِ)) [١].

وعند المقاربة بين الاثنين أعني الأستاذين ، نرى أن تأثره بأستاذهِ أمين الخولي أكبر، فإنَّ هذا النص واضح الدلالة على القناعة الروحية والعقلية لشكري عيَّاد فيما يتعلق بمنهج استاذهِ الخولي وشخصيتهِ ، فقد تعددت أشكال التعبير عن هذهِ القناعات، واتخذت تجليات مختلفة في كتابات شكري عيَّاد. ولعل المقدمة الدقيقة التي صدَّر بها كتاب شيخيه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) أن تكون وافية الدلالة على عمق تمثله لأفكارهِ ، ورغبتهِ في مواصلة البناء عليها، فضلًا عن دفاعهِ عن هذهِ الأفكار وتبديت ما غشيها من سوء الفهم الشعبي، وإنكار من سماهم (أعداء العقل)، مبينًا أنَّ دعوة الشيخ إلى منهج التفسير الأدبي للقرآن الكريم لم تكن ((غير دعوة إلى بذل شيءٍ من الجهدِ في فهم الكتاب المبين فهمًا لا يقف عند حدود التفاسير القديمة، التي ارتبطت معظمها - إن لم نقل كلها – بأساطير الأمم الغابرة، وعقائد الأمم المتناحرة، بل تجاوز ذلك إلى استخدام الأساليب الحديثة، في البحث اللغوي والأدبي، مستعينًا بمعارف العصر في علم النفس وعلم الاجتماع)) [٢] .

ومن تطبيقاته لمنهج التفسير الموضوعيّ نجد ذلك واضحًا كل الوضوح في كتابهِ (من وصف القرآن – يوم الدين والحساب) :

المحور الأول: وصف منهج الكتاب :

تتناول دراسة هذا الكتاب بعضًا من أوصاف القرآن الكريم ليوم الدين والحساب، معتمدة المنهج الأدبي الذي يعد لونًا من ألوان التفسير الموضوعيّ، والذي يرتكز على محاور ثلاثة مهمة ، ففي ضوء ذلك قُسَّم الكتاب على ثلاثة أبواب :

الباب الأول: المفردات (في الألفاظ ودلالتها) .

الباب الثاني: الأساليب .

الباب الثالث: المرامي .

يقول شكري عيَّاد في ذلك: ((إنَّ عملنا في التفسير مراحل ثلاثة: فأولى تلك المراحل هي دراسة المفردات ، أي الألفاظ القرآنية في وصف الدين والحساب، وهي دراسة يلم فيها القارئ بجزيئات المعاني، والمرحلة الثانية هي بحث أسلوب القرآن في هذا الوصف، أي طريقته في التأليف بين هذهِ الجزيئات، وتطور هذهِ الطريقة وفاء بحق المعاني النامية أو المتطورة، والمرحلة

---

(١) التكوين، حياة المفكرين والادباء والفنانين بأقلامهم / ٢٣- ٢٤

(٢) تجارب في الأدب والنقد، عيّاد / ٦٣ ، ويُنظر: أدبية النص القرآني/ ٨٠ – ٨١

الأخيرة هي البحث عن مرامي القرآن الإنسانية والاجتماعية من هذهِ الأوصاف ، وهي لُب هذا التفسير)) [١].

المحور الثاني: الجانب التطبيقي:

١- في دراسة المفردات :

فيذهب بالقول : ((وليست دراسة المفردات بأقل شأنًا في خطة التفسير عندنا من دراسة الأساليب والمرامي، فالمعاجم التي بين أيدينا وكتب التفسير التي وصلت إلينا لا توضح معاني الألفاظ في استعمالها القرآني توضيحًا كاملًا ولا قريبًا من الكمال)) [٢].

وعلى هذا الأساس أراد شكري عيّاد وضع معجم خاص بالاستعمال القرآني، من خلال استقرائهِ لتلك الألفاظ المتعلقة بيوم الدين والحساب، ((وإذ كان في أصول منهجنا أن ندرس الآليات حسب موضوعاتها، فسوف نتبع هذا النظام عند دراسة المفردات، فنقسِّم الآيات أقسامًا حسب معانيها الظاهرة أو القريبة، لنستعين بهذا التقسيم في تحديد معاني الألفاظ، فإذا فسرنا الآيات ذات الموضوع الواحد، فهمنا بعضها ببعض، واستطعنا بذلك أن نحدد المعاني الإجمالية للألفاظ ، ونجونا مما أغرم به المتقدمون من كثرة التخريج – ثم نحاول حيثما استطعنا – أن نتبين خصائص كل لفظ من هذه الألفاظ المتصاقبة المعاني بميزة من التعبير، جعلته أنسب الألفاظ لموضوع المقسوم)) [٣].

إنَّ قوله هذا هو الترجمة الحقّ لما ذهب إليه أمين الخولي المتمثل بأنَّ (التفسير الموضوعيّ هو أساس منهجنا المتبع اليوم وعليه تتوقف الدراسة الأدبية) .

ابتدأ حديثه عن (أسماء اليوم الآخر في القرآن) ، حيث بين أن أكثر اسماء اليوم الآخر ورودًا في القرآن (يوم القيامة) ثم يعرج كلامه حول هذه المادة (قام) فجاءت في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعًا ، اثنان منهما أسند فيهما القيام إلى الكفار: ﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ**﴾ [٤] ، ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ [٥]، وجاء مسندًا إلى المنافقين مرتين اثناء قيامهم إلى الصلاة: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ**﴾ [٦]، ومسندًا إلى سليمان : ﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ [١] ،

---

(١) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب، ط١، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٢م / ٣١
(٢) المصدر نفسه / ٣١
(٣) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ٣٣
(٤) البقرة: ٢٠
(٥) البقرة: ٢٧٥
(٦) النساء : ١٤٢

وجاء مسندًا إلى السماء والأرض في موضع واحد : ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**﴾ [٢] ، ثم يبين عيّاد أن المعنى في هذه المواضع السابقة هو حسّي محض [٣].

واستعمل مسندًا إلى الساعة على سبيل المجاز والمراد الحدوث في خمسة مواضع (الروم: ١٢، ١٤ ، ٥٥) (غافر: ٤٦) (الجاثية : ٢٧) ، ومسندًا إلى الحساب أيضًا (إبراهيم : ٤١)، ومسندًا إلى الأشهاد يوم القيامة (غافر: ٥١) وإلى الروح والملائكة كذلك (النبأ: ٣٨) وإلى الناس يوم القيامة (المطففين: ٦) .

وجاء مسندًا إلى النبي أو إلى المؤمنين في الصلاة أو ما يشبهها في ثلاثة مواضع (النساء: ١٠٢) (التوبة: ٨٤، ١٠٨)، وفي معنى العبادة مطلقًا في خمسة مواضع (البقرة: ٢٣٨) (الشعراء : ٢١٨) (الطور: ٤٨) (المزمل: ٢، ٢٠) ، وبيَّن عيَّاد أنَّ المعنى هنا أقرب إلى المعنوي منه إلى الحسي. ويظهر الأنتقال من الحسي إلى المعنوي بوضوح في: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾ [٤] .

وجاء القيام بمعنى الرعاية والمحافظ في موضعين اثنين: (النساء: ١٢٧) ، (الحديد: ١٢٥) ، وبمعنى العزم عن الشيء والتهيؤ له في ثلاثةِ مواضع : (الكهف: ١٤)، (الجن : ١٩) ، (المدثر: ٢) .

ويلاحظ من هذا إنَّ أقل استعمال القرآن للفعل قام هو في المعاني الحسية القريبة، وإنَّ أكثر استعماله في الصلاة والعبادة [٥] ... وتتبع سائر مشتقات هذا الفعل في القرآن ينتهي بنا إلى مثل ما رأينا في تتبع الثلاثي والوصف منه، من كونهما استعملا في المعنويات أو وادٍ بين الحسيّ والمعنويّ بمعنى التوجه إلى الله ، وهذهِ الملاحظ العامة تهدينا إلى فهم مدلول يوم القيامة في القرآن [٦] .

وعلى هذه الشاكلة يورد شكري عيّاد أسماء اليوم الآخر في القرآن بنوع من التفصيل، موردًا الآيات القرآنية الخاصة بالموضوع الواحد احصاءًا وجمعًا، ليضع لنا معجمًا قرآنيًا خاصًا بتلك الألفاظ ، وهي غايتهُ الأساس في هذا التفسير .

---

(١) النمل : ٣٩
(٢) الروم: ٢٥
(٣) ظ: من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ٣٥
(٤) سبأ: ٤٦
(٥) ظ: من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ٣٥- ٣٦
(٦) ظ: المصدر السابق/ ٣٦

فبعد أن ينتـــهي من أسمـــاء اليوم الآخر ، يتناول النوع الثاني من تلك الألفاظ المتعلقة بـ (النفخ في الصور) فيقـول: ((ورد النفخ في الصور في عشرة مواضـــع مـــن القرآن الكريـم [١])) [٢] . ويفصل القول في كل تلك المواضع ، ويفعل مثل ذلك[٣] في :

- وصف خراب الدنيا إيذانًا بيوم الدِّين.
- وصف أحوال الناس بعد بعثهم من القبور .
- وصف أحوال الناس عند حشرهم .
- وصف الحساب والجزاء.
- أحوال الخلق عند الحساب .

لقد كانت دراسة شكري عيَّاد للمفردات استجابة لخاصتين أساسيتين من خصائص التفسير الأدبي:

أما الأولى: هي الاتجاه نحو التفسير الموضوعيّ [٤].

والثانية: هي العناية الخاصّة بالدراسة التحليلية للمعجم القرآني، على وجه جديد، وفقًا للمناهج اللغوية الحديثة [٥].

ولا شك أن هذا الأسلوب في دراسة المفردات القرآنية يفرضه الاتجاه الموضوعيّ في التفسير، وهو في مآلاته النهائية مستفادٌ من النظرية الأدبية ومناهج البحث التاريخي ، وعلى الرغم من مظاهر الطرافة والتجديد في أسلوب المعالجة، إلا أنَّ النتائج لا ترقى إلـــى أفق القارئ المتمرس ، ومن هنا يمكن أن نتفهم النقد الذي وجهه عفَّت الشرقاوي لمنهج شكري عيَّاد في دراسة المفردات، ، إذ قال: ((فالمقدمات اللغوية الطويلة لا تكاد تنتهي إلى نتائجها المطلوبة)) [٦].

٢- دراسة الأسلوب القرآني في وصفِ يوم الدين والحساب :

---

(١) ظ: الأنعام : ٧٣، والكهف: ٩٩ ، وطه: ١٠٢، والمؤمنون: ١٠١ ، والنمل: ٨٧، و يس: ٥١ ، والزمر: ٦٨ ، و ق: ٢٠ ، و الحاقة: ١٣ ، والنبأ : ١٨

(٢) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ٤٩

(٣) ظ: المصدر نفسه/ ٥٣ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٥

(٤) كان شكري عياد أكثر وعيًا وأوفر نقدًا وذكاء من عائشة عبد الرحمن في تتبع المفردات واستخراج مدلولاتها المختلفة من خلال استقراءها لتلك المفردات؛ ذلك أنها اقتصرت في تفسيرها السور القصار، أما عيَّاد فقد كان من التطبيقين للتفسير الموضوعيّ؛ لأنه أعتمد جانبًا محددًا ومعين في الدراسة، منفردًا عن الموضوعات القرآنية الأخرى، وأشبعه دراسةً وبحثًا .

(٥) ظ: شكري عيّاد ومنهجه في التفسير الأدبي للقرآن الكريم / ٢٦٧

(٦) الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث / ٣٣٩ ، ويُنظر: أدبية النص القرآني / ١٠٥- ١٠٦

فإذا استوت قضية المفردات على هذا النحو الذي بيناه ، انتقل شكري عيّاد إلى الأسلوب القرآني ، ويبدأ حديثه أولًا بتعريف الأسلوب: ((بأنَّه طريقة ائتلاف المعاني الجزئية لتؤدي غرض الأدب، وهو التعبير عن التجربة الوجدانية)) [١].

وبعد أن يذكر الخصائص الجوهرية للأسلوب الأدبي ، يُطبق شكري عيّاد هذه الخصائص على نصوص يوم الدين والحساب ، فيذهب إلى أن هناك ثلاث أفكار أساسية تعملُ على توجيه الوصف في يوم الدِّين والحساب ، ومن هذه الأفكار هي :

أ- التوجيه: إنَّ الفكرة الموجهة في وصف يوم القيامة في القرآن هي فكرة الانقلاب العنيف الذي يصيبُ الأرض ومن عليها . ثم بعد ذلك يذكر تجليات هذه الفكرة في الآيات القرآنية المباركة تفصيلًا واجمالًا [٢]، مما لا مجال هنا لذكرها جميعًا .

ب- التصوير في اهلاك الأمم المكذبة إهلاكًا مفاجئًا، وذلك من خلال استعراض الآيات الخاصة بهذه الفكرة .

ت- فكرة الموت ؛ لأن الموت في نظر الحيِّ انقلابٌ مروعٌ كانقلاب الساعة أو أشدَّ ! ، ليجتمع من هذهِ الأفكار الثلاث صورة مفصّلة لأحداث يوم الدِّين والحساب في إطار فكرة الانقلاب العنيف الذي يصيب الأرض ومن عليها ، سواء أكان الانقلاب في حياة الفرد، أم في حياة الأمة ، أو في حياة الدنيا بأسرها [٣].

٣- المرامي الإنسانية والاجتماعية للقرآن الكريم:

الدراسة الأخيرة من كتاب شكري عيّاد في الفصل الثالث كانت حول المرامي ، ليكون هذا الموضوع هو خاتمة الدراسة في هذا الكتاب وهو الحديث عن لون من التفسير النفسي، ينبغي أن يلون دراسة المرامي، وهذه الفكرة التي أضافها شكري عيّاد إلى منهج استاذه الخولي ، أبتدأ حديثه في هذا الفصل بتمهيد حول (العلاقة بين الدِّين والفن) فيقول: ((يلتقي الدّين والفن في كونهما تعبيرًا عن الجانب الوجداني من النفس الإنسانية، وينفصل الدين بعد ذلك بجملة من المميزات المشتركة بين شتى الأديان، أخصها الأيمان بقوة عليا، وبحياة آخرة مثالية. على أنَّ الدين يبقى وثيق الصلة بالفن ... مبينًا أن هذا الأصل النفسي لكل من الدين والأدب قد أدى إلى ربط الدراسة الدينية بالدراسة الأدبية، بحيث أصبحت الدراسة النفسية جزءًا مهمًا من دراسة الدين)) [٤] مُنوهًا في الوقتِ نفسه بدعوة استاذهِ الخولي إلى قيام محاولة جديدة في البلاغة

---

(١) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ١٠٣
(٢) ظ: المصدر نفسه / ١١٠- ١١٢
(٣) ظ: شكري عيَّاد ومنهجه الأدبي، الشرقاوي / ٢٧٠
(٤) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ١٢٧

والتفسير: ((وقد دعا استاذنا الخولي إلى أن تقوم محاولة جديدة في البلاغة والتفسير ترمي إلى استخدام القوانين النفسية التي توصل إليها علم النفس الحديث في الفهم الأدبي)) [١].

وقد حدد شكري عيَّاد قصده بخصوص هذه الدراسة الموضوعيّة، أو هذا المطلب: ((فأرى من الضروري أن أحدد ما أعنيه بدراسة المرامي... فدراسة المرمى هي جزء متمم للدراسة الأدبية؛ وسميتها إجمالًا: المرامي الإنسانية والاجتماعية، هأنذا أتحدث عن لونٍ من التفسير النفسي، ينبغي أن يلون دراسة المرامي. فمن حقِّ القارئ –إذا- أن يعلم أني لم أقصدُ بذلك كله، إلا وجوهًا مختلفة في فهم التجارب النفسية الكبرى، التي ينطوي عليها الدّين: في وجهها الإنساني الشامل، ثم في جوها الاجتماعي الخاص، ثم في جوَّها النفسي الفردي)) [٢].
وقد تطرق شكري عيّاد في هذهِ الدراسة الموضوعية إلى خمسة قضايًا مهمة متعلقة بيوم الحساب ، وهي :

- اقتراب الساعة.
- اشتراط الساعة .
- توفية الجزاء .
- المعاني الاجتماعية في وصف القيامة .
- النفس والحساب .

وسأكتفي بعرض ما تناوله في القضية الأولى ، وهي (اقتراب الساعة)، وهو كعادته يستقرأ الآيات الدالة على قرب الساعة ، ونلاحظ مجيء الساعة في القرآن بما يفيد وقت وقوعها : **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾** [٣]، **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَ﴾** [٤]، **﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [٥] ، **﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾** [٦] ، وقد أُشير أيضًا إلى اقتراب الحساب في : **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾** [٧] .

بعد أن قام باستقراء هذه الآيات المباركة الخاصة والدالة على قرب قيام الساعة، يتساءل شكري عيَّاد قائلًا: ((فهل كانت هذهِ الآيات انباءًا بقرب قيام الساعة؟)) فكان جوابه المفاجئ : ((يظهرُ أن لا)) . فآية طه (١٥) **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَ﴾** هي من خطاب الله لموسى (عليه السلام)، قد انقضت بين بعثه وبعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أزمان متطاولة، فلا يُقال إذًا إنَّ الوعيد بقرب الساعة كان نبوءة لم تتحقق، إذ لو أريد بالقرب ما

---

(١) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ١٢٨
(٢) المصدر نفسه / ١٢٩
(٣) القمر : ١
(٤) طه: ١٥
(٥) النحل : ٧٧
(٦) محمد : ١٨
(٧) الأنبياء : ١

يتبادر إلى الذهن من معناه ما جاز أن يورد في القرآن خطاب الله تعالى لموسى بقولهِ: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا** ﴾ ثم إنَّ في القرآن آيا صريحة في إنَّ علم الساعة لله وحده وإنَّ تحديد زمان وقوعها بقرب أو بعد أمرٌ مُحال [١] .

فإن لم يكن في تلك الآيات إنباء بدنو موعد الساعة، فبماذا نفسرها، وبماذا نفسر كون قيّام الساعة وما يصحبه من ظواهر طبيعيَّة خارقة، هما أول ما فصله القرآن من أحوال القيامة والحياة الآخرة ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال، يورد شكري عيّاد بعض الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين بخصوص هذهِ القضية، وخص بالذكر والمناقشة المستشرق الألماني (جوزيف هوروفتش) الذي ذهب إلى أنه: لم تكن من بين الأفكار التي تلقاها محمد عن العارفين بالأديان الأجنبية قبل موته فكرة سيطرت عليهِ بقوة مثل فكرة الحساب الآخر ... فكان كلما مثلت أهوال الساعة أمام عينيه ، ازداد يقينًا بأنَّ مجيئها وشيكٌ أن يقع فجأة. [٢]، ثم تنامت لديه - بحسب هوروفتش- القناعة بأنَّ الله اصطفاه في انذار قومه بقرب العذاب. وقد علَّق شكري عيَّاد على هذا الرأي : وهكذا يردّ هوروفتش الأمر إلى نفسية محمد، ويعد ايمانه باقتراب الساعة بدأ شعورهِ بالنبوة. وهو في تعليله هذا يُساير رأي المستشرقين في الوحيّ والنبوة، وجعلهم نفسية محمد أساسًا لفهم القرآن ... وسبيلنا إلى فهم المعاني القرآنيَّة هو عكس هذا السبيل، فنحن لا نقيم منهجنا على رأي في الوحي تسليمًا كان أم انكارًا، بل نلتمس فهم المعاني القرآنية من دراسة البيئة المادية والفكرية للجزيرة العربية في ذلك العهد، ونبحث عن مسالك هذه المعاني إلى النفس الإنسانية عمومًا ...، ثم يقرر التوجيه الادبي النفسي إلى هذه القضية بقوله: ((إنَّ فكرة الخراب النهائي للدنيا، فكرة قريبة كل القرب إلى عقول البشر، وكثيرٌ من الشعوب البدائية تؤمن بها على نحوٍ من الأنحاء، وقد ترددت فكرة خراب الدنيا في كثير من أسفار العهد القديم، وخصوصًا الأخيرة منها ممتزجة بفكرة عقاب الخاطئين من بني اسرائيل وجمع أخيارهم من أقصى الأرض ونصرهم على أعدائهم ...)) [٣] .

مجمل رأي شكري عيَّاد هو أنَّ الديانة اليهودية و المسيحية لم تكن خالية من ذكر الخراب النهائي للعالم ، وأنَّ هذه الأفكار والمعتقدات ما تسرب بعضٌ منها إلى أهل مكة في العهد الوثني ، وانتقلت هذه الأفكار إليهم عن طريق تلك الديانات التي كانت منتشرة في الأرجاء ، حتى وجد القرآن بيئة خصبة معنوية تتسامع بقرب خراب الدنيا، وكان تلقيهم - يعني العرب- لوعيد القرآن بقيام الساعة يتفق مع ما تبادر في أذهانهم عن تلك الفكرة والتي كثر القول فيها .

---

(١) ظ: لقمان : ٣٤ ، والأحزاب: ٦٣ ، وفصلت: ٤٧ ، والزخرف: ١٦ ، والنازعات: ٤٣ – ٤٤

(٢) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ١٣١

(٣) المصدر نفسه / ١٣١ – ١٣٢

وكان تلقيهم لوعيد القرآن بقيام الساعة يتفق مع هذا المسلك، فلم يلقوه بشيء من حجج المنكرين كما لقوا فكرة البعث مثلًا [١]، بل استبقوا هذا الوعيد هازئين متحدين، وكان سؤالهم الذي يرومون به معاجزة النبي: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فكانت طريقة القرآن في الرد على هذا التحدي آية من آيات الأعجاز النفسي في بث الدعوة ، استخدم الخوف من المجهول أساسًا يقيم عليه الفكرة في نفوس الناس، ثم أخذ يثبتها بالإيحاء المتكرر، ليحصل في النفوس من ذلك اليقين بوقوعها ... وبهذا الأسلوب من المنطق الوجداني يواجه القرآن السائلين المستهزئين : ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [٢]، ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [٣]، ﴿**أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ [٤] ، ﴿**اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ. يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾ [٥].

فالقرآن إذا لا يصور قرب الساعة أو بعدها في مقاييس، بل يتجاوز عن سؤال السائلين عن موعدها ويقرر بأسلوبه النفسي الخاص، إنَّ وقوعها جائز في كل وقت، فأولى للسائل أن يستعد لها . من أن يجادل فيها ، وإذا وصفت الساعة في بعض الآيات بقرب الوقوع فهذا جزء من المسلك العام في الرد على المتسائلين عن وقت وقوعها ، فالساعة قريبة لا شك ، وهي كذلك في تصور المؤمن ، بل هي عنده أشبه بحقيقة واقعة، يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ [٦]، أما أن تقع الساعة بعد يوم أو بعد عام أو بعد ألف عام، فهذا ما لم يشر إليهِ القرآن، بل نسب الاستعمال بالساعة إلى الذين لم يؤمنوا بها ، فبين أن السؤال عن الساعة أو استقراب زمنها إنما هو ناشئ عن الشك في حقيقتها ، وأزال هذا الشك بأسلوبه في الإيحاء، لتصبح الساعة قريبة كل القرب بمقاييس الوجدان، لا بمقاييس الزمان [٧] .

ثم في نهاية هذه الدراسة يعرض عيَّاد حديثه حول (المرامي الاجتماعية للقرآن الكريم) ، فيبين أنَّ هناك كثيرًا من الآيات الواردة في وصف يوم الدين والحساب، لا يمكن أن تفهم إلا إذا دُرست الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية عمومًا، وفي مكة على وجه الخصوص، وفي هذا يشير شكري عيّاد إلى طبقة الأغنياء والوجهاء من شيوخ القبائل ورؤسائها

---

(١) ظ: الأسراء: ٤٩، والمؤمنون: ٨٢- ٨٣ ، والصافات: ١٦- ١٧ ، والواقعة: ٤٧- ٤٨ ،
(٢) يس : ٤٨- ٤٩ – ٥٠
(٣) يونس: ٤٨- ٥١
(٤) يوسف: ١٠٧
(٥) الشورى: ١٧ – ١٨
(٦) العنكبوت: ٥٤
(٧) ظ: من وصف القرآن- يوم الدين والحساب / ١٣٣

وهي طبقة دنيوية بشعة في حبها للدنيا، وارتباط هذا الموقف بمصالحهم التجارية، ورغبتهم في البقاء على النظام الديني المنحرف الذي كان سائدًا والذي يضمن لهم هذه المصالح ، وهيمنتهم على الطبقات الفقيرة، وقد أجاد شكري عيّاد في هذا الرأي ؛ فكثيرٌ من الأشخاص في زماننا وفي كل زمان يرفضون الانسياق في نهج الحق، ويردّون كل القيم النبيلة والأخلاق والنظم الاجتماعية التي تتفق مع الدين ولا ينتهجونها تماشيًّا لمصالحهم الباطلة ، وتحقيقًا لرغباتهم الدنيئة في الحياة الدنيا، فاللاحقون يلتحقون بالسابقين في هذا الوصف ، ((هذهِ الطبقة مناقضة كل المناقضة للأخلاق الجديدة والنظم الاجتماعية الجديدة التي دعا إليها الاسلام ... فما عادوا يؤمنون بشيء إلا شهوات أنفســهم)) [١].

وهكذا نجد القرآن يصور لنا هذه الطبقة أدق تصوير في عدد من السور المكية ، نذكر بعضًا منها :﴿ **وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلً** ﴾ [٢]، ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ**﴾ [٣]، ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ** ﴾[٤]، ﴿**إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ [٥] ، ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ. أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ. أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ. أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ. أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ** ﴾ [٦].

وعلى هذا الأساس فالقرآن كان حربًا على نظام هذه الطبقة، فحارب النظام الاجتماعيّ المنحرف القائم بشقيه : القبلي والطبقي ، إذ كانت كل قبيلة تساند الأخرى في حماية تلك العادات الاجتماعية القائمة آنذاك ، فكانوا يرون بالعدوان مظهرًا للقوة، ومبعثًا للفخر فذم القرآن هذه الحمية ، وسماها حمية الجاهليَّة [٧]: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[٨]، وقال: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[٩] .

وهكذا انتهى آخر الشوط، الذي عدّه من أهمها وهو لبّ هذه الدراسة، وعلى هذا تنتهي دراسةُ شكري عيّاد الموضوعية، القائمة بداية على تتبع استعمال اللفظ في القرآن، وملاحظة

---

(١) من وصف القرآن – يوم الدين والحساب / ١٣٤
(٢) المزمل: ١١
(٣) المدثر: ١٠ – ١٥
(٤) القيامة: ٣١- ٣٣
(٥) الإنسان: ٢٧
(٦) العلق: ٦- ١٥
(٧) من وصف القرآن، يوم الدين والحساب / ١٤٦
(٨) الفتح: ٢٦
(٩) المائدة: ٢

المعاني التي استعمل فيها، مع الاستعانة بسياق الكلمة اللغوي وسياقها الأدبي، و بيان المعاني الحقيقة منها من المعاني المجازية، وعند دراسته للمرامي القرآنية من وصف يوم الحساب لم يتبع التقسيم الموضوعيّ الذي كان أساسًا في دراسة المفردات، بل اتّبع آخرًا يناسب ما أراده من أن تكون دراسة المرامي محاولة لاستخراج المعاني الكبرى التي تقوم عليها أوصاف الكتاب الكريم، وبيان قيمة هذه المعاني في حلِّ المشكلات الكبرى التي يشعر بها الإنسان في الكون، ثم تأثيرها في المجتمع الذي نزلت فيهِ، وعلى المجتمعات الإنسانية عامة. أضف إلى ذلك طريقته المتميزة التي بيّن فيها فكرة اقتراب الساعة في القرآن، وفكرة خراب الكون، ليجعل من حقائق يوم الدين والحساب حقائق فكرية ساميّة ، تعلو وتتجدد مع أحداث الكون المتغيرة ، وقد وصف عفَّت الشرقاوي هذهِ الطريقة بأنها : ((محاولة رائدة في بابها، تقوم على مجاهدةٍ لأدراك مدلولات الألفاظ القرآنية في أذهان العرب وقت نزول القرآن، وتحاول المران على ذوقِ هذه الالفاظ بحيث لا تقف عند مدلول اللفظ المعجميّ، بل تستوحي سياق الدلالة الأدبية للمعنى)) [١] .

المطلب الثاني: الدراسة التطبيقية لمحمد أحمد خلف الله [٢]. في كتابهِ (الفن القصصي للقرآن الكريم)

ثلاثة كتب هي الأشدُّ إثارةً في الحياة الثقافية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، أولُها: (الإسلام وأصول الحكم) الذي ألّفه الشيخُ علي عبدالرازق، وصدر سنة ١٩٢٥م ، والثاني: (في الشعر الجاهلي)، الذي صدر سنة ١٩٢٦م، لطه حسين، والثالثُ: (الفن القصصي في القرآن الكريم). والكتابُ الأخيرُ أطروحةٌ قدّمها محمدُ أحمد خلف الله في عام ١٩٤٧م لنيلِ شهادة الدكتوراه بإشراف أمين الخولي، لكن لجنةَ المناقشة رفضتْها، وحجبت الدكتوراه عن كاتبها.

وكان هذا الكتابُ من أبرز عناوين الضجة لجماعة الأمناء. ومن الجيل التالي لجماعة "الأمناء" يقول نصر حامد أبوزيد : ((إعادة ربط الدراسات القرآنية، بمجال الدراسات الأدبية والنقدية، بعد أن انفصلت عنها في الوعي الحديث والمعاصر، نتيجة لعوامل كثيرة، أدت إلى الفصل بين التراث وبين مناهج الدرس العلمي)) [٣].

تعرّض خلفُ الله وأطروحتُه إلى حملة عنيفة، كما أشار إلى ذلك توفيقُ الحكيم بقوله: ((لقد طالب البعض بحرق الرسالة، على مرأى ومشهد من الأساتذة، وطلبة كلية الآداب، وطالب

---

(١) الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث / ٣٣٩ ، ويُنظر: أدبية النص القرآني / ١١٢

(٢) هو مفكر وكاتب مصري في حركة الحداثة الإسلامية، ولد في القاهرة عام ١٩١٦م ، درس على يد الشيخ أمين الخولي، له مقالات ومؤلفات قيمة، اهمها الفن القصصي للقرآن الكريم ، الذي كان الترجمة الجيدة لما دعا إليه منهج الخولي. قدّم خلف الله في السّنة الجامعيّة: ١٩٤٧-١٩٤٨، أطروحته: الفنّ القصصي في القرآن لشهادة الدّكتوراه، التي قبلها وأشرف عليها أمين الخولي. وفي تصدير الكتاب الّذي كتبه خلف الله نجد الملابسات الّتي حفّت بالأطروحة من قبل أن تُعرض وتُناقش، ودور لجنة المناقشة في إثارة البلبلة حولها، إلى حدّ تكفير خلف الله ، توفيّ رحمه الله تعالى في عام ١٩٩٧م .

(٣) مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن، نصر حامد ، ط١، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة١٩٩٠ / ٢١

الآخرون بفصل الأستاذ خلف الله)) [١]. وتعرّضت أطروحةُ خلف الله إلى حملةِ تحريضٍ واسعة، فقد وصفها بعضُ رجال الدين بأنّها: "أشدّ شناعة من وباء الكوليرا". ومرض الكوليرا كان منتشرًا بالأرجاء في ذلك الوقت، وتناولها جمعٌ من الكتّاب في مصر بالنقد اللاذع. ونَقَدَها كبارُ العلماء مثل الشيخ محمد الخضر حسين، الذي نشر عنها مقالةً في إحدى المجلات، أشار فيها إلى التقرير الذي قدّمه أحمدُ أمين إلى لجنة المناقشة [٢].

لم يشأ الشيخُ أمين الخولي التنصّلَ من اجتهاد تلميذه، ولم يتراجع، بل وقف بشهامةٍ يذود عن خلف الله ويثني على جهوده، بعد أن حجبوا لقبَ الدكتوراه عنه، ولم يتنازل مقابل أولئك الذين وصفهم بـ "الآثمين في هذا السبيل والغافلين المخدوعين"، ودعا أن يعفو اللهُ عنهم. إذ كتب في مقدّمة الطبعة الثالثة لكتاب "الفن القصصي في القرآن الكريم"، لتلميذه محمد أحمد خلف الله ما يلي: "أستطيع أن أقول إن رسالة الفن القصصي قد أدت تلك الضريبة في سنتي ١٩٤٦ – ١٩٤٨، وتقاضتها منها عامية فاسدة، في ظن من ظن لهم خطأ وخداعًا أنهم أصحاب وعي. واليوم صارت الرسالة ووجهتها كسبًا غنيًا، ووجهًا من الاعجاز القرآني عند أصحاب الدين والأدب. فإني أقول بالأصالة والنيابة: عفا الله عن جميع الآثمين في هذا السبيل والغافلين المخدوعين... وتحية لمؤلف الفن القصصي، الذي أشهد الله أنه كان في صدقه وصدره مثلاً من الشباب، إذ ذاك يطمئن به المستقبل". وكان إصرارُ أمين الخولي في الدفاع عن تلميذه حازمًا صلبًا عنيدًا، حتى أنه قال: ((فلو لم يبق في مصر والشرق واحد يقول إنه حق، لقلت وحدي وأنا أُقذف في النار، إنه حق، لأبري ضميري)) [٣].

المحور الأول: وصف منهج الكتاب

يشرح محمد خلف الله منهجَه في دراسة القصص القرآني بقوله: ((أن من الخطأ دراسة القصص القرآني كما تدرس الوثائق التاريخية، لا كما تدرس النصوص الدينية والنصوص الأدبية البليغة أو المعجزة... لاحظت أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ، إلا في النادر الذي لايحكم له، وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان، ومن هنا تبينت أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات وهي غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني. ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك المقاصد الحقة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير، ولأبرزوا الجوانب الدينية والاجتماعية من القصص القرآني إبرازًا ملموساً يثير المشاعر والعواطف، ويؤثر في العقول والقلوب، وعند ذلك كانوا يمكّنون للدين وقضاياه، ويسيرون وهدى القرآن الكريم)) [٤]

---

(١) يقظة الفكر، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٦م / ١٠ – ١١.

(٢) ظ: مجلة "الهداية الإسلامية" : ٧-٨، المجلد ٢٠، محرم وصفر١٣٦٧، والجزآن ١-٢، المجلد ٢١، رجب وشعبان عام ١٣٦٧هـ.

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، شرح وتحليل : خليل عبد الكريم، ط٤، سينا للنشر – الانتشار العربي، بيروت، لندن، القاهرة ١٩٩٩م / ٧- ٨

(٤) المصدر نفسه / ٨- ٩ ، مقدمة المؤلِف .

وفي اطار التفسير الموضوعيّ قال المؤلف في مقدمة بحثته : ((أستطيع الآن أن أوضح المنهج وأن أصور الخطوات التي سرت عليها أثناء الدرس لهذا الموضوع، وهي خطوات قد تُعدُّ جديدة بالنسبة لموضوعنا هذا، فلم يُسبق أن دُرس القصص على هذا الأساس الأدبي الذي يصور ما فيهِ من ظواهر أدبية ...)) [١] والآن نستطيع أن نعرض عليك الخطوات، وهي :

أولًا: جمع النصوص : كانت أولى الخطوات من غير شك هي الوقوف على النصوص وجمعها.

ثانيًا: الترتيب التاريخي للنصوص .

ثالثًا: فهم النصوص .

رابعًا: التقسيم والتبويب.

خامسًا: الأصالة والتقليد .

وهذه الخطوات التي اتبعها خلف الله في بحثهِ ما هي إلا خطوات التفسير الموضوعيّ المنهجية نفسها مع التغيير الطفيف، فهو تناول القصص القرآنية بالدراسة الموضوعية من خلال جمعه للآيات القرآنية المتعلقة بجزئية من الجزئيات وهي القصص القرآني، ويقول في ذلك: ((وإني لأعترف بأني لم أجد في موضوعي هذا من حيث هذهِ الناحية عناء يذكر؛ ذلك لأن القصص القرآني موجود في القرآن، والقرآن قد جمع في المصاحف أصدق جمع وأدقه بالنسبة لما حاصره من نصوص حتى بالنسبة لأحاديث الرسول (عليه الصلاة والسلام) ومن هنا لم يكن عملي في هذه المرحلة إلا الرجوع إلى المصحف وقراءة القرآن الكريم للوقوف على ما فيه من أقاصيص)) [٢] . ورتبها تاريخيًا وحاول أن يفهمها الفهم الذي يساعده على استنباط الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه من أفكار [٣] .

وما اصالة ما قام به خلف الله إلا بخروجه عن المألوف في تفسير القرآن الكريم، فهو رائد من رواد التفسير الموضوعيّ وممن أخذ جانبًا واحدًا من جوانب القرآن، وطبق ذلك في مجال القصص القرآنيّ .

المحور الثاني: الجانب التطبيقي

أنَّ دراسّة خلف الله هي تطبيق حقيقي للتفسير الموضوعيّ، وأنَّ مؤلفها أجاد في ذلك، وهو جمعه للآيات المتعلقة بجزئية من جزئيات القرآن الكريم وهي (القصص القرآني) .

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم / ٤٣
(٢) المصدر نفسه / ٤٤
(٣) ظ: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعي / ٥٥

بدأ حديثه في تطبيق ورود القصص القرآني، ذاكرًا في ذلك ألوان القصص الفني، درس خلف الله بعض القصص الواردة في القرآن، وفق مفهومه الفنّي للقصّة، وحسب مواصفات اعتبرها هو من المسلّمات، مع أنّها مجرّد آراء قابلة للتّجاوز. وعرض ثلاثة ألوان وجدها في القصص القرآنيّ وهي: اللّون التّاريخيّ واللّون التّمثيليّ واللّون الأسطوريّ .

اللّون التاريخيّ:

بدأ خلف الله اللّون التّاريخيّ بعرض الآيات:﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ. تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ [١] وألحّ أنّ القرآن قد تخلّى عن كثير من التّفصيلات؛ فلم يذكر هودا ولم يذكر صفة عاد ولا بيوتها ... ترك كلّ هذا وأسرع إلى وصف العذاب ... واستنتج أنّ الغرض من القصّة هو التّخويف: ((فعل القرآن كلّ هذا، لأنّ قصص هذه السّورة لم ينزل إلاّ للإنذار وللتّخويف من العذاب)) [٢] . وعلى هذهِ الشاكلة يورد الآيات التي تحوي القصص والتي تتعلق باللون الأول حصرًا وهو (اللون التاريخي) .

اللّون التمثيليّ:

بعدها عرض لنا خلف الله اللون التمثيليّ للقصة القرآنية ، وهو يقر بأنَّ: ((القصّة التمثيليّة قصّة فنيّة، هذا ما يقرّره الأقدمون ويشهد به الواقع. وهذا هو الّذي نريد أن نستعرضه سويّا من النّصوص)) [٣] .ولدراسة اللّون التمثيليّ في القصص القرآنيّ، بدأ خلف الله بالآيات (٢١-٢٥) من (سورة ص). وفيها قصّة النبيّ داود وحكمه في قضيّة: «التّسع وتسعين نعجة». أورد خلف الله ما جاء في تفسير تلك الآيات في الكشّاف للزّمخشريّ وفي مفاتيح الغيب للرّازي وما قاله أبو السّعود في تفسير: «بغى بعضنا على بعض» وما جاء في تفسير تلك الجملة في معالم التّنزيل للبغويّ، وما جاء في البحر المحيط لأبي حيّان في خصوص «لفظة النّعجة». وكلّ هذا العرض الطّويل، إنّما ساقه ليستنتج منه أنّ: ((سرّ الاختلاف لا يقوم على التّمثيل من حيث هو تمثيل، ولا على أثره القويّ في النّفس؛ فكلّهم يعترف بذلك، حتّى من يخشى منهم أن يكون التّمثيل في قصّة الملَكين كذبا)) [٤] . بعدها يستقرأ الآيات الأخرى الخاصة بهذا الموضوع فقط وهو: (اللون التمثيلي) .

([١]) القمر: ١٨ – ٢١
([٢]) الفن القصصي في القرآن الكريم/ ١٥٣
([٣]) المصدر نفسه / ١٨٣
([٤]) المصدر نفسه / ١٨٤ – ١٨٦

اللّون الأسطوريّ:

بعد ذكره بمقدمة طويلة حول هذا اللون من القصة القرآنية ، يستنتج ما ذهب إليهِ: ((وتلك هي آيات القرآن الكريم الّتي عرضت لذكر الأساطير نجمعها مستقصين[١] لننظر فيها النّظرة العلميّة الّتي تسلم إلى الحقّ المبين)) [٢] .

وبعد ما جمع تلك الآيات التي عرض فيها القرآن لهذهِ المسألة، قال: ((فالننظر لما فيها من دلالات على نظرية لهذهِ الأساطير)) [٣]. ثم يبدأ بشرح تلك الدلالات وما تتضمن بنوع من التفصيل ، لتكون هذهِ الدراسة الترجمة الحقيقة لما نادى بها استاذه أمين الخولي، وتكون لونًا من ألوان التفسير الموضوعيّ في العصر الحديث ، وقد سار على هذه الطريقة جملة من الدارسين قدموا لهذا المنهج الكثير، وطبقوه بكل وضوح في كتاباتهم، جاءت تلك الدراسات في ما كتبه أستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجي في كتابه [٤]، وذلك في معرض حديثه حول الجانب التطبيقي لما رسمه أمين الخولي في منهجهِ ، وقد أجاد استاذنا الدكتور في البحث والاستقصاء لما كُتب وأُلف في هذا الفن، أوردها باختصار، وهي :

١- التفسير الفقهي، للشيخ محمد شلتوت. الذي صرح بانتمائه إلى مدرسة الخولي في التفسير.
٢- المدرسة القرآنية ، محمد باقر الصدر. الذي صرح الدكتور بأنَّه أبدع في عرضه للتفسير الموضوعي، وبالخصوص في موضوع (السنن التاريخية في القرآن الكريم) و (عناصر المجتمع وعلاقاته) إذ كان لكلّا الموضوعين قمة التطبيق العلمي للتفسير الموضوعيّ، وهذا الأبداع والتميز من السيد الشهيد في تطبيق التفسير الموضوعي هو ما دفعنا إلى أن نجعله ضمن عنوان الفصل الرابع من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .
٣- الوحي والتنزيل، عبد المجيد شوقي البكري. الذي جعل القرآن على شكل موضوعات وأغراض ومقاصد مدرجة تحت كل موضوع آياته المتعلقة به وأوصلها إلى (٤٤) موضوعًا .
٤- الدستور القرآني في شؤون الحياة، لمحمد عزّة دروزة، الذي اقتصر على جانب واحد من جوانب التفسير الموضوعيّ وهو (المتعلق بشؤون الحياة بنوع خاصّ) .
٥- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد ، وعلى الرغم من التزامه التفسير العلمي إلا أنه أخذ الآيات الكونية في القرآن واخذ يفسرها على نحوٍ خاصّ .
٦- نظرات في القرآن، محمد الغزالي .
٧- مع القرآن في آدابه ومعاملاته، عبد الحسيب طه حسين .
٨- المدخل إلى التفسير الموضوعيّ، محمد باقر الأبطحي.

---

(١) ظ: الآيات القرآنية : الأنعام : ٢٥ ، الأنفال: ٣١، النحل: ٢٤، المؤمنون: ٨٣ -٨٤ ، الفرقان: ٥- ٦ ، الأحقاف: ١٧، القلم: ١٠- ١٥ ، المطففين: ١٠ – ١٣
(٢) الفنن القصصي في القرآن الكريم / ٢٠١
(٣) المصدر نفسه / ٢٠٢
(٤) ظ: دروس في أساسيات المنهج الموضوعيّ / ٥٦ - ٦٩

٩- الطبيعة في القرآن، ياسر كاصد الزيدي . الذي جمع فيه الآيات التي ذكرت فيها الطبيعة، من جبال وأشجار وأنهار وبحار . فكانت تربو على (٧٠٠) آية.
١٠- قصة التفسير، أحمد الشرباطي ، الذي عدَّ التفسير الموضوعيّ الطريقة المثلى في التفسير، ولم تكن دعوته هذه مجرد دعوة، بل طبَّق ذلك في بحوث مستقلة منها: (العزة في القرآن الكريم ، الرجولية في القرآن، القلة والكثرة في القرآن، حديث القرآن عن التطير)، وهذهِ الكتابات دليل على التزامه منهج التفسير الموضوعيّ.
١١- الصورة الفنية في المثل القرآني ، الدكتور محمد حسين علي الصغير . والذي أسهم أسهامًا واضحًا في تطبيق التفسير الموضوعي [١] .

([١]) ظ: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، محمد حسين علي الصغير / ١٥٢

الفَصْلُ الرّابع

المُتغيّرُ في التفسيرِ الموضُوعيّ (مَرْحَلَةُ النُّضُوج)

المَبْحَثُ الأوّل: مَعَالِمُ النُّضُوجِ للتفسيرِ المَوضُوعيِّ

المَبْحَثُ الثّانِي: من تجارِبِ أَعْلامِ مَرْحَلَةِ النُّضُوجِ

توطئة:

في هذا الفصل أتْحَدَّثُ عن المتغيّر في التفسير الموضوعيّ (مرحلة النُضُوج)، هذه المرحلة التي تبلور فيها هذا التفسير وأصبح له مكانته وحيّزهُ ضمن مدرجة المناهج أو الاتجاهات التفسيريَّة، فأصبح له حضور واقع. ومنه انطلقت الدراسات في هذا اللون من التفسير، أو المنهج التفسيري، فبدأت الدراسات الموضوعيّة لكل من (الألفاظ ، والمعالم ، والمظاهر، والمضامين القرآنيَّة، وقضايا الحياة المختلفة) ، أضف إلى ذلك أنهُ بدأ التصريح الحقيقي بهذا المنهج وذلك في ضوء العناوين الرئيسة في الكتب المتعددة ، ففي المرحلة المتقدمة (مرحلة قبل النضوج) كانت الدراسات تدور حول الألفاظ فقط ، أي دراسة المفردة القرآنيَّة ومعرفة معناها من خلال التتبع والاستقراء في القرآن كله، فقد عدَّ رواد التفسير في مرحلة النضوج أنَّ هذهِ الآلية قاصّرة وذلك من جانبين : **الأول:** عدم التوسع في الموضوع القرآني، أي القصور على الألفاظ فقط، **والثاني:** ابقاء القرآن في حيزٍ مغلق، (بوصفهِ مدونة مغلقة) ، فالدراسة كانت تدور في داخل الكتاب الكريم وأبعدوها عن الواقع الخارجيّ. ففي هذه المرحلة نجد أنَّ القرآن الكريم أصبح له ميدان وأصبح متحركًا مع الوجود ومتجددًا يُلامسُ الواقع، وهذا ما سنراهُ إن شاء الله تعالى في التجربة الرائدة للسيد محمد باقر الصدر.

ورأيتُ أيضًا رواد التفسير في هذه المرحلة الناضجة قد وسعوا محاور التفسير الموضوعيَّ بذكاءٍ كبير، وقد ظهر ذلك في تجربة أستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ ، وهو أنَّ التفسير الموضوعيّ لا يمكن أن يقتصر على الألفاظ فقط، وإنما يكون العمل في القرآن ذو سعةٍ أكبر؛ لأنَّ في القرآن الكريم مئات بل آلاف الموضوعات المتفرقة في ثنايَّا سورهِ وآياتهِ، فان جُمعت جمعًا دقيقًا ستكونُ بحوثًا جليلة، تعم فائدتها على الأمة العربية والإسلامية بل على العالم أجمع [١]، وأشار أيضًا إلى أنَّ موضوعات المحدثين - التي جعلناها تحت التجربة أو المرحلة غير الناضجة - بأنها قاصرّة في تناولها للموضوعات والسبب أنها اقتصرت على الجانب اللغويّ والنحويّ [٢].

وبعد ذلك توسعت الدراسات الموضوعيّة في تناول قضايا القرآن المختلفة وافرادها في البحث اللازم الجاد دون غيرها، وأيضًا عالجت تلك الدراسات موضوعات حيويّة من الواقع الخارجي، لتجد لها الحلول اللازمة في الكتاب الكريم؛ لأنه وكما ذكرنا سابقًا أنَّ القرآن حيٌ لا يموت باقٍ يعالج كلّ مسائل الكون المتعددة .

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ٢٠٩

(٢) ظ: المصدر نفسه / ٢٠٨

المبحث الأول : مظاهر النُضُوج للتفسير الموضوعيّ .

المطلب الأول: مظهر تكوين المصطلح واستقرارهِ

بدأ التصريح بهذا المنهج بوصفه من المناهج التفسيريَّة، فبعد أن رصدنا ملامح التفسير الموضوعيِّ وتتبعنا الخطوات والمراحل التي مرَّ بها من مرحلة نفي التصريح مع العمل البيّن فيهِ - الثابت - إلى مرحلة الاستقرار والنضوج وإظهار الأهميّة ، والمخطط الآتي يوضح ذلك البدء المبارك، مع ختامهِ المسك، ونتائجه المثمرة :

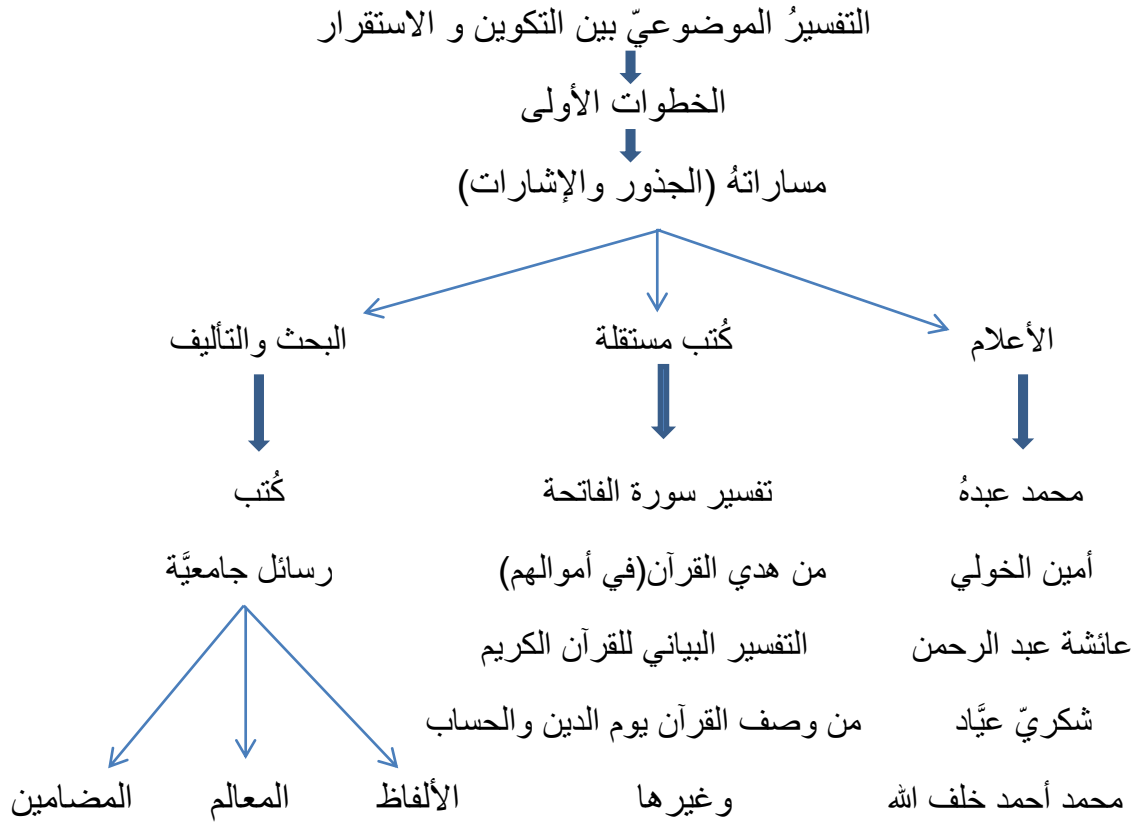

ومن هذا المنطلق بدا لنا أنَّ كل شيء في الوجود لا يكتمل ولا يأخذ مكانته الناضجة إلا إذا مرَّ بمراحل معينة وأطوار متكاملة ومتتاليّة، ومن تلك الأشياء في هذا الوجود (العلوم) فلم يعرف بأنَّ هناك علمًا من العلوم ظهر هكذا كاملًا فجأة وإنما مرَّ بأطوار متعددة ومراحل متتالية حتى وصل إلا ما هو عليهِ، فنشأة العلوم تشبه إلى حدٍ ما نشأة الإنسان الذي بدأ بالنطفة وما بعدها إلى أن تكتسي عظامه لحمًا ، وحديثنا عن علم التفسير بشكل عام وخصوصًا (التفسير الموضوعيّ) فقد شهد تطورات منذ عصر النزول كما بينا، فبدأ بمرحلة النشوء ثم الصيرورة ثم الارتقاء والاستقرار، بعدها أصبحت له قواعد وأصول يرتكز عليها.

عَدَّ كثيرٌ من الباحثين والدارسين المتأخرين هذا الاتجاه التفسيريّ من منطلقات هذا العصر، أي أنه حديث النشأة، ولكننا بعد أن بيَّنا الأسس والجذور في الفصل الأول اتضح لنا بشكل جليٍّ أنَّ هذا النوع من التفسير هو من مواليد عصر الرسالة، والرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، هو أول من فسر بهذهِ الطريقة من التفسير عندما طبَّق منهج تفسير القرآن بالقرآن في تفسيرهِ، أضف إلى ذلك موقف أهل البيت (عليهم السلام) في تأصيلهِ والعمل به بشكل واضح، وهذا ما نراه عندما فسّرَ أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) أوجه (الكفر والشرك والظلم) المذكورة في كتاب الله تعالى وأفردها كموضوع له آياته المباركة الخاصّة، فمن أوجه الكفرِ مثلًا ((جاء في تفسير النعماني: بالإسناد الآتي في كتاب فضل القرآن عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: وأما الكفر المذكور في كتاب الله تعالى فخمسة وجوه منها: كفر الجحود، ومنها كفر فقط، والجحود ينقسم على وجهين، ومنها كفر الترك لما أمر الله تعالى به، ومنها كفر البراءة، ومنها كفر النعم)) [١] .

فأما كفر الجحود فهو على وجهين :

الأول : جحود الوحدانيَّة ، وهو قول مَنْ يقول: ((لا رَبَّ ولا جنةَ ولا نار ولا بعث ولا نشور وهؤلاء صنف من الزنادقة وصنف من الدهرية الذين يقولون: " ما يهلكنا إلا الدهر " وذلك رأي وضعوه لأنفسهم استحسنوه بغير حجة)) [٢] فقال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [٣] . وقال : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [٤] . أي لا يؤمنون بتوحيد الله تعالى .

الثاني: الجحود مع المعرفة بحقيقته ، أي جحدوه بعد ما عرفوه ، قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [٥] . وقال عزَّ وجل : ﴿**وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [٦].

وقد فصلَّ القول في الوجوه الأخرى من الكفرِ وهي على النحو الآتي:

- كفر الترك: وهو لما أمر الله به من المعاصيّ، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾ [٧]

إلى أن قال: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾[١] . فكانوا كفارا لتركهم ما أمر الله تعالى به، فنسبهم إلى الايمان بإقرارهم بألسنتهم على الظاهر دون الباطن [٢]، فكان

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي : ٦٩ / ١٠٠
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) البقرة : ٧٨
(٤) البقرة : ٦
(٥) النمل: ١٤
(٦) البقرة: ٨٩
(٧) البقرة: ٨٤

جزاؤهم الخزي في الحياة الدنيا والعذاب الشديد يوم القيامة، والآية المباركة نفسها تبين ذلك .

- الكفر الذي حكاه تعالى عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾ [٣] ، فهنا الكفر يقابل البراءة ، أي تبرأنا منكم . وقال سبحانه في قصة إبليس وتبريه من أوليائه من الانس إلى يوم القيامة: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ**﴾ [٤].
- كفر النعم: قال الله تعالى عن قول سليمان عليه السلام: ﴿**قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ [٥]. وقال عزَّ وجل : ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ [٦]. وقال تعالى أيضًا: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ [٧].

وقد جاء من ذكر الشرك في كتاب الله تعالى من أربعة أوجه [٨] ، وفي كلٍّ وجه من هذه الوجوه يؤيده بآية كريمة :

١- شرك القول والوصف : ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [٩].

٢- شرك الأعمال : ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [١٠]، وقوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[١١]، ألا إنهم لم يصوموا لهم ولم يصلوا ولكنهم أمروهم ونهوهم فأطاعوهم، وقد حرموا عليهم حلالا وأحلوا لهم حراما فعبدوهم من حيث لا يعلمون، فهذا شرك الأعمال والطاعات. [١٢].

---

(١) البقرة : ٨٥
(٢) ظ: بحار الأنوار: ٦٩ / ١٠١
(٣) الممتحنة : ٤
(٤) إبراهيم : ٢٢
(٥) النمل : ٤٠
(٦) إبراهيم: ٧
(٧) البقرة: ١٥٢
(٨) بحار الأنوار: ٦٩ / ١٠٢
(٩) المائدة : ٧٢
(١٠) يوسف : ١٠٦
(١١) التوبة: ٣١
(١٢) ظ: السراج المنير، الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ)، ط٢، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٤١١هـ : ١ / ٦٩٢ ، ويُنظر : بحار الأنوار : ٦٩/ ١٠٢

٣- شرك الزنا: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ [١].

٤- شرك الرياء: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[٢]، فهؤلاء صاموا وصلوا واستعملوا أنفسهم بأعمال أهل الخير إلا أنهم يريدون به رئاء الناس فأشركوا لما أتوه من الرياء، فهذه جملة وجوه الشرك في كتاب الله تعالى.

ومُثْلُ ذلك فسَّر الامام علي (عليه السلام) كلمة (الظلم)[٣]، وأورد فيها وجوها شتى، فيظهر لنا أنَّ الإمام علي (عليه السلام) جمع آيات الكفر والشرك والظلم وألقى فيها نظرة كليَّة موسّعة . وغيرها من الموضوعات القرآنيّة التي أفردها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في البحث والدراسَّة وهي التفاتة مبكرة ومباركة في ضم آيات القرآن الكريم بعضها إلى بعض، وهذا ضربٌ من التفسير الموضوعيَّ في خطواته وجذوره الأولى .

ومن الأسس الأخرى التي أشرنا إليها وكانت محل الاختيار من وجهة نظرنا، إذا عُدَّت من المنطلقات والجذور الأساسيّة للتفسير الموضوعيّ ، هي :

- قاعدة الجريّ والتطبيق .
- نظرية التدبر في القرآن .
- عقلية المفسر .

وقد وقع اختياري على هذه الأسس ؛ لأنَّ من خلال التتبع والاستقراء لجهود العلماء في علم التفسير، وعلم معاني القرآن وإعجازِهِ، وعلوم القرآن، لا أكادُ أرى عالمًا في هذه العلوم إلا وقد استعان بهذه الأسس وهذه المنطلقات، فثبوت التفسير الموضوعيّ كان موجودًا عن القدماء، فالزمخشريّ مثلًا كانت تلك الرؤية حاضرة لديهِ ولكنه لم يصرح بها، ومثال على ذلك عندما تعرض للفظة (اليمين) في القرآن الكريم ، فقد صرَّح بأنَّ لفظة اليمين تدل على الإيجاب في القرآن كله: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ [٤]، ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ**﴾ [٥]، ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ**﴾ [٦]، فدائما يقدم جهة اليمين؛ لأهميتها و لشرافتها ، فضلًا عن ذلك فهي مصدر القوة؛ لأن اليمين أقوى

---

(١) الإسراء : ٦٤
(٢) الكهف: ١١٠
(٣) ظ: بحار الأنوار: ٦٩/ ١٠٤- ١٠٦
(٤) الصافات: ٩٣
(٥) الواقعة: ٢٧
(٦) المعارج: ٣٧

الجارحتين وأشدّهما [١]. هنا استعمل الزمخشريّ قدرته العقليّة للتدبر في كتابِ الله تعالى في رصدِ الآيات المباركة التي تتحدث عن الموضوع الواحد .

ووجدتُ الفخر الرازيّ مثلًا عندما يتحدث عن قوله تعالى : ﴿**وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**﴾[٢]، فيطرح السؤال : ما الفائدة في قوله : (يطير بجناحيه) ؟ مع أن كلّ طائر إنما يطير بجناحيه! وهذا ضربٌ من المبالغة والتأكيد [٣]، ومثلهُ : ﴿**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ**﴾ [٤] ، ففيه سؤال أيضًا: وهو أن السقف لا يخر إلا من فوقهم، فما معنى هـذا الكلام؟ [٥] فهو أيضًا يراد منه التأكيد والمبالغة وإقرار الدلالة، وهذا ضربٌ من التفسير الموضوعيّ .

وغيرها من الإشارات الاستباقية لعلماء: التفسير، و البيان، وعلوم القرآن التي أشرنا إليهـا في الفصل الثاني، والتي وضعناها ضمنِ مرحلة الثابت في التفسـير الموضـوعيّ ، لكنهم لم يبحثوا في التفسير الموضوعيّ بوصفهِ علمًا محددًا، له منهج وطريقة وخطّة ، بالطريقة المعتمدة نفسها في العصر الحاضر، ولكننا نعدُّ هذهِ الإشارات وهذهِ الدراسات من باب التفسير الموضوعيّ .

ثمَّ بعد ذلك انبثقتْ الدّراسات القرآنية المعاصرة القريبة من التفسير الموضُوعيّ، أي تلك التي أُختصت بجانب محدد، فقد اندفعت رغبات الدّارسين والمؤلفين إلى الإقبال للقرآن، وإصدار دراسات قرآنية متعددة حوله، وهي كثيرة جدًا، منها على سبيل المثال لا الحصر : (من وصف القرآن – يوم الدّين والحساب) لشكري عيّاد. ومنها (التفسير العلمي للآيات الكونيَّة) لحنفي أحمد، وأيضًا (خصائص التصور الإسلامي، ومقومات التصور الإسلامي، ومعالم في الطريق) لسيد قطب، ومنها (ظاهرة النفاق في القرآن) لعبد الرحمن حبنكة الميدانيّ، و (متشابه القرآن – دراسة موضوعيَّة) للدكتور عدنـان زرزور ، ومنها (الإنسان في القرآن الكريم) للدكتور محمد لطفيّ الصباغ ، وغيرها . هذه الدراسات ماهي إلا نماذج تمثل التفسير الموضوعيّ في مرحلتهِ الأولى .

بعدها شرع الباحثون للغورِ في هذا المضمار (التفسير الموضوعـيّ المتـغيّر) ، إذ تنوعت الدّراسات وتكثرت البحوث بالإبداع والجمال والإشعاع الفكري المتنور؛ لذلك سميناه بالمرحلة الناضجة ؛ لأنَّ المنظومة قد تكاملت واكتسبت قواها من الجوانب كُلّها، حتى أصبح علمًا قارًّا له تعريفه و قواعده وشروطه وأنواعه ، فاتجهت أنظار الباحثين

---

(١) ظ: الكشّاف : ٤ / ٥٠
(٢) الأنعام: ٣٨
(٣) ظ: مفاتيح الغيب: ١٢ / ٢١١
(٤) النحل: ٢٦
(٥) ظ: مفاتيح الغيب : ٢٠ / ٢٠

حوله، لأنهم عدَّوه تفسير العصر والمستقبل معًا، وهذا التفسير يحقّق للمسلمين فوائد كثيرة من حيث صلتهم بالقرآن الكريم وتعرفهم على مبادئهِ وحقائقهِ ومقاصده والوصول إلى أعلى مراقيّ التدبر والتفكّر.

فمن خلال التفسير الموضوعيّ تظهر حيويَّة القرآن الكريم وواقعيَّتهِ، إذ إنهُ يجري مجرى الشمس والقمر ومجرى اللّيل والنّهار، فالقرآن الكريم كما أشرنا - من قبل - ليس كتابًا تاريخيًا يحكي لنا وقائع وأحداث الأمم الغابرة، وإنما هو كتاب حيّ باقٍ مع الوجود، من ذلك نظر الباحثون على أنَّ آياته وموضوعاته ليست خاصَّة بمن نزلت فيهم فقط ، فكل تلك الموضوعات وكل تلك الآيات تعدُّ علاجًا أساسًا لمشكلات الواقع والمستقبل، لذا عدّوا (التفسير الموضوعيّ) هو المنهج القادر على تحقيق هذا الهدف.

من هذا المنطلق بدأ التفكير في إعمال الفكر البحثيّ والتأليفيّ، في هذا المضمار، فكثرت الكتب والدراسات التي تناولت القضايّا المتصلة بالتفسير الموضوعيّ بفرعيه العام والخاصّ. فأصبحَ (التفسير الموضوعيّ) في هذه المرحلة أساسَ الدراسات القرآنيَّة.

وبعد أنْ أوضحتُ مظاهر تكوين المصطلح واستقراره، وبدا لي مراحل نموه وخطواته الأولى ومن ثم الدراسات القريبة منه إلى أن أصبح منهجًا قارًّا. والمخطط الآتي يوضح أهم ما دُرس حول هذا الاتجاه الهام، والتي تكاد تكون مشتركة في بعض الأحيان :

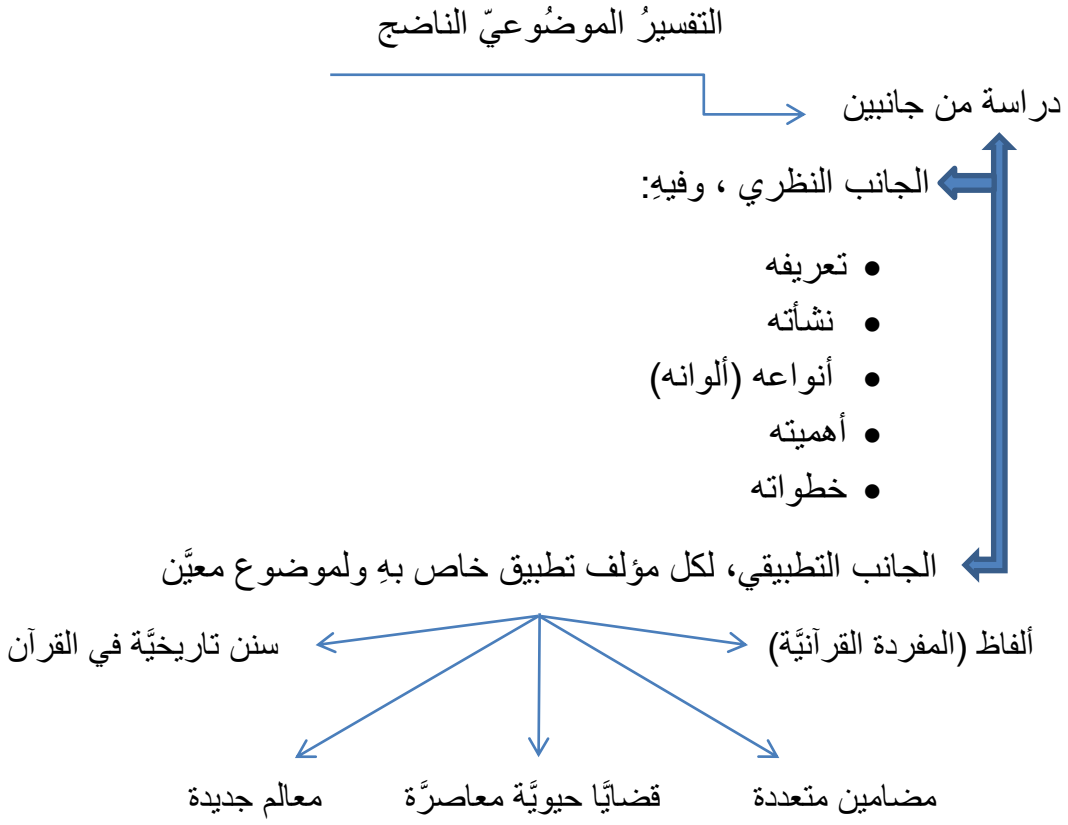

من ذلك بدا لي أنَّ تعريف التفسير الموضوعيّ الناضج هو: علمٌ يختصُّ بالكشفِ عن القضايّا التي تضمنتها آيات القرآن الكريم من خلال سورة أو أكثر ، أو مجموعة من الآيات في قضيّة معينة لبيان الأحكام والحقائق القرآنيّة في جوانب الحياة المختلفة بقدر الطاقة البشريّة، وتوظيفها في الواقع التداولي ، بمعنى كيفية الافادة من الموضوعات القرآنية المثالية في سموِّ المجتمعات الانسانية والوصول بها إلى أعلى درجات التمسك بالقيم والمثل النبيلة .

أما الحديث عن نشأة هذا اللون من التفسير فقد انقسمت فيه أوجه الرأي على قسمين:

الأول : يرى أن التفسير الموضوعيَّ قديم، وله مؤلفاته الخاصَّة بهِ، وهذا ما حدا بالذهبيّ محمد حسين أن يقول: ((وكذلك وجد من العلماء من ضيَّق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة ، فابن القيم – مثلًا – أفرد كتابًا من مؤلفاتهِ للكلام عن أقسام القرآن سماه "التبيَّان في أقسام القرآن" ... وأبو جعفر النحاس أفرد كتابًا في أسباب النزول، والجصاص أفرد كتابًا في أحكام القرآن ، وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوعٍ خاصّ في القرآن يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث)) [١] .

وهو ما ذهبنا إليه وأيدناه بالبحثِ من خلال رصد البدايات والجذور والأسس الأولى التي عددناها لبنات تمهيديَّة لهذا العلم الذي اكتسب شهرته وشيوعه في العصر الحاضر .

الثاني: يرى بأنَّ التفسير الموضوعيّ حديث النشأة، ويمثلهُ أمين الخوليّ ، الذي بيّن ذلك من خلال نقدهِ التفسير القديم (التجزيئي) والذي عدَّهُ مفرقًا لموضوعات قد تتضمنها السورة الواحدة[٢]، مبيّنًا أنَّ السابقين حتى وأن وجدت موضوعات مستقلة في كتبهم إلا أنَ بعضهم أعتمد الطريقة التقليديَّة في التفسير وهي أن يفسَّر القرآن حسب ترتيبه بالمصحف، سورًا وقطعًا ، لذلك عدَّ الأساس الصائب في منهجه أن يفسر القرآن حسب الموضوعات المختلفة، فهو منهج حديث يجب الأخذ بهِ.

ويبدو لي أنَّ التفسير الموضوعيّ بوصفهِ منهجًا فهو معاصر، قام به العلماء والباحثون المعاصرون في تدبرهم للقرآن الكريم ، وهذا يعني أنَّ العلماء السابقين في الحقل التفسيريّ لم يبحثوا في التفسير الموضوعيّ بالطريقة نفسها المعتمدة والمعروفة في عصرنا ، فاذا لم يفعلوا ذلك فهذا لا يعني أن لا يكون للتفسير الموضوعيّ بدايات عندهم، لكن تجلياته أقل رونقًا من تجلياته المعاصرة، فهو موجود بوصفهِ منهجًا تفسيريًا عندهم من خلال عرضنا للمنطلقات والأسس ، وكذا الإشارات الاستباقيّة للعلماء .

---

(١) التفسير والمفسرون : ١ / ١١٠

(٢) ظ: مناهج تجديد ، الخولي / ٣٠٧

أما الوان أو أنواع التفسير الموضوعيَّ (المتغيّر) فوجدنا أنها على ثلاثة أنواع :

الأول: التفسير الموضوعيّ للمفردة القرآنيَّة (المصطلح القرآنيّ) [١].

الثانيّ: التفسير الموضوعيّ لموضوع قرآني معيَّن [٢].

الثالث: التفسير الموضوعيّ للسورة القرآنية [٣].

أما أهمية التفسير الموضوعيّ في مرحلة النضوج فيمكن توضيحها بالآتي :

١- تجديد الأفكار وتطويرها، من خلال التفسير الموضوعيّ يمكن خلق أفكار علميَّة رصينة تساعد على مواجهة الأسئلة العصرية الحديثة وقد تكون أسئلة محرجة بحاجة لمجابهتها المزيد من البحث والاستقصاء لذلك عُدَّ التفسير الموضوعيّ السلاح الأقوى في مواجهة

---

(١) وجدتُ من عمل على هذا اللون من التفسير (المحدثين) وأهمهم : أمين الخولي وعائشة عبد الرحمن ،لكنهم لم يطلقوا عليه بالتفسير الموضوعيَّ. هذا اللون من التفسير مختص في بيان المصطلحات والمفردات القرآنية، إذ يختار الباحث أو الدارس لفظة معينه من القرآن الكريم، يحاول دراسة تلك اللفظة دون غيرها وأفرادها ببحثٍ خاصّ، فيتتبع ذلك اللفظ ويحاول أن يجمع مرادفاته من القرآن كله، ثم يلحظ اشتقاقاته وتصريفاته المختلفة، وينظر مرة أخرى إلى الآيات المباركة ، ويستخرج منها الدلالات واللطائف والحقائق . ومن تلك الدراسات مثلًا:

- الوحيَّ في ضوء التفسيرُ الموضوعيَّ ، د. حكمت عبيد الخفاجي .
- مادة (جهل) في القرآن الكريم ، د. صلاح الخالديّ .
- الاعتصام في القرآن – دراسة موضوعية، أعداد: الدكتور دُريد موسى داخل الأعرجي.

وهناك مصطلحات وألفاظ متعددة كثيرة يمكن أن تدرس دراسَّة موضوعيَّة منها مثلًا: ((الخفاء ، الانسلاخ ، الجهاد ، الأمة ، العدل ، المنافقون، الفقر، الصبر ، الطاعة ... وغيرها)) .

(٢) هذا النوع من التفسير هو الأقرب أن نطلق عليه بالتفسير الموضوعيّ (المتغيّر في مرحلته الناضجة)؛ وذلك لأن محاور البحث فيه توسعت ولم تقتصر على بيان المفردة القرآنية وحدها ، بل اشتمل على بيان موضوع محدد وعرضه على القرآن الكريم كله، فهذا اللون من التفسير الموضوعيَّ يهتم بموضوعات القرآن عامَّة ، فيكون بحث المفسر فيهِ أوسع وأشمل من السابق، يحاول الباحث فيه جمع الآيات القرآنية التي تساعده في بيان هذا الموضوع واستحصال نتيجة مفيدة ، ومن أمثلة هذا النوع وأهمها (السنن التاريخية في القرآن الكريم، للسيد محمد باقر الصدر)، وموضوعات : (الفقه والأمثال ، والجدل والأقسام) هي مواضيع ناطقة على أهمية هذا النوع من التفسير، وأيضًا هناك الكثير من الموضوعات التي دُرست والتي لم تدُرس بعد اعتمدت هذا اللون من التفسير .

(٣) هذا اللون هو خاص بسورة معينه (منفردة)، يقوم الباحث فيه باختيار سورة من القرآن وينظر إليها نظرة شاملة ويفردها عن بقية السور، وهذا النوع من التفسير ذكره أستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ في حديثه عن أنواع التفسير وعدَّه النوع الأول منه وقال في وصفه : ((بالرغم من قيام المفسرين بتفسير القرآن تسلسليًا إلا أنَّ بعضهم نظر إلى السورة نظرة احاطة وشمول مع بيان أغراضها الخاصة والعامَّة وربط الموضوعات بعضها مع بعض مهما تعددت موضوعاتها وتباينت مناسبات نزولها ...)) التفسير الموضوعيَّ للقرآن الكريم وموضوعاته / ٢٦ . وقد سار جملة من الاعلام على هذا النوع من التفسير بعد تأصيله من قبل العلماء السابقين أمثال : (الشيخ الطوسي في التبيان) و (الطبرسي في مجمعه) و (الرازي في تفسيره – مفاتيح الغيب-) ومن أعلامنا المحدثين أمثال : (محمد عبدُهُ في تفسيره) و (محمد رشيد رضا في المنار) و (ومحمد حسين الطباطبائي في الميزان) ، وغيرهم .

وقال الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) في هذا: ((إنَّ السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي تكون قضيَّة واحدة، تهدف إلى غرض واحد، أو تسعى لإتمامه، وإن اشتملت على العديد من المعاني)) الموافقات : ٤ / ٢٧٤ .

وفي عصرنا الحديث فقد ظهر لنا أنَّ سيد قطب كان مولعًا بعرض أسس كل سورة من القرآن الكريم وأهدافها، قبل أن يبدأ بتفسيرها فيبين مراميها وملامحها المميزة عن بقيّة السور، فيعدُّ كتابه (في ظلال القرآن) أنموذجًا جيدًا لإظهار هذا النوع من التفسير. وبخاصةً مقدمة تفسيره لكل سورة ، يُنظر: مباحث في التفسير الموضوعيَّ، مصطفى مسلم / ٢٩

ذلك. فالحاجة ماسَّة في هذا العصر لتجديد أساليب البحث لمجاراة الحالة الراهنة، وهذا ما دفع العلماء في الكتابة لدراسات موضوعيَّة هادفة، ناطقة عن القرآن ، فكتب عباس محمـود العقـاد : (المرأة في الإسلام) و (الإنسان في الإسلام) وعزة دروزة أيضًا كتب (اليهود في القرآن) ، وما كُتب حول (الرجولة في القرآن ، والأخلاق في القرآن) لأحمد الشرباطيّ. والأهم من ذلك كلهُ ما جاء في محاضرات السيد الصدر حول منهج التفسير الموضوعيّ ، وكيف طبَّقه في السنن التاريخيَّة، وكذا تحليله لعناصر المجتمع .

لذا فأنَّ تجديد حاجات المجتمعات وتفشيّ أفكار جديدة على الساحة الإنسانيّة وانفتاح ميادين للنظرات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم [١] .

٢- التفسير الموضوعيّ يُعدُّ الأساس في ديمومة القرآن الكريم واستمراره المعجز مع الوجود واتصافه بمادة الخلود ، وكما بينا أن القرآن من خلال التفسير الموضوعيّ يجري مجرى الشمس والقمر ويجري مجرى الليل والنهار، فتظهرُ هنا واقعيّة القرآن وحيويتهِ .

٣- اظهار مدى حاجة الإنسان المعاصر إلى الدين عمومًا، وإلى الإسلام خصوصًا، واقناعه بأنَّ القرآن هو الذي يحقق له حاجاته؛ لأنَّ ذلك الإنسان يجد السهولة واليسر في تعاطيهِ مع الآيات المباركة التي تتحدث حول الموضوع الواحد والتي يربطها رباط واحد لتحقيق غاية واحدة ، فيكون رغبته في الاطلاع على كتب التفسير الموضوعيّ أكثر من اطلاعهِ على كتب التفسير التسلسلي ؛ وذلك لطول الشوط في التسلسلي، وأحيانًا لا يجد فيها ما تطلبه حاجته .

فالدراسات والمؤلفات في التفسير الموضوعيّ محدودة وحجمها صغير عندما تُقاس بمجلدات التفسير التحليلي، أما الموضوعيّ فيمكن اصدار كل موضوع في كتاب، وهذا أدى للإقبال عليهِ، وقراءتهِ بيسر، واستيعاب أفكاره [٢] .

٤- القرآن الكريم هو المصدر الأساس للدّراسات الإسلامية، ومن هذا المنطلق فالتفسير الموضوعيّ حقق هذا الشرط وأعتمد هذا الأساس. فمن خطواته الأولى هي الاعتماد على آلية تفسير القرآن بالقرآن، فهو وسيلة ضرورية منهجيَّة لتقديم القرآن تقديمًا علميًا منهجيًّا لإنسان هذا العصر، وإظهار عظمة هذا القرآن، وحسن عرض مبادئهِ وموضوعاتهِ [٣].

---

(١) ظ: مباحث في التفسير الموضوعيّ، مصطفى مسلم / ٣٠

(٢) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبد الفتاح الخالديّ، ط٣، دار النفائس، عمان ١٤٣٣هـ/٥٨

(٣) ظ: المصدر نفسه/ ٥٦

أما فيما يتعلقُ بخطوات الدراسَّة واعتمادها على التفسير الموضوعيّ للموضوعات القرآنيّة، أو كيفيَّة منهج دراسته، فهي تكمن بالآتي :

١- المعرفة الدقيقة لمعنى التفسير الموضوعيّ، بهدف أن يكون الموضوع القرآني الذي يبحثه مندرجًا ضمن التفسير الموضوعيّ فعلًا [١].

٢- اختيار عنوان للموضوع القرآني بعد تحديد معالم حدوده، ومعرفة أبعاده من الآيـــات، وأن يكون موضوعًا قرآنيًّا فعلًا، وَرَدَ واضحًا في آيات القرآن [٢].

٣- جمع الآيات القرآنيَّة التي تبحث هذا الموضوع، أو تشـير إلى جانـب مـن جـوانبـهِ، وترتيبها حسب النزول [٣]. فاذا أراد مثلًا بحث موضوع (الرسول في القرآن) نظر في الآيات التي تتحدث عن: الرسول، والوحيّ، والنبي، والتبليغ، والكتاب والدعوة. ويختار منها الآيات التي لها اتصال مباشر بالرسول [٤].

٤- دراسة تفسير هذهِ الآيات دراسة وافيَّة، من كتب التفسير التحليلي. ومعرفة ما يتعلق بها من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، مع الاطلاع على الدّراسات والابحاث القرآنيَّة المعاصرة التي لها صلة بموضوعهِ القرآني، ومعرفة مدى ما يُستفاد في بحثهِ من هذهِ الدراسات [٥].

٥- بعد الاحاطة بمعاني الآيات مجتمعة يحاول الباحث أن يستنبط العناصر الأساسيَّة للموضوع من خلال التوجيهات القرآنيَّة التي أحاط بها أو التي استنبطها من الآيات المتعلقة بالموضوع ، وللباحث أن يقدم بعض العناصر الرئيسة على غيرها، إذا وجد أنَّ طبيعة البحث تقتضي ذلك، أو أنَّ تسلسل الأفكار المنطقي يلزم هذا التقديـم والتأخير [٦].

---

(١) ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ، د. عبد الستار فتح الله سعيد / ٥٦
(٢) ظ: مباحث في التفسير الموضوعيّ، د. مصطفى مسلم / ٣٧ ، ويُنظر: المدخل إلى التفسير الموضوعيَّ / ٥٦
(٣) ظ: مباحث في التفسير الموضوعيّ / ٣٧
(٤) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق، د. صلاح الخالديّ / ٨١
(٥) ظ: المخل إلى التفسير الموضوعيَّ / ٥٧- ٦٠ ، ويُنظر: مباحث في التفسير الموضوعيّ / ٣٧- ٤٠ ، و التفسير الموضوعيّ بين النظرية والتطبيق / ٨١- ٨٢
(٦) ظ: التفسير الموضوعيّ والفلسفة الاجتماعيَّة في المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، تقديم: جلال الدين عليّ الصغير، ط١، الدار العالمية، بيروت ١٤٠٩هـ / ٢٤

٦- استخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات المجموعة، بذكرِ الدلالات المستخرجة، وبيان موطن ووجه الاستدلال، والتركيز على الدلالات ذات البعد الاجتماعيّ والإنسانيّ المعاصر [١].

بهذه الخطوات يكون الباحث أو الدارس قد جمع المادة العلميَّة التفسيريّة، التي تهمهُ في تفسيرهِ الموضوعيّ (للموضوع القرآني) فبعد الاختيار (اختيار الموضوع) وجمع الآيات وترتيبها وتصنيفها ، ثم دراسة هذه الآيات دراسة وافيَّة، وتفسيرها اجماليًّا، وتسجيل ما يدور حول الآيات التي استخلصها لموضوعهِ ، ثم استخراج الدلالات والعبر واللطائف من الآيات المجتمعة التي اختارها لتكون عَونًا له في بيان موضوعهِ ليخلص إلى نتيجة معينة وإلى دراسة منفردة تتحدث عن موضوع واحد .

المطلب الثاني: مظهر التطبيق والتأليف

الكتب في التفسير الموضوعيّ (المتغيّر الناضج)

تأليف عام

الذي يتحدث عن المنهج بوصفه منهجًا متكاملًا

له خطواته و أعلامه وإجراءاتُهُ ، مثلًا:

التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ

تأليف خاصّ

(ألفاظ)

(مَعْلَمْ تفسيريّ مُهم)

(قصَّة)

(قضيَّة معاصرَّة)

د. حكمت عبيد الخفاجيّ

بعد استقرار المصطلح واكتمال المنهج واكتسابهِ الشهرة العلمية في ضوء بنائهِ وارساء أركانه توجهت أنظار الباحثين إلى الكتابة فيهِ وعدِّه منهجًا أساسًا في الساحة التفسيرية ، وقد عدَّ رواد هذهِ المرحلة المتكاملة بأنَّ التفسير الموضوعيّ هو أفضل من

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيَّ بين النظريَّة والتطبيق / ٨٢

التجزيئيّ واكثر منه خطوةً بالنسبة للعمليَّة التفسيريَّة المعاصرة ، ثم التأكيد على مسألة مهمَّة وهي عدم الاستغناء عن التفسير التجزيئيّ ، فإذا كانت الأفضليَّة للتفسير الموضوعيّ فهذا لا يعني استبدال اتجاه باتجاه وطرح التفسير التجزيئيّ رأسًا والأخذ بالتفسير الموضوعيّ، وإنما اضافة اتجاه إلى اتجاه؛ لأنَّ التفسير الموضوعيّ ليس إلا خطوة إلى الأمام بالنسبة للتفسير التجزيئيّ ، فهي مسألة ضم الاتجاه الموضوعيّ إلى الاتجاه التجزيئيّ فـي التفسـير [١].

ومن هذا المقام بدا لنا بأنَّ مؤلفات البحث في التفسير الموضوعيّ وتطبيقه أصبحت أوسع من المؤلفات في التجزيئي في العصر الحاضر؛ لأن التفسير الموضوعيّ قادرٌ على أن يتطور وعلى أن ينمو وعلى أن يثري ؛ لأنَّ التجربة البشريَّة ثريَّة، والدرس القرآنيّ والتأملُ القرآنيّ على ضوء التجربة البشريَّة يجعل هذا الثراء محمولًا إلى فهم اسلاميّ قرآنيّ صحيح [٢]. ولكن لو قورنت مصادر التفسير التجزيئيّ مع مصادر الموضوعيّ نجد أنَّ الموضوعيّ قليلة جدًا بالنسبة للتجزيئيّ ومصادر التفسير بصفة عامَّة، فهي كثيرة تضرب بجريانها في أعماق تاريخ التفسير عند بدأ المسلمين في عهد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) والصحابة المنتجبين (رضيَّ الله عنهم) من بعده إلى يومنا هذا ، وقلة المصادر للتفسير الموضوعيّ؛ لأنها حديثة العهد نسبيًّا، ذلك أنَّ التفكير في التفسير الموضوعيّ بصفة خاصَّة، والاعتماد على منهج خاص كان مقرونًا بظهور (مصطلح التفسير الموضوعيّ) أي في هذه المرحلة التي نتحدث عنها، وهو حديث العهد إذ هو وليد الثمانينيات من هذا القرن [٣].

ولكن التأليف بمنهج التفسير الموضوعيّ وتطبيقاته ظهرت في عصرنا الحاضر، إذ نضج فيها هذا التفسير بشكل واسع وكبير بشقيهِ (العامّ والخاصّ) :

أما العام فقد وجدتُ تجلياته واضحة ، عندما كَتَبَ فيهِ أعلامنا المعاصرون وأشبعوه بحثًا ودراسة حتى بات مسلمًا بهِ في الميدان التفسيريّ وأصبح منهجًا متكاملًا عندهم، إذ نجد ذلك في كتب متعددة، أهمها:

أولًا: البدايَّة في التفسير الموضوعيّ، لمؤلفه: الدكتور عبد الحيّ الفرماويّ .

وقد طبع في طبعته الثانية سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م ، وعنوانه الكامل (البدايّة في التفسير الموضوعيّ – دراسّة منهجيّة موضوعيّة) .

ويبدو أنَّ المؤلف قد شعر أنهُ يكتب في فترة تعد بدايّة لمنهج جديد من مناهج التفسير، ولذلك عدَّ كتابه (بدايَّة)، ونحسب أنَّهُ يعني بالبدايّة، أي : بدايّة شق الطريق

---

(١) ظ: المدرسة القرآنية ، محمد باقر الصدر / ٣٠ ، (ولا بُدَّ من الاشارة إلى أنَّ السيد محمد باقر الصدر يذكر الاتجاه بدلًا من المنهج، ويبدو أنَّ في طورِ التنظير له، فهو مشروع للوصولِ إلى المنهج).

(٢) ظ: المصدر نفسه / ١٩

(٣) ظ: مصادر التفسير الموضوعيّ، د. أحمد رحماني، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ١٤١٩هـ ، مقدمة الكتاب / ٣

الجديد بالنسبة له؛ وذلك لأنه أعتمد بعض المؤلفات التي عرضت للمنهج بوجه من الوجوه، مثل : كتاب (التفسير الموضوعيّ) للدكتور أحمد السيد الكوميّ ، وكتاب (الوحدة الموضوعيّة في القرآن) للدكتور حجازيّ ، وكتاب (الإنسان في القرآن الكريم) للدكتور أحمد مهنّا ، وغير ذلك من المراجع الحديثة التي أعتمدها في بحثهِ . لهذا يبدو أنه لم يكن يعني بالبدايّة ، النشأة أو الاهتمام الحديث، بقدر ما يعني بدايّة اهتمامه هو بالموضوع، ولكن هذا لا يعني أنَّ كتابه لم يكن قد ظهر في فترة مبكرة، إذ يعد ظهور الكتاب في طبعته الثانيَّة في هذهِ الفترة داخلًا في البدايّات على كل حال [١].

ولهذا السبب عدَّ الدكتور أحمد رحماني بأن هذا الكتاب لم يتصف بالإبداع والسبـق؛ فأنه يعدّ ثمرة قد نضجت بعض النضج في فترة مبكرة نسبيًّا، لا سيما إذا نظرنا إلى طريقة الطرح ومنهج صاحبه فيه على الخصوص [٢].

والكتـاب عـرض لمناهـج التفسيـر بصفـة عامَّـة فـي الصفحـات الأولـى ليمـهد لمنهج التفسير الموضوعيّ[٣]، ثم عرض الجانب النظريّ ، وبيَّن فيه تعريف التفسير الموضوعـيّ، والـذي عـدّه اصـطلاحًا مستحدثًا أطلقـه العلـماء المعاصـرون علـى : ((جمع الآيات القرآنيّة ذات الهدف الواحد – التي اشتركت في موضوعٍ ما- وترتيبها حسب النزول ما أمكن ذلك مع الوقوف على أسباب نزولها، ثم تناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط وإفرادها بالدرس المنهجيّ الموضوعيّ الذي يبين الباحث معه الموضوع على حقيقتهِ ويجعله يدرك هدفه بسهولة ويسر ويحيط به إحاطّة تامّة، تمكنه من فهم أبعاده والذود عن حياضهِ)) [٤].

والتعريف بهذا الشكل يركز على الخطوات والقواعد المنهجيّة المعتبرة في منهج التفسير الموضوعيّ أكثر من اعتماده على الخصائص الجوهريّة له [٥].

وما أن انتقلتُ إلى الجانب التطبيقيّ فيه، وجدتُ أنَّ الدكتور الفرماويّ قد طبَّق بعضًا من القضايّا الواردة في القرآن الكريم تطبيقًا موضوعيًّا ، فقد ضمَّ كتابه أربع مباحث ، وهي :

الأول: رعايَّة اليتيم في القرآن الكريم .

الثانيّ: أُمّية العرب في القرآن الكريم .

---

(١) ظ: مصادر التفسير الموضوعيّ، د. أحمد رحمانيّ / ٣٧

(٢) ظ: المصدر نفسه والصفحة

(٣) ظ: البدايّة في التفسير الموضوعيّ – دراسّة منهجيّة موضوعيّة، ط٢ ، مطبعة الحضـــارة العربـــية، غزّة ١٢٩٧هـ / ١ – ٤٠

(٤) المصدر نفسه / ٥٢

(٥) ظ: مصادر التفسير الموضوعيّ / ٣٨

الثالث: آداب الاستئذان في القرآن الكريم.

الرابع: غضّ البصر وحفظ الفرج في القرآن الكريم.

وقد أجاد في عرضهِ لتلك المباحث بأفرادها بالبحث والدراسّة مع تناوله الآيات التي تخدم موضوعه، وسنكتفي بالإشارة إلى الموضوع الأول لنبيّن منهج الفرماويّ في تطبيقه للتفسير الموضوعيّ .

حدّد الفرماويّ الموضوع تحديدًا دقيقًا، ثم بيَّن أن الموضوع يتناول مشكلة اجتماعيّة وهي (رعايّة اليتيم) وقد مهد لهُ بمقدمة قصيرة جدًا معبره عن مقصده من اختيارهِ للموضوع، ثم قسَّم الموضوع باعتبار زمن النزول إلى قسمين:

الأول: تناول فيه العهد المكيّ، وعرض فيه كل الآيات المتعلقة بالموضوع، ثم نظر فيها ووجدها ووزعها على عنصرين: الأول : رعاية اليتيم النفسـيّة، وجاء بآيــاته المبــاركة، ومثل ذلك أورد في الثاني: مال اليتيم.

الثاني: تناول فيه العهد المدنيّ، وبين أنَّ آيات هذا العهد منها ما هو خاص بـ(رعاية اليتامى في أنفسهم وأخلاقهم) ومنها ما يدعو لـ(العطف والإنفاق عليهم) [١].

من ذلك رأيتُ أنَّ الفرماوي استطاع ان يستخلص الآيات ذات الموضوع الواحد والتي تتعلق ب(اليتيم) وأن يحللها ويفقه معناها ويعرف مدلولاتها ويقف على حقائقها ، هذا من جانب، ومن جانب آخر استطاع ان يوظف تلك الآيات ويحلل فيها قضيّة اجتماعـية معاصرة، هي بحاجة إلى وقفه تأمل لينهض بالواقع بتحضر كما أرداه القرآن وأكد عليه الإسلام، وبين ما أكد عليه القرآن من خلال عرضه للآيات الخاصة باليتيم منها مثلًا :

١- معاملة اليتيم معاملة حسنه كما امر بها القرآن .

٢- تعليمه تعاليم الدين الاسلامي الحنيف، ليعكس ايجابًا على المجتمع .

٣- جعل اليتيم جزءًا لا يتجزأ من المجتمع ، فهو أحد افراده وله حقوق وعليه واجبات؛ لذا فالقرآن الكريم أمر بعدم عزل اليتيم عن المجتمع عزلًا اجتماعيًا أو نفسيًا .

---

(١) ظ: البداية في التفسير الموضوعيّ- دراسة منهجيّة موضوعيّة / ٥١- ٦٠ ، ويُنظر: مصـــادر التفســير الموضوعـيّ / ٤٠

ثانيًا : المدخل إلى التفسير الموضوعيّ للقُرآن الكريم ، للسيد محمد باقر الموحد الأبطحيّ.

جاء هذا الكتاب محاولة لترتيب الآيات حسب الموضوعات المختلفة، مع ملاحظة التسلسل الطبيعيّ بينها وبين الموضوعات. وقد طُبع طبعته الأولى في النجف الأشرف من مطبعة الآداب عام ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

أبتدأه بتمهيد، حول مقدمة الكتاب ذكر فيها فقراتٍ عدّة ، منها:

* سبب هذه الفكرة بالتأليف، والفائدة منها، كما قال : ((وعلماء التفسير لم يتغيروا في دراساتهم للقرآن عمّا درسه الجيل الأول حيث تدرجوا في تفسير القرآن آية فأية، وسورة فسورة، وقلما تراهم ينظرون إلى جميع ما أنزل الله في القرآن في كلِّ موضوع خاصّ من مواضيعهِ كوحدة متكاملة ، ونحن وإن تابعناهم في تفسيرنا هذا إلا أننا نشير في عرضنا للموضوع إلى الآيات الباحثة عن ذلك الموضوع والتي لها رابطة فيه)) [١].

فقد نَظر السيد محمد باقر الأبطحي إلى القرآن الكريم كوحدة موضوعيَّة متكاملة، فبعد ما بيّن أنَّ القرآن الكريم قد نزل نجومًا متفرقة؛ لأن طبيعة الدعوة تقتضي هذا التنجيم، أي مقتضيات هذه الدعوة العامة استدعت هذه التجزئة والتفريق في المواضيع التي يبحثُ عنها القرآن الكريم، ولكن بعد ما تمت الرسالة واستكملت النفوس أصبح من الواجب على مفسر كتاب الله الحكيم أن يبذل جهده لربط الآيات وإيصال بعضها ببعض، وتتبع نجوم القرآن ، ليعرف المطلق منها من المقيّد، والعام من الخاصّ، والمحكم من المتشابه، بل الجمع منها مما يؤكد على دلالتها ، بمعنى أنَّ واجب المفسر أن ينظر في الآيات مجتمعة متآصره تبني وحدة الموضوع وتؤلف أجزاءه [٢] .

* الأسلوب في التأليف بين الآيات المتوافقة في البحث: إذ راعى ما تقتضيه طبيعة البحث عن الموضوع من حيث تسلسل الحوادث التي يندرج بها كمال الموضوع، فقدّم بالبحث ما تقتضيه طبيعة البحث أن يتقدم، وأخر ما تقتضيه طبيعة البحث أن يتأخر، فالقرآن يبحث الموضوع كما نبحثه ، ويدرسه كما ندرسه [٣].

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم / ٦

(٢) ظ: المصدر نفسه / ٨

(٣) ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم/ ٨

*** التطبيق :**

تطرق إلى الموضوعات العامة في الخلقة [١]، وذكر فيها بعد استقراءهِ للآيات الكريمة التي تخصُّ الموضوع ، ومنها:

١- خلق السموات والأرض وما فيها، وأدرج تحتها المواضيع المتعلقة بهـذا الوصف [٢].
٢- الأرض والجبال . وأورد تحتها (اثنيّ عشرَ موضوعًا) [٣].
٣- السموات وما فيها . وما في السموات من الشمس والقمر والنجوم .
٤- ابواب الماء والسحاب .
٥- الأرض وما فيها من الأحياء .
٦- خلقة الأنسان وحالته الطبيعيّة .

ثم تطرق إلى أبواب الأنبياء وقصصهم [٤]، وذكر منهم:

١- آدم عليه السلام ، وادرج تحته (سبعةَ عشرَ) فِقْرةً تخصّ النبي آدم وبنيهِ ، وأدرج تحت كل فقرة الآيات المباركة الخاصَّة بهذا الموضوع .
٢- نوح عليه السلام ، ذكر فيه (اثنين وثلاثين) موضوعًا أبدأه بالاصطفاء ، وختمه بقصته في القرآن هي من أنباء الغيب .
٣- ثم ختم كتابه بقصة هود عليه السلام، بـ (اثنيّ عشرَ موضوعًا) بدأه برسالة هود إلى عاد بالأحقاف ودعوته، وختمها بالقرآن أنه يُذكر بقصة عاد وما فيها من العبر والمواعظ .

ذكر المؤلف في نهاية كتابه أنَّه أراد اتمام قصص الأنبياء إلى عيسى (عليه السلام) ويبثه في الجزء الثاني من الكتاب فيما يتعلق أيضًا بالرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) معترفًا بظروف قاهرة حالت دون أن يتمَّه فقطع الموضوع إلى الجزء الثاني [٥]، إلا أنني بحثتُ جاهدًا للوصولِ لهُ فلم أجده ، ويبدو أنَّ المؤلف لم يُوفّق لإتمامه والله أعلم بحقائق الأمور.

إلا أنَّ الحق يُقال : أنَّ المؤلف الأبطحي قد ساهم بشكل كبير في الغور بمنهج التفسير الموضوعيّ ، وقد خصص الآيات وأفردها في موضوعاتها المتعددة.

---

(١) ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم ، الأبطحي / ١٤- ٣٠
(٢) ظ: المصدر نفسه / ٣١ – ٣٦
(٣) ظ: المصدر نفسه/ ٤٣- ٥٢
(٤) ظ: المصدر نفسه / ٢٢٥ – ٢٧٢
(٥) ظ: المصدر نفسه / ٢٨٧

ثالثًا: محاضرات السيد محمد باقر الصدر وتجربته في التفسير الموضوعيّ [١].

إذ نجد تلك المحاضرات قد دونت في كتابين :

أ- المدرسة القرآنيّة ، صدر في طبعته الثانيّة عام ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م ، من دار الكتاب الإسلامي ، مطبعة ستار ببيروت .

ب- التفسير الموضوعيّ والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنيّة، من تقديم وتنقيح وتعليق : جمال الدِّين علي الصغير. صدر الكتاب في طبعته الأولى عام ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، من الدار العالميّة ببيروت .

رابعًا: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ، الدكتور عبد الستَّار فتح الله سعيد:

طُبع هذا الكتاب طبعته الأولى عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م ، أي بالمرحلة التي بدأ فيها التفسير الموضوعيّ يدخل مجال البحث بقوة في المصطلح وفي المنهج، وقد ذكر الدكتور أحمد رحماني أنَّ ما يميز الكتاب هو عنوانه إذ سمّاه صاحبه (المدخل إلى التفسير الموضوعيّ) يوحي بداية الاعتناء بالمفهوم وخطوات المنهج وقواعده، ثم تقديم نماذج للتفسير الموضوعيّ لتجسيم المفهوم الذي يقدمه المؤلف [٢].

ويبدو أنَّ رحمانيّ بوصفهِ هذا قد نسيّ أو فاته كتاب (المدخل إلى التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم) للأبطحي ، خاصةً وأنَّ التسمية مكررة ، وللأبطحي السبق إذ طُبعت النسخة الأولى منه قبل هذا الكتاب بفترة طويلة .

ولكنّهُ أشار إلى جهد السيد الصدر بنقده لسعيد أنّهُ لم يقف عليهِ مع أنّهُ صدر قبله بفتره معززًا كلامه بأنّهُ لم يعثر عليهِ! ، وخاصةً أنّهُ وقف على مؤلف أحمد الكومي (التفسير الموضوعيّ في القرآن الكريم) ، وكذا كتاب (البداية) للفرماويّ [٣].

بيد أنَّ هذا المبرر الذي أورده رحمانيّ بأنه لم يعثر عليه غير صائب؛ لأنَّ محاضرات السيد الصدر قد نُشرت اذاعيًّا في العالم العربي الإسلاميّ قبل أن تدون وكانت في متناول الجميع .

قَسَّم الدكتور عبد الستَّار سعيد كتابه على بابيّن :

الأول: دراسّة نظريّة للتفسير الموضوعيّ ، تناول فيها مفهوم التفسير بصفة عامَّة باختصار ، ثم خصص فصلًا لحقائق التفسير الموضوعيّ ، احتوى على ثمان

---

(١) سنعرض هذهِ التجربة الرائدة في التفسير الموضوعيّ الناضج بنوع من الانفراد والتفصيل في المبحث الثانيّ من هذا الفصل إن شاء الله تعالى . الذي تناول فيها التفسير الموضوعيَّ وتطبيقاته في السنن التاريخيّة وعناصر المجتمع في القرآن الكريم .

(٢) ظ: مصادر التفسير الموضوعيّ / ٤٩

(٣) ظ: المصدر نفسه والصفحة .

مبـــاحث، أورد فيها: معنى التفسير الموضـــوعيّ وأنواعــه ومناهــجه ونــشأته وتطوره ، وأسباب ذلك التطور، وأهميته و فوائده ، وخطواته [١] .

الثاني: خصّص في هذا الباب ذكر نماذج تطبيقيّة في التفسير الموضوعيّ ، درس فيه خمس موضوعات ، وهي :
١- الوحدانيّة والتوحيد في القرآن الكريم.
٢- المعيّة في ضوء القرآن الكريم.
٣- التبعيّة في ضوء القرآن الكريم .
٤- العلم والعلماء في ضوء القرآن.
٥- الآخرة ومشاهدتها في ضوء القرآن .

في ضوء ما تقدم نجد أنَّ الكتاب مساهمة جديدة في مجال التفسير الموضوعيّ، نعم التجربة ناضجة في هذا المنهج ولكنها من الممكن أن تكون أكثر نضجًا لو أنَّ صاحبها التفت إلى تجربة أكثر رونقًا ، وهي محاضرات في التفســير الموضوعيّ للسيد محمد الصدر ، خاصّةً وأنَّ تجربته كانت ناضجة وعميقة في بيان المفاهيم أو في التطبيقات لهذا النوع من التفسير ، ونحسب أنَّ الدكتور عبد الستار سعيد لو أضــاف تجربتــيّ (الكومـيّ ، والفرماويّ) للاستفــادة من تجــربة الصدر ، وكذا تجربة محمد محمود حجازيّ الموسومة (بالوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم)، لكان بحثه قد اتجه وجهة أكثر عمقًا وتنوعًا ؛ لأن تجربة الصدر على وجه الخصوص ستعمق المفهوم في إطار المنهج التجميعيّ خاصّة، وفي إطار المنهج الكشفيّ بصفة ما [٢].

خامسًا : مباحث في التفسير الموضوعيّ، الدكتور مصطفى مسلم .

ظهر هذا الكتاب في طبعتهِ الأولى بدمشق عام ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ولكن بين يديَّ الآن الطبعة الثالثة منه التي صدرت من دار القلم بدمشق أيضًا عام ١٤٢١هـ ، وهو كتاب تناول التفسير الموضوعيّ من جانبين : نظري، وتطبيقي أيضًا .

ونلمح في ضوء بحثه النظريّ أنّهُ لا يختلف كثيرًا فيما أورده الدكتور فتح الله سعيد، ولكن الشيء الذي يحسب على منهجيته بالبحث أنَّهُ أورد الكثير من التعريفات للتفسير الموضوعيّ ولم ينسبها إلى أصحابها [٣].

---

(١) ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ ، سعيد / ٣٠ ــ ٥٦
(٢) ظ: مصادر التفسير الموضوعيّ / ٥١ ــ ٥٢
(٣) ظ: مباحث في التفسير الموضوعيّ/ ١٦

قسّمَ مناهج البحث في التفسير الموضوعيّ على قسمين [١]:

١- منه البحث في تفسير موضوع من خلال القرآن الكريم ، وهذا ذكرناهُ سالفًا في حديثنا عن خطوات المنهج [٢].

٢- منهج البحث في التفسير الموضوعيّ لسورة واحدة [٣].

وفي ضوء هاتين المنهجيتين اعتمد مصطفى مسلم إلى إجراء تطبيقات عليهما في كتابهِ ، وذلك بعد تعرضه لعلم المناسبات وعلاقته بالتفسير الموضوعيّ [٤].

بعدها ابتدأ تطبيقه على موضوع من خلال القرآن الكريم ، بعنوان (الأُلوهيَّة من خلال آيات القرآن) [٥]، وقد توسّع فيه وجاء بالكثير من الأمثلة تحت عناوين موسعة مما لا مجال لذكرها .

وجاء بمثال تطبيقيّ آخر تحت عنوان (القيم في ضوء سورة الكهف)[٦]. والدراسّة جادَّة ما في ذلك شك، وقد أفادت في تقديم الموضوع من زاويّة القيّم، ولكن في الحديث عن أهداف السورة التي ذكر ثلاثةً منها فقط وهي: الدعوة إلى التوحيد، وبيان صدق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، ولم يعرض للقيّم، فكيف يمكن أن يكون موضوع السورة القيّم ولا تكون القيّم أحد الأهداف؟! [٧].

سادسًا : تجربة أستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ فِي التفسير الموضوعيّ [٨].

وهو بحث (رسالة) لنيل درجة الماجستير في أصول الدِّين سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، وكانت بعنوان : (التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم) ، وقد أشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور (مُحمد حُسين عليّ الصغير) ، بعد ذلك طبعت تلك الرسالة لكتاب في طبعته الأولى عام ٢٠١٣م، الذي صدر من مؤسسة الرضوان في عمان ، وأعاده طباعته مؤسسة الصادق في الحلة، ولأهمية الموضوع عندهُ أورد كتاب

---

(١) ظ: مباحث في التفسير الموضوعيّ / ٣٥

(٢) المتمثلة في (اختيار عنوان الموضوع، جمع الآيات المتعلقة فيه، ترتيب هذهِ الآيات حسب النزول، تفسيرها من كتب التفاسير القديمة، استنباط عناصرها الأساسيّة ، ثم العودة إلى الطريق الإجماليّ في عرض الأفكار مع استهداف الآيات القرآنيّة) يُنظر: المصدر نفسه / ٣٧ .

(٣) ذكر فيه (معرفة أساب النزول ، التعرف على الهدف الأساسي للسورة، تقسيم السورة إلى مقاطع، ربط هذهِ المقاطع ببعضها من جهة، وربطها بالهدف الأساسيّ للسورة من جهة ثانيّة)

(٤) ظ: مباحث في التفسير الموضوعيّ / ٥٧

(٥) ظ: المصدر نفسه / ٩٥- ١٦٤

(٦) ظ: المصدر نفسه / ١٦٩- ٢٨٩

(٧) ظ: مصادر التفسير الموضوعيّ/ ٦٩

(٨) سنعرض هذهِ التجربة الرائدة في التفسير الموضوعيّ الناضج بنوع من الانفراد والتفصيل في المبحث الثانيّ من هذا الفصل إن شاء الله تعالى . الذي تناول فيه التفسير الموضوعيّ وتطبيقاته في رصد الموضوعات القرآنيّة المتمثلة في (فقه القرآن وأمثالهِ وجدله وأقسامه) ، وكذا التطبيق الذي دار حول محاور قصَّة هود (عليه السلام).

آخر سماه (دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ) صدر في طبعته الثانيّة عام ٢٠٢٠م من مؤسسة الصادق الثقافية .

وإذا سلطتُ الأنظار حول هذه الدراسات المتقدمة في التفسير الموضوعيّ فهذا لا يعني إنني تناسيتُ غيرها ولكنني وجدتُ أن تلك الدراسات قد نضج فيها هذا المنهج وخاصةً النظريّة منها إذ تناولُ مؤلفوها من جوانبهِ جميعها، و قـد عُدَّ في هذهِ المرحلة منهجًا متكاملًا، يُشارُ إليهِ بالأهميَّة في الساحة التفسيريّة؛ لأنَّه كما ذكرتُ سابقًا بأنّهُ تفسير العصر والمستقـبل معًا ، وسأكتفي بالإشارة إلى بعض من الكُتب التي انتهجت هذا النهج ليتسنى للباحث أو الدارس الاستزادة أو الإفادة من هذهِ المؤلفات لأنَّ أغلبها تستحق الدراسة والوصف وأن تخللها بعض الضعف سواء على مستوى منهجيّة البحث والتنظير أم على مستوى العمل فيه والتطبيق، ومن هذهِ الكتب أو المؤلفات المعاصرة، هي :

- الفتوحات الربانيَّة في التفسير الموضوعيّ، للدكتور أبي فرحة الحسينيّ.
- دراسات في التفسير الموضوعيّ، د. أحمد العمريّ [١].
- التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم، د. أحمد السيد الكوميّ.
- منهج التفسير الموضوعيّ. دراسّة تطبيقيّة على آيات الحجاب في القرآن الكريم، د. صبري المتوليّ.
- التفسير الموضوعيّ للقرآن، الشيخ الآملي .
- دراسات في التفسير الموضوعيّ، د. زاهر عواض الألمعيّ.
- التفسير الموضوعيّ للقرآن في كفتيّ الميزان، د. عبد الجليل عبد الرحيم.
- التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق ، دراسة نظرية تطبيقيّة مرفقة بنماذج ولطائف التفسير الموضوعيّ ، للدكتور صـلاح عبد الفتـاح الخـالدي [٢].
- المدخل إلى التفسير الموضوعيّ ، د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحُميصيّ ، مُؤلَّف معاصر في هذا المنهج ، وبين يديَّ الطبعة الثالثة ، الصادرة من دار ابن الجوزيّ، عام ١٤٤٢هـ ، وعلى الرغم من تكرار عنوان الكتاب إلا أنَّ مؤلفهِ قد تناول تلك الدراسّة بخطوات منهجيّة منظمة ، أبتدأ بالتأصيل في القسم الأول [٣] ثم القسم الثانيّ من الكتاب تناول فيهِ نماذج تطبيقيّة في التفسير الموضوعيّ [٤].

---

(١) ظ: المدخل إلى علم التفسير، د. دريد موسى داخل الأعرجي، ط١مؤسسة دار الصادق، بابل، ١٤٣٧هـ/ ١٦

(٢) وجدتُ أنَّ هذه الدراسة تسحق الانفراد والتفصيل لأنني رأيتُ التكامل والنضوج فيها من الناحيَّة النظرية والتطبيقية معًا، وخاصةً عندما قدَّم مؤلفهِ أمثلة تطبيقيّة على الألوان أو الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعيّ : (التفسير الموضوعيّ للمصطلح القرآني، وللموضوع القرآني، وللسورة القرآنيّة) ، الأمر الذي دفعنا إلى أن نضعها مع تجربتيَّ السيد الصدر ، والدكتور حكمت الخفاجي في المبحث الثاني من هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

(٣) ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ، د. إبراهيم بن صالح الحميصيّ، ط٣، دار ابن الجوزي، ١٤٤٢هـ / ١١ – ٥٧

(٤) ظ: المصدر نفسه / ٦٣ – ١٩٢

وغيرها من البحوث والدراسات التي تخصصت في هذا المجال، والتي غفلنا عن ذكرها أو التي لم نقف عليها ، لذا تُعدّ هذهِ المرحلة المعاصرة التي تكثرت فيها هذهِ البحوث من مراحل النضوج والإبداع وتكامل قوى هذا المنهج وتطوره بشكل ملحوظ .

المطلب الثالث: خصائص مرحلة النضوج للتفسير الموضوعيّ

من ثمرات التفسير الموضوعيّ وخصائصه الجليَّة أنّهُ يعطي مدًّا جديدًا لانتشار تعاليم هذا القرآن وتناولها بالدراسات في وحدة موضوعيّة؛ ذلك لأنَّ التوافر على موضوع واحد معيَّن وتتبع موارده ومآخذه في القرآن كله مكيَّه ومدنيّه بتجليّة جوانبه كلها، يهيئ له من العنايّة والبيان والدراسة ما لا يتهيأ له لو دُرّس في أثناء التفسير العام، كما أنَّ هذا النوع من التفسير يفسح المجال للدراسين في شتى التخصصات ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق لاختصاصهم من القرآن بصورة أعمق مما تناوله غيره[١] ولذلك رأينا أن التفسير الموضوعيّ (الناضج) أُختصّ بخصائص معينة منها:

أولًا: الموضوعيَّة

ونقصد بالموضوعيّة: أي بمعنى أنَّ القرآنَ كُلَّهُ أصبح تحت المرمى (التوسّع والتفصيل) أي أنَّ القرآن كُله أصبح وحدة واحدة ، لا يُجزئ، لا يُبعض، فكل مفاهيم القرآن الكريم محل الدراسّة والبحث ، وأيضًا المضامين القرآنيّة الكبرى تحت الدراسّة، مثل (هدى ، تقوى ، حكمة ، الصدق، العفة) وأيضًا (حفظ الأسرة، حفظ المجتمع، التعايش السلميّ) وغيرها كثير، وهذا ما قصدناه بالتأليف الخاصَّ بمعنى أخذ جزئيّة من جزئيات القرآن الكريم وإشباعها بحثًا ودراسّةً وأفرادها بالدرس لتعالج قضيّة اجتماعيّة معيّنة. إذًا في ضوء الموضوعيَّة أصبحت المفاهيم القرآنيَّة تُدرس جميعًا.

فتبدى لي أنَّ من أهم خصائص أو صفات التفسير الموضوعيّ في مرحلته الناضجة هي (الموضوعيَّة) فهي عبارة عن الأمانة والنزاهة في البحث، لذا ليس بالإمكان دراسة مفردة أو لفظ من الألفاظ وإهمال الأخرى، أو دراسة قضيَّة ما من قضايا الكون المختلفة وترك البقَّية، فالكل يكون في موضع الدراسَّة والتطبيق.

إذن من منطلق الموضوعيَّة الساحة التفسيرية تصبح في ضوء التفسير الموضوعيّ ساحة خصبة، ساحة ثريّة تتناول جميع الدراسات القرآنيَّة، فمثلًا إذا بحث الدارس أو الطالب في قضيَّة واقعيَّة معينة وعالجها في القرآن تحت دراسة موضوعيَّة وتناول آخر

---

(١) ظ: اطروحة التفسير الموضوعيّ عند السيد محمد باقر الصدر، قراءة فاحصة :أحمد عبد الله أبو زيد ، ط١، مركز الحضارة لتنميّة الفكر الاسلامي، بيروت ٢٠١٠م / ٧٣

معلمًا تفسيريًّا معيّنًا فهذا لا يعني أن الدراسات حول قضايّا أخرى قد توقــفت على هذا الحد ، لا بل العكس فالدراسات ضمن التفسير الموضوعيّ الناضج لا تتوقف إلى حدٍ معين والموضوعات إلى قيام الساعة موضع دراسَّة، وإذا أجرينا عملية بحث واستقصاء للدراسات القرآنيَّة المختلفة التي انتهجت الاتجاه الموضوعيّ فلا حصر لها، وهذا يدل على أنَّ هذه الساحة التفسيرية واسعة لا تنتهي؛ لذلك اكتسب التفسير الموضوعيّ هذه الخاصيّة، فمن المواضيع التي دُرست على سبيل المثال:

١. قصّة صالح (عليه السلام) كما بينها القرآن الكريم، دراسَّة موضوعيَّة.
٢. من معالم القيادة الصالحة في قصة سليمان وذي القرنين، دراسة موضوعيّة.
٣. منهج النبي موسى (عليه السلام) في الدعوة، دراسة موضوعيَّة.
٤. القواعد التربويَّة في القصص القرآنيّ، دراسّة موضوعيّة.
٥. المدح والذم في القرآن الكريم، دراسّة موضوعيّة.
٦. الصلح في القرآن الكريم، دراسّة موضوعيّة.
٧. أصول الأخلاق في ضوء القرآن الكريم، دراسَّة موضوعيّة.
٨. الارسال في ضوء القرآن الكريم، دراسّة موضوعيّة.
٩. السمع والبصر في القرآن الكريم.

فالحاجة إلى التفسير الموضوعيّ تظهر اليوم مع ظهور النظريات الحديثة من خلال التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي بكلِّ ما يملك من رصيد عظيم وثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشريَّة.

هذا التفاعل الذي وجد فيه المسلم نفسهُ أمام نظريات كثيرة في مختلف مجالات الحياة رأى نفسه ملزمًا في تحديد موقف الاسلام من هذهِ النظريات [١]، فتوسعت الدراسات والبحوث حول القرآن وتناولت مختلف القضايَّا المعاصرة التي تظهر فيها حيوية القرآن الكريم وموضوعاته .

ثانيًا : الواقعيَّة

بمعنى ربط المفاهيم القرآنيَّة والمضامين بالواقع ، فالتفسير الموضوعيّ ينطلق من واقع الحياة ، يركز نظره على واحد من موضوعات الحياة في أي ميدان شاء، يرصد ما وصلت إليه تجارب الإنسان وفكره حول ذلك الموضوع من مشاكل ما قدمه الفكر الانساني من حلول ، و ما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ونقاط، كل ذلك يشكل نقطة انطلاق يصل بعدها إلى الآيات القرآنيَّة لا ليستمع ، وإنما ليقدم موضوعًا جاهزًا مشربًا بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشريَّة ، فمن خلال هذهِ الخاصيَّة في التفسير نصل إلى

---

(١) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن، السيد محمد باقر الصدر، ، أعاد صياغة عباراته : الشيخ محمد جعفر شمس الدِّين ، ط١ ، دار احياء التراث العربيّ، بيروت ١٤٣٢هـ / ١٢

نتائج ترتبط بتيار التجربة البشريَّة ، يتحرك معها ، ويواكب صيرورتها، وهي عبارة عن معالم واتجاهات قرآنيَّة تتجدد من خلالها النظرية الإسلاميَّة بشأن مواضيع العصر [١].

فالقرآن الكريم أصبح متحركًا يسير على وفقِ حركة الإنسان لا يعرف السكون والجمود، ومضامينه لا تعرف السبات والتوقف، فالكل في حركة .

إذن فالتفسير الموضوعيّ وجِدَ بديلًا لتفاسير أخرى ؛ وذلك لتلافيّ سلبيّة هذهِ التفاسير من جهة، والكشف عن قيمومة النظريَّة القرآنيَّة من جهة ثانيّة، مواتية تلك النظرية للحياة في شتى الميادين من خلال استنطاق الآيات وفهمها فهمًا علميًّا وتحليلها تحليلًا يواكب الحياة فيما يجابهها من نظريات وأفكار تطرح بدائل عنها .

فالقرآن الكريم تظهر حيويّته وديمومته وبقاؤه وواقعيته من خلال التفسير الموضوعيّ الذي يحاول أن يلتحم ويمتزج مع الواقع، فمثلًا إذا تحدثنا عن طوائف المجتمع الفرعوني وما عرضه القرآن، نرى أنَّ الفرعونيَّة على مر التاريخ تبني العلاقات بين الإنسان وأخيه الانسان على أساس الظلم والاستغلال، القائمة على تجزئة المجتمع واستضعافهم.

طوائف المجتمع الفرعونيَّ في ضوء التصوير القرآني [٢]، وانعكاسه على الواقع المعاصر.

الطائفة الأولى: الظالمون المُسْتضعِفون، هؤلاء الذين يحشرون يوم القيامة في زمرة الظالمين، ثم يقولون للمستكبرين من الظالمين: لو لا أنتم لكنا مؤمنين، ﴿**يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**﴾ [٣]هذهِ الطائفة تمثل السند والعون للفرعون في كل عصر .

الطائفة الثانيَّة: الظالمون (المتملّقون) الذين لا يمارسون الظلم بأيديهم بالفعل، ولكنهم دائمًا وأبدًا على مستوى نزواتِ فرعون وشهواتهِ ، ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾ [٤].

الطائفة الثالثة: الآلات المستسلمة ، التي لا تحسّ بالظلم وإن كانت مظلومة، هذهِ الطائفة من الناس الذين عبَّر عنهم الإمام علي (عليهِ السلام) بـ "الهَمَج الرعاع" فهي تتحرك تحرك التبعيَّة والطاعة دون تدبر، ودون وعيّ، بعد أن سلب فرعون منها تدبرها ،ووعيها وعقلها، هذه الفئة خارجة عن الإبداع البشري ، فإذا كان هناك عمل

---

(١) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن / ١٧
(٢) ظ: المصدر نفسه / ١٦٢ – ١٦٦
(٣) سبأ: ٣١
(٤) الأعراف: ١٢٧

أو إبداع معين فإنما هو عمل من يحرك هذهِ الآلات ، ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾ [١]. الطاعة المفرطة هنا غلبت على احساسهم بالظلم .

الطائفة الرابعة: هم الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم، الذين لم يفقدوا لبهم أمام الفرعون أو الفرعونيَّة، فهم يستنكرون الظلم، ولكنهم يسكتون عنه ، ويسلمون بهِ، فيعيشون حالة التوتر والقلق في أنفسهم، هؤلاء يسميهم القرآن (ظالمي أنفسهم) ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾ [٢]. هؤلاء لم يظلموا الأخرين، وليسوا من الحاشيَّة المتملقين ، وليسوا من الهمج الرعاع، بل العكس هم يشعرون بأنهم مستضعفون ، ولكنهم عمليًا كانوا مهادنين ؛ لذلك عبَّر عنهم القرآن بأنهم ظلموا أنفسهم .

الطائفة الخامسة: هي التي تتهرب من الواقع التداوليّ، وتبتعد عن مسرح الحياة وتترهبن، وهذهِ الرهبانيَّة موجودة في كل مجتمعات الظلم على مرّ التاريخ، وهي تتخذ صيغتين:

الأولى: رهبانيّة جادة ، ولكنها مبتدعة، التي عبَّر عنها القرآن : ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا**﴾[٣].

الثانيّة: رهبانيَّة مفتعلة، يترهب ويلبس مسوح الرهبان (جعل من الدِّين ستارًا) ليخدر الناس ويشغلهم عن ظلم فرعون واستغلاله لهم ، لذا عملهم الأساس أن يسطوا على عقول الناس نفسيًّا وروحيًّا، كما يحدث في مجتمعنا العراقيّ خصوصًا، والعالم العربي والاسلاميّ عمومًا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [٤].

الطائفة السادسة: الجماعة الأخيرة في عمليَّة التجزئة الفرعونيَّة للمجتمع هم (المستضعفون) ، ففرعون حينما اتخذ من قومهِ شِيَعًا، استضعف طائفة معينة منهم وخصها بالإذلال وهدر الكرامة؛ لأنها الطائفة التي كان يتوسم بها أن تشكل إطارًا للتحرك ضده؛ ولهذا استضعفها بالذات ، ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ [٥]. تلك الطائفة كانت أسفل السلم من ذلك التقسيم، يريد الله أن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [٦].

---

(١) الأحزاب: ٦٧
(٢) النساء : ٩٧
(٣) الحديد: من الآية ٢٧
(٤) التوبة: ٣٤
(٥) البقرة: ٤٩
(٦) القصص: ٥

من هذا المنطلق بدت لنا حقيقة وهي : إنَّ المجتمع يتناسب مدى الظلم فيهِ تناسبًا عكسيًّا مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة، ويتناسب مدى العدل فيهِ تناسبًا طرديًا مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة، فمجتمع الفرعونيَّة المجزأ المشتّت مهدور القابليات والإمكانيات، (ومن هنا تحبس السماء قطرها وخيراتها ، وتمنع الأرض بركاتها).

وأما مجتمع العدل فهو على العكس تمامًا، هو مجتمع تتوحد فيه كل القابليات وتتساوى فيهِ كل الفرص والإمكانيات، هذا المجتمع التي تُحدّثنا عنه الروايات الكثيرة، من خلال ظهور الإمام المهدي (عليه الصلاة والسلام) وتُحدّثنا عما تحتفل بهِ الأرض والسماء في ظل الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) من بركات وخيرات، ليس ذلك إلا لأن العدالة دائمًا وأبدًا تتناسب طردًا مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة، هذهِ العلاقة الثنائيّة بين الخطين [١].

ثالثًا: العالميَّة والحضاريَّة

من الخصائص المهمّة أيضًا للتفسير الموضوعيّ (المتغيّر الناضج) هو العالميَّة والحضاريَّة، بمعنى كيفيَّة نقل التعاليم الدينيَّة والتوجيهات القرآنيَّة المختلفة إلى العالم أجمع، فكما هو معلوم أنَّ القرآن الكريم هو كتاب هدايّة ونور ليس خاصًا بمن نزل فيهم فقط وهم (العرب المسلمون) بل القرآن هو للجميع يخرج الناس من ظلمات الجاهليَّة والتخلف إلى نور العلم والتطور، من هنا فإننا نوظف التفسير الموضوعيّ بهذهِ المهمة العظيمة، فمن خلال التفسير الموضوعيّ نجعل القرآن الكريم عابرًا إلى القوميات والديانات الأخرى كـ (اليهوديَّة والنصرانيَّة والصابئة والوثنيَّة وغيرها) لتصل إليهم الرسالة الإلهيَّة الخالدة (القرآن الكريم) ، فمثلًا التفسير الموضوعيّ إذا وظِفَ في دراسة المفاهيم العالميّة الكبرى كـ (الصدق والعدل والتعايش السلميّ والحريّة وحقوق الإنسان وحفظ كرامته) وغيرها من الممكن أن تكون تلك الدراسات محل استجابة من هذه الأديان، فالتفسير الموضوعيّ إذًا أصبح وسيلة اتصال بين القرآن الكريم وبين الحضارات والأديان الأخرى، تخرجهم من طمسات الظلم والجهل إلى أفاق العدل والنور.

فالحضارةَ منهجٌ ونظامٌ إنسانيٌّ راقٍ يقود الإنسان إلى كلّ ما يجعله سعيدًا ومتطورًا ومنتفعًا بعقلهِ وفكره وطاقاته على المستويات كافة سواء أكانت السياسة أمِ الاقتصاديّة أمِ الاجتماعيّة أمِ التربويّة ، أمِ العلميّة ، فكلّ ما ينطبقُ على منظومة التجديد والإبداعِ من المجالات كافة ، يُسمى حضارة [٢].

---

(١) ظ: السنن التاريخيّة في القرآن/ ١٦٧

(٢) ظ: القيمُ الحضاريَّة في الخطاب الدّينيّ عند الإمام الحسن (عليه السلام) بحثٌ من إعداد: أ. د رحيم كريم الشريفيّ، أ. م .د حسين عليّ الفتليّ، جامعة بابل / كليّة العلوم الإسلاميَّة

وقد تظافرت نصوص الكتاب الكريم والسنة وإجماع الأمة على عالميَّة القرآن العظيم، وقد ذكر بعضهم على أنَّ عدد الآيات الدالة على عالميّة القرآن تزيد ثلاث مائة وخمسين آية، وهناك اربعة آيات تُعلن بوضوح أنَّ القرآن ذِكرٌ لجميع العالمين، قال تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [١]. ففي ضوء التفسير الموضوعيّ لابُدَّ من قراءة القرآن قراءة حضاريَّة بمعنى أنَّ القرآن عابرًا للقوميّة والطائفيّة على وفق قوله تعالى: **﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾**، لا بُدَّ أن تُفعل هذهِ الحركة وأن يكون القرآن حضاريًّا .

([١]) التكوير: ٢٧ ، يوسف: ١٠٤ ، ص: ٨٧ ، القلم: ٥٢ .

المبحث الثانيّ : من تجارب أعلام مرحلة النضوج

ولِد التفسير الموضوعيّ كما أشرنا سابقًا من رحمِ مجموعة من المقاربات التي أفضت بهِ إلى مرحلة - مرحلة النضوج - تهدف فيها هذهِ المقاربة للقرآن إلى الخروج بنظريَّة قرآنيَّة تعالج بعض مشاكل المجتمع الإنساني المعاصر، فلو عادت الأمة وأصبحت قريبة من القرآن الكريم لما وجِدَ هذا الصراع الاجتماعي والحضاري والسياسي والاقتصادي، فيبقى الإنسان الضعيف بحاجة إلى القرآن بين الحين والآخر، فالقرآن الكريم ثبت للجميع بأنَّه أساس الحياة وعجلة تقدمها وديمومة بقائها، فكلما كثرت البحوث وكثرت الدراسات حول الكتاب المعجز انعكس ذلك على الواقع المعاصر، لذا ثبت لدينا بأنَّ الدراسات حول القرآن الكريم لا تنتهي إلى قيام الساعة، وهذا هو الإعجاز بعينه.

المطلب الأول: الرائد المخطط محمد باقر الصدّر

بدا لي أنَّ تجربة السيد محمد باقر الصدر كانت محاولة رائدة في التفسير الموضوعيّ، وإنَّي أعترف بأنها التجربة الأكثر استحقاقًا في الوقوف على مقتضياتها وما تتناول من جانب نظري وتطبيقي، فتجربته قد عمقت المفهوم وزادته رونقًا وبهاءًا .

في الحديث عن السيد الصدر ، نتذكر أولئك المفكّرين الموسوعيين الذين حدَّقوا المعرفة بشتى ضروبها: فلسفةً ، فقهًا ، سياسةً ، وحتى تاريخًا ومنطقًا، نتذكرهم في عصر اتسم بالتخصص والعمق، نتذكر اولئك المفكّرين أمام تعدد معارف السيد الشهيد، وغزارة انتاجهِ في الفلسفة، والاقتصاد، والمنطق والاجتماع والتاريخ، أضف إلى ذلك تفسيره القيّم الذي لا يقل أهميّة عن كل ذلك ، بل قد يكون هو الأكثر كمالًا والأرقى عن كل ما سبق استنادًا إلى اطروحته المميزة والمختلفة في التفسير الذي تجاوز ما عداه من تفاسير، فتفسيره عُدَّ متحركًا يواكب الحياة، ويسير مع الزمن، وهذا ما تميَّز به .

ولِدَ السيد محمد باقر الصدر في ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ ،في مدينة الكاظميّة في بغداد، وينتهي نسبهُ الشريف إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليهِ السلام) ، فقد والده وهو في سن الرابعة من العمر ، فتربى بحضانة والدته المؤمنة ورعايّة خاله الشيخ محمد رضا آل ياسين من مراجع الدِّين في العراق، وأخيهِ السِّيد إسماعيل الصدر وهو من العلماء البارزين والذي درس مقدمات العلوم الإسلاميَّة على يديهِ .

ظهرت عليه آثار النبوغ منذ صغرهِ إذ كان يلقي الدروس في التاريخ الاسلامي وهو في العاشرة من عمرهِ ، انتقل إلى النجف الأشرف عام ١٣٦٥هـ ، ليواصل دراستهِ في حوزتها العلميَّة العريقة، فدرس على يد اثنين من أعلامها : الأول خاله الشيخ محمد رضا آل ياسين الذي كان يحضر درسه كبار العلماء، والاخر المرجع السيد أبو القاسم الخـوئي، مع مراجعته الشخصيّة لكتب العلماء المختلفة في الفقه والأصول ومتابعته للأبحاث الفكرية المتنوعة، وبلغ مرحلة الاجتهاد ولم يكن قد جاوز العشرين من عمرهِ.

وبعد أن ظهر اسمه في عالم المرجعيّة ، عرض اطروحة للنهوض بها تحت عنوان (المرجعيّة الرشيدة) ، وبعد مجيء حزب البعث المنحرف عام ١٩٦٨م ، عملت قياداته على مضايقـة الشهيد الصـدر، وتلامذتـهِ وانصـاره بالتهديـد والتشريد والسجن والاعدام ، واعتقل عام ١٩٧٩م، ثم وضع تحت الاقامة الجبرية والمراقبة الشديدة مدة عام تقريبًا، ثم في أوائل نيسان ١٩٨٠م ، عاودوا اعتقاله مع اخته العالمة الشهيدة بنت الهدى ، فعذبا وقُتلا على أيدي مسؤولي نظام البعث في نفس العام ، ليكونَ شاهدًا وشهيدًا ومَعْلَمًا على مسيرة الاسلام الصاعدة في هذا العصر [١].

*** منهج السيد الصدر في كتابه المدرسة القُرآنيَّة:**

الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات تضم أربعة عشرَ درسًا، تناول فيها على الترتيب:

المحور الأول: الدراسّة النظريَّة، وتشمل :

- حديثه عن الاتجاه التجزيئي والتوحيدي للقرآن الكريم:

ميّز السيد محمد باقر الصدر بين اتجاهين بالتفسير: التفسير التجزيئيّ، والتفسير التوحيديّ الموضوعيّ ، هذان المنهجان على الرغم من تباينهما، فهما متكاملان.

أ- **الاتجاه التجزيئيّ في التفسير :** يقصد السيد بالاتجاه التجزيئيّ ، هو المنهج الذي يتناول المفسر فيهِ ضمن اطار القرآن الكريم آية فآية وفقًا لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف ، والمفسر في هذا المنهج يسير مع المصحف الشريف ويفسر قطعاته تدريجيًّا بما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير[٢]. ويرى أنَّ المفسر هنا يحتاج إلى اللجوء لآيات أخرى وقد يقود ذلك إلى استخلاص دلالات القرآن، إلا أنها تبقى بنظرهِ تجزيئيَّة: معارف ومدلولات ، تناثر وتراكم عدديّ، من دون أي ارتباط يقودنا إلى تحديد نظريَّة قرآنيَّة لكل مجال من مجالات الحيـاة [٣].

---

(١) ظ: المدرسة القرآنيّة / ٥ ــ ٦

(٢) ظ: المصدر نفسه / ٨- ٩

(٣) ظ: المصدر نفسه/ ١٠

وقد شاع هذا التفسير وهيمن على الساحة قرونًا عِدَّة . وأهم العوامل التي ساهمت في شيوعهِ النزعة الروائيّة والحديثيَّة للتفسير، فالتفسير في البدايَّة كان شعبة من الحديث : مأثور كان ، أو ما عُرف بأسباب النزول، كان الحديث الأساس الوحيد تقريبًا ، يضاف إليهِ بعض العوامل اللغويَّة والأدبيَّة والتاريخيَّة .

وعلى الرغم من شيوع هذا المنهج في التفسير، إلا أنَّه في نظر السيد الصدر كان سلبيًّا؛ نتيجة التناقض والتباين اللذين كانا سببًا في ظهورِ غير مذهب بالإسلام ، فقد أتاح المنهج التجزيئيّ لكل مفسر تبرير مذهبه واتجاهه من خلال إسناد رأيه إلى القرآن، مع ما يتبع ذلك من جمع للأنصار والإشياع حول المفسّر ، ولعل المسائل الكلاميَّة من الجبر والتفويض والاختيار وما إلى ذلك هي خير مثال على صحة ما ذهب إليهِ ، بينما كان بالإمكان تفاديّ كثير من التناقضات لو أنَّ المفسّر التجزيئيّ خطا خطوة أخرى ولم يقتصر على هذا التجميع العددي ، كما في الاتجاه الموضوعيّ (التوحيدي) [١].

ب- **الاتجاه التوحيديّ أو الموضوعيّ في التفسير :** هو الذي يحاول القيّام بالدراسّة القرآنيَّة لموضوع من موضوعات الحياة العقائديَّة أو الاجتماعيّة أو الكونيَّة، فيبيّن ويبحث ويدرس مثلًا : عقيدة التوحيد في القرآن ، أو يبحث عن النبوة في القرآن، أو عن المذهب الاقتصاديّ في القرآن، أو عن سنن التاريخ في القرآن، أو عن السماوات والأرض في القرآن الكريم، وهكذا، ويستهدف التفسير التوحيديّ من القيام بهذهِ الدراسّات من تحديد موقف نظريَّ للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الإسلاميّة من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة والكون [٢].

وقد فرَّق السيد الصدر بين مصطلح الموضوعي، والتفسير الموضوعيّ الذي يقابل التجزيئيّ ، فالموضوعيَّة عبارة عن الأمانة في البحث، عبارة عن الاستقامة على جادة البحث، فالموضوعيّ التي نجعلها في مقابل التجزيئيّة غير تلك الموضوعيَّة التي تقابل الذاتيَّة والتحيز . وأيضًا فرَّق بين الموضوعيّ والتوحيديّ، وبتقريبٍ منا كون التفسير موضوعيًّا، بلحاظ أنهُ يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوعٍ ما، وهو توحيديّ بلحاظ أنَّه يوحد بين هذهِ الآيات ضمن مركب تام نظري واحد، من أجل الوصول إلى تحديد الأطر والمعالم لنظريّة واضحة، ترسمها تلك المجموعة القرآنيَّة ككّل ، بالنسبة إلى ذلك الموضوع [٣].

---

(١) ظ: المدرسة القرآنيَّة /١١

(٢) ظ: المصدر نفسه والصفحة

(٣) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن، السيد محمد باقر الصدر / ٣٩

- **الفرق، أو التفاضل بين الاتجاه التجزيئيَّ والاتجاه التوحيديَّ (الموضوعيَّ):**

قد يَرِدُ سؤال وهو: لماذا كانت الطريقة التجزيئيّة عائقًا عن النمو؟ ولماذا تكون الطريقة الموضوعيَّة والاتجاه التوحيدي عاملًا في النمو والتوسع والابداع؟ أو لماذا عدَّ الصدر دور الاتجاه التجزيئيَّ سلبيًّا؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال لا بُدَّ أن نبين أولًا أنَّ السلبيَّة في الطريقة التجزيئيَّة التي تكون عائقًا في النمو والابداع انما هي تكمن في هذا العصر الذي بحاجة إلى حلول لازمة بعد الحين والآخر من القرآن الكريم؛ لأنَّ العصر الحاضر غير ذلك العصر، فعُدّت سلبيته خاصّة بالواقع المعاصر ، فلا أحد ينكر أن الاتجاه الذي يبدأ من القرآن وينتهي إلى القرآن (التجزيئيّ) هو الذي يمكن أن يكشف المكنونات التي ضلت مدفونه في باطن النصّ ولم يستطع البحث الذي ينطلق من الواقع أن يصل إليها؛ لأنه ليس مما يطرحه الواقع [١].

ولمعرفة هذا وذاك ،يجب أن ننظر إلى دور الاتجاهين لكي نُكوّن انطباعات أكثر تحديدًا ودقةً حولهما، وإذا أردنا أن يتحقق ذلك ويتضح، فلا بد أن نقف على أهم الفروق حول الاتجاهين بما حققه السيد الصدر وكيف كانت نتائجه، وفي ضوء محاضراته حول الاتجاهين اتضحت لنا بعض الفروق الجوهريَّة بين هذين الاتجاهين نوردها بالآتي :

أولًا: السيطرة والشيوع

شاع التفسير التجزيئيّ وهيمن على الساحة قرونًا عِدَّة ، وتزخر المكتبة القرآنيَّة بالتفاسير التي التزمت بهِ ، اما الموضوعيّ فقد شاع في البحوث الفقهيّة، وما خطا الفكر الفقهي خطوات في مجال نموه وتطوره حتى ساد هذا الاتجاه جل البحوث الفقهيَّة . بينما التجزيئيّ هو الذي سيطر على الساحة القرآنيَّة عبر ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا [٢].

ثانيًا: المُنطلق، وما يُخلِّفه من الإيجاب والسِّلب

إنَّ المفسر التجزيئيّ يبدأ أولًا بتناول النصّ القرآنيّ المحدّد، سواء أكان آية آية أو مقطعًا أو سورة، دون أي افتراضات أو طروحات سابقة، ويحاول أن يحدد المدلول القرآني ، على ضوء ما يسعفه من اللفظ ، مع ما يتاح له من القرائن المتصلة والمنفصلة ، فدور النص القرآني في مثل هذهِ العمليّة التفسيريّة دور المتحدث، ودور المفسر الاصغاء والتفهم، إذًا فالتفسير التجزيئيّ هو الذي ينطلق من القرآن ويعود إلى القرآن ؛ لذا عَدَّ السيد الصدر أنَّ دوره سلبي؛ لأنه يكتفي بدور التسجيل والاستماع .

---

(١) ظ: منهج التفسير التحليليّ، د. حكمت عبيد الخفاجي/ ١٤٨

(٢) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن/١٤

أما منطلق الموضوعيّ فهو من واقع الحياة ، أي لا يبدأ عمله من النصّ بل من الواقع، فيركز نظره على موضوع من مواضيع الحياة العقديّة ، أو الاجتماعيَّة، أو الكونيَّة، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق والتاريخ من أسئلة ومن نقاط فراغ، فيبدأ مع النصّ حوارًا مع هذا الموضوع على شكل سؤال وجواب ، فيكون أثره ايجابيًّا؛ لأنَّه يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن، ويكون دوره دور المحاور، ومن هنا كانت نتائج التفسير الموضوعيّ نتائج مرتبطة دائمًا بتيَّار التجربة البشريَّة لأنها تمثل المعالم والاتجاهات القرآنيَّة لتحديد النظريَّة الاسلاميَّة بشأن موضوع من مواضيع الحياة.

إذًن فهنا يلتحم القرآن مع الواقع ، يلتحم القرآن مع الحياة؛ لأنَّ التفسير يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن، لا أنه يبدأ من القرآن وينتهي إلى القرآن فتكون عمليَّة منعزلة عن الواقع منفصلة عن تراث التجربة البشريَّة.

من هذا المنطلق عُدَّت تجربة السيد الصدر من التجارب الرائدة في التفسير الموضوعيّ، وهو خير من يمثل التفسير الموضوعيّ بتجربته الناضجة؛ لأنهُ جعل من القرآن - في ضوء نظريتهِ للتفسير الموضوعيّ المتحرك مع الواقع والحياة – قدرته على القيمومة دائمًا، قدرته على العطاء المستجد دائمًا، قدرته على الإبداع. فكان التفسير الموضوعيّ قادرًا على أن يتطور، وعلى أن ينمو، وعلى أن يثرى لأنَّ التجربة البشريَّة ثريّة ، والدرس القرآني والتأمل القرآني في ضوء هذهِ التجربة يجعل هذا الثراء محمولًا إلى فهم إسلاميَّ صحيح [١].

إذًن فالموضوعيّ في المقام هو أفضل الاتجاهين في التفسير، وليس معنى هذهِ الأفضليّة استبدال اتجاه باتجاه، وإنما اضافة اتجاه لاتجاه ؛ لأنَّ التفسير الموضوعيّ ليس إلا خطوة إلى الأمام بالنسبة للتفسير التجزيئيّ [٢] .

ثالثًا: التفسير الموضوعيّ يتجاوز التجزيئيّ بخطوة

التفسير التجزيئيّ يكتفي بإظهار المدلولات اللفظيَّة للآيات القرآنيَّة الكريمّة، بينما التفسير الموضوعيّ يطمح إلى أكثر من ذلك، يتطلع إلى ما هو أوسع من ذلك، يحاول أن يستحصل أوجه الارتباط من هذه المدلولات اللفظيّة، يحاول أن يصل إلى مركب نظري قرآني [٣].

---

(١) ظ: المدرسّة القرآنيَّة / ١٧- ١٨ ١٩ ، ويُنظر: السنن التاريخيَّة في القرآن/ ٣٥- ٣٦ ، ويُنظر: منهج التفسير التحليليَّ، د. حكمت عبيد الخفاجيّ / ١٤٧ – ١٤٨

(٢) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن/ ٤٣

(٣) ظ: المدرسة القرآنيَّة / ٢٢

ولا بُدَّ من الاشارة هنا إلى أنَّ كثيرًا من التفاسير الحديثة قد مزجت أو تطورت فلم تعد تقتصر على تفسير مدلولات الالفاظ فقط، بل تطرقت لبحث كثير من الموضوعات القرآنيَّة وموضوعات الحياة المختلفة وايجاد الحلول لمشاكل الانسان المتنوعة وغير ذلك، وأصبحت تمزج بين التفسير التجزيئيّ وتفسير السور القرآنيَّة آية آية مع ذكر الموضوعات والمقاصد القرآنيَّة، كتفسير في ظلال القرآن للسيد قطب ، وتفسير من وحيّ القرآن، لمحمد حسين فضل الله، وكثير من التفاسير الحديثة الأخرى .

رابعًا: طول الشوط التفسيري بالتجزيئيّ ، وقصره بالموضوعيّ، مبرر عمليّ

فالتجزيئيّ يبدأ بالفاتحة وينتهي بسورة الناس، وهذا الشوط طويل بحاجة إلى إتمامه فترة زمنيَّة طويلة أيضًا ، وأنَّ اللافت للنظر أنَّ السيد الصدر ألمح في المحاضرة الثالثة من محاضراته في ٢٥/ جمادى الأول/ ١٣٩٩هـ إلى اقتراب أجلهِ إذ قال: ((ونحن نشعر بأنَّ هذهِ الأيام المحدودة المتبقيَّة لا تفي بهذا الشوط الطويل، ولهذا كان من الأفضل اختيار أشواط أقصر لكي نستطيع أن نكمل بضعة أشواط هذهِ الجولات في رحاب القرآن الكريم)) [١]. وهذا من مبررات السيد الصدر في تفضيله واختياره للتفسير الموضوعيّ.

أما في الموضوعي فيقع الاختيار على موضوعات متعددة في القُرآن الكريم، واستعراض ما يتعلق بذلك الموضوع في شوط أقصر .

هذهِ أهم الفروق الجوهريَّة بين الاتجاهين ، واتضح لنا من الفرق الثاني الذي أوردناه نضوج واكتمال منهج التفسير الموضوعيّ في هذه المرحلة التي أبدع فيها السيد محمد باقر الصدر؛ وذلك لأنَّه تقدم خطوة إلى الأمام وتميز بأنَّهُ استطاع أن يجعل القرآن ملتحمًا مع الحياة، مرتبطًا برباطٍ وثيق مع الواقع .

المحور الثانيّ : الدراسة التطبيقيّة، وتشمل دروسًا ، منها :

١- سنن التاريخ في القرآن الكريم، وفيها :

أ- حديثه عن السنن التاريخية اجمالًا ، هل للتاريخ البشريَّ سنن في مفهوم القرآن الكريم؟ هل له قوانين تتحكم في مسيرتهِ وفي حركتهِ وتطورهِ؟ ما هي هذهِ السنن التي تتحكم في التاريخ البشري؟ كيف بدأ التأريخ البشري؟ وغيرها من الاسئلة

---

(١) المدرسة القرآنيّة / ٣١ – ٣٢

التي عرضها السيد محمد باقر الصدر ، وفي معرض كلامهِ استطاع الاجابة عليها جميعًا [١] .

ب- ايراده لنماذج قرآنيَّة التي تعرضت للسنن [٢].

ت- الحقائق التي أكد عليها القرآن بالنسبة إلى سنن التاريخ [٣]، وهي:

- الاطَّراد .
- ربانيَّة السنن التاريخيَّة.
- حقيقة اختيار الإنسان وارادته .

ث- ميدان سنن التاريخ ومميزاتها [٤]:

- السنن التاريخيَّة لها غايَّة ومستقبل.
- العمل التاريخيَّ تحكمه ثلاثة أبعاد:

١- البعد السببي .
٢- عمل له غايَّة (الهدف). أي البعد الغائي
٣- البعد الاجتماعي ، لا الفردي.

ج- صيغ السنن التاريخيَّة في القرآن، وهي على ثلاثة أشكال [٥]:

- شكل القضيَّة الشرطيَّة .
- شكل القضيَّة الفعليَّة الناجزة المحقّقة .
- شكل القضيَّة المصاغة على صورة اتجاه طبيعيّ في حركة التفسير، لا على صورة قانون صارم حدّي .

٢- عناصر المجتمع في القرآن الكريم [٦]، حلل السيد الشهيد عناصر المجتمع إلى ثلاثة عناصر، وهي:

أ- الإنسان.
ب- الأرض أو الطبيعة على وجه عام .
ت- العلاقة المعنويَّة التي تربط الإنسان بالطبيعة.

٣- القرآن ودور الإنسان في حركة التاريخ ، وتشتمل على أقسام المُثل العليا:

أ - المثل الأعلى للمجتمع وهو الأساس في التحريك .

---

(١) ظ: المصدر نفسه / ٣٢- ٤٠
(٢) ظ: المدرسة القرآنيّة / ٤٢ - ٤٧
(٣) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن/ ٦٩- ٧٤
(٤) ظ: المصدر نفسه / ٧٥- ٨٣
(٥) ظ: المصدر نفسه / ٨٧- ٩٤
(٦) ظ: المصدر نفسه / ١٠١ – ١٠٧

ب- سقوط المثل الأعلى وسنن التاريخ .

٤- بيَّان أنَّ المثل الأعلى الحقيقيَّ هو الله تعالى .

٥- القرآن والعلاقة الاجتماعيَّة [١]، العلاقة الاجتماعيَّة بين الانسان والطبيعة، وتشمل:
أ- علاقة الإنسان بالإنسان .
ب- علاقة الإنسان بالطبيعة .

هذهِ هي أهم الخطوات الرئيسة المتصلة بالجانب التطبيقيّ التي اتبعها السيد الصدر في كتابهِ ، والناظر إلى هذهِ الدراسة الفذة يجد أنها تحتوي على موضوعات متعددة ، كل موضوع يصلح بأنَّ يكون دراسة منفردة كاملة، وأكثر ما يميّز دراسته أنَّه استطاع توظيفها في الواقع المعاصر، وهذا هو النضوج الذي نقصده.
والبحث لا يتسع لإيراد النماذج الواردة في محاضراتهِ القيّمة ، إلا أنني سأسلط الضوء على انموذجين تطبيقيين منها :

النموذج الأول: تنوّع مظاهر السُّنن التاريخيَّة

أي عرض حالات من السنن التاريخيَّة من خلال القرآن الكريم، وقد استهل حديثه بمقدمة بيَّن فيها أنَّ الفكرة القرآنيَّة عن سنن التاريخ بلورت في عدد كثير من الآيات بأشكال مختلفة، فهي تكون بصيغة كليَّة حينًا، وتطبيقًا حينًا آخرًا ، وتحث على الاستقراء للشاهد التاريخي ثالثًا ، وهذا تفصيلها :

أولًا: شرع في تفصيل هذه النماذج والأشكال ، فتحدثَ عن الآيات التي أُعطيت فيها الفكرة الكليَّة ، فكرة أنَّ التاريخ له سنن، وضوابط ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [٢] ، في هذهِ الآية يشير الله تعالى إلى واحدة من سنن الكون والحياة، أي فناء الأمم وزوالها ويلقي ضوءًا أكثر على الأبحاث التي تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض ومصير العصاة [٣]، وحلل السيد الصدر الآيّة مبيّنًا أنَّ الأجل أضيف هنا إلى الأمّة لا الفرد؛ لأنَّ الهدف هو التنبيه على أنَّ الأمّة تخضع كالفرد لقانون الحياة والموت، غير أنَّ موت الأمم وحياتها يخضع للصلات القائمة بين أفراد المجتمع، وما يحكمها من أفكار ومبادئ مسندة بمجموعة من القابليات ويدعم ذلك بآية أخرى هي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ. مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**﴾ [٤]، ويُستنتج منها أنَّ الأجل المشار إليهِ هو الأجل

---

(١) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن / ١٤٥- ١٥٠
(٢) الأعراف: ٣٤
(٣) ظ: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ، ط١، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٤٢٨هـ : ٦ / ٣٥٨
(٤) الحجر: ٤- ٥

الجماعي لأنَّ قومًا بمجموعهم لا يموتونَ عادةً في وقتٍ واحد ، وإنما المقصود هو الوجود الكلـــيّ المعنـــويّ ، هو المهدد بالموت فالمجوعة حالًا يُنظرُ إليها بوصفها وحدة متفاعلة في ظلمها وعدلها ، حينئذ يكونُ لها أجلٌ واحد ، ويفسَّر ذلكَ بقوله تعالى: ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا . وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ [١] . وقوله أيضًا : ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾ [٢].

يُبنى على ذلك نتيجة هي: أنَّ الله لو كان يُؤيد أن يؤاخذ الناس بظلمهم لأهلكهم جميعًا، لأنَّ الإشارة هنا للإهلاك الدنيويّ الذي يقومُ على قاعدةِ آيةٍ أخرى ، هي قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَـــابِ**﴾ [٣]. بينما يقول في موضع آخر : ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [٤].

فهذهِ الآيات تتحدث عن سننٍ تاريخيَّة وعلاقة ذلك بسعيّ الأمة وجهدها، ويؤكد المعنى بقوله تعالى متحدثًا عن تجربة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا**﴾ [٥]. فالمقصود هنا بقاءهم كجماعة معارضّة للحقّ مُحال، هذا ما حدث حينَ فُتِحت مكة .

فالآية تتحدث عن سنة من سنن التاريخ فتقول : ﴿**وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا**﴾، ويشرح تلك الآية بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [٦] ، ليبين أنَّ الآية وإن كانت قد جاءت لتثبيت قلب الرسول الأكرم، فإنها قد بينت سنة حين تحدثت عن تجارب الأمم لتبين أنَّ هذهِ التجارب تكشفُ عن قانون وسنة تجري على الرسول ، كما جرت على الأنبياء من قبله وتربطُ السنة بشروط هي (الصبر والثبات واستكمال الشروط والاسباب) . هذهِ السنة سلكناها مع الأنبياء من قبلك، وسوف تستمر ولن تتغير [٧].

فهناك كلمة لا تتبدل على مرِّ التاريخ ، هذه الكلمة هي العلاقة القائمة بين النصر ومجموعة الشروط التي جُمعت في الآية، هذا هو طريق الحصول على النصر، والثبات ولهذا يقول: ﴿**فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**﴾ ، إذًا هناك كلمة من الله لا تتبدل على مر التاريخ هذهِ الكلمة التي لا تتبدل هي علاقة قائمة

---

(١) الكهف: ٥٨- ٥٩
(٢) فاطر: ٤٥
(٣) الأنفال: ٢٥
(٤) فاطر: ١٨
(٥) الإسراء: ٧٦-٧٧
(٦) الأنعام: ٣٤
(٧) ظ: المدرسة القرآنيَّة / ٤٥- ٤٦

بين النصر وبين مجموعة من الشروط والقضايًا وضحت من خلال الآيات المتفرقة وجمعت على وجه الإجمال هنا [١] .

ثانيًا: الآيات التي تناولت المحتوى الداخليّ للإنسان :

وقد انطلق السيد الصدر هنا من قولهِ تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾ [٢]، فيبدأ التغيير من النفس (قانون عام) هذا القانون هو واحد من القوانين الأساسيّة لعلم الاجتماع في الاسلام [٣]، فالمحتوى الداخلي النفسيّ الروحيّ للإنسان هو القاعدة، هذهِ الآية تتحدث عن علاقة معينة بين القاعدة والبناء العلويّ، بين الوضع النفسيّ والروحيّ والفكريّ للإنسان، وبين الوضع الاجتماعيّ بين داخل الإنسان وبين خارجهِ، فخارج الإنسان يصنعه داخل الإنسان، مرتبط بداخل الإنسان، فإذا تغير الداخل تغير الخارج، ويستنتج من ذلك أنَّ هذه الآية سنة من سنن التاريخ ربطت القاعدة بالبناء العلويّ، ويؤكد ذلك قوله تعالى:﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [٤]، ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [٥]، ومعناه أنَّ التغيّر نحو الخير ممكن ، ولكن لا بد أولًا من معرفة سننهِ التاريخيَّة [٦].

ثالثًا: الآيات التي تبين العلاقة بين النبوة وبين موقع المترفين والمسرفين:

ينطلق السيد من الآيات المباركة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ [٧] ، فهذهِ العلاقة تمثل سنة من سنن التاريخ، وليست ظاهرة وقعت في التاريخ صدفة، وإلا لما تكررت بهذا الشكل الطرد، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿**إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**﴾ [٨]، هذهِ الآية تتحدث أيضًا عن علاقة معيّنة بين ظلم يسود وظلم يسيطر وبين هلاك تجر إليهِ الأمة

---

(١) ظ: المدرسة القرآنيّة / ٤٧ ، ويُنظر: مصادر التفسير الموضوعيّ / ٤٥
(٢) الرعد : ١١
(٣) ظ: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٦ / ٤٠٧
(٤) الأنفال: ٥٣
(٥) البقرة: ٢١٤
(٦) ظ: المدرسة القرآنيّة/ ٤٨، ويُنظر: مصادر التفسير الموضوعيّ / ٤٦
(٧) سبأ: ٣٤ ــ ٣٥
(٨) الإسراء : ١٦ ــ ١٧

جرًا ، وهذهِ العلاقة أيضًا الآية تؤكد أنها علاقة مطردة ، علاقة مطلقة على مر التاريخ وهي سنة من سنن التاريخ.

رابعًا: الآيات التي تبيّن علاقة الاستقامة بوفرة الخير والانتاج :
قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (١)، وقوله: **﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾** (٢)، وقوله تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾** (٣).

هذهِ الآيات الثلاث تتحدث عن علاقة معيّنة وهي علاقة بين (الاستقامة وتطبيق أحكام الله تعالى وبين وفرة الخيرات ووفرة الانتاج)، وبلغة اليوم بين عدالة التوزيع وبين وفرة الانتاج، القرآن يؤكد أنَّ المجتمع الذي تسوده العدالة في التوزيع، هذه العدالة التي عبّر عنها القرآن تارة بأنّهُ: **﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾** ، واخرى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا...﴾** ؛ لأنَّ شريعة السماء نزلت من أجل عدالة التوزيع، من أجل إنشاء علاقات التوزيع على أسس عادلة، يقول: ((لو أنهم طبقوا عدالة التوزيع ، إذا لما وقعوا في ضيق من ناحيّة الثروة المنتجة، لما وقعوا في فقر من هذهِ الناحيَّة، لأزداد الثراء، لأزداد المال وازدادت الخيرات والبركات، لكنهم تخيلوا أنَّ عدالة التوزيع تقتضيّ الفقر، تقتضيّ التقسيم، وبالتاليّ تقتضيّ فقر الناس، بينما حقيقة السنن التاريخيَّة تؤكد العكس من ذلك، تؤكد بأنَّ تطبيق شريعة السماء وتجسيد أحكامها في علاقات التوزيع تؤدي دائمًا وباستمرار إلى وفرة الانتاج وإلى زيادة الثروة، إلى أن يفتح على الناس بركات السماء والأرض)) (٤).
وهناك آيات أرى أكدت و حثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخيَّة من أجل تكوين نظرة استقرائيَّة ، من أجل الخروج بنواميس وسنن كونيَّة للساحة التاريخيَّة، ومن هذهِ الآيات، قوله تعالى :

- **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾** (٥).
- **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾** (٦).
- **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** (٧).

---

(١) الأعراف: ٩٦
(٢) الجن: ١٦
(٣) الزخرف: ٢٢
(٤) ظ: المدرسة القرآنية / ٤٩- ٥٠ -٥١
(٥) محمد : ١٠
(٦) يوسف: ١١٩
(٧) الحج: ٤٦

- **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [١].

فمن مجموع هذه الآيات المباركة يتبلور المفهوم القرآني الذي ذهب إليه السيد الصدر ، وهو ((تأكيد القرآن على أنَّ الساحة التاريخيَّة لها سنن ولها ضوابط كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونيَّة الأخرى، وهذا المفهوم القرآني يعتبر فتحًا عظيمًا للقرآن الكريم؛ لأننا في حدود ما نعلم القرآن أول كتاب عرفه الإنسان أكد على هذا المفهوم، وكشف عنه وأصر عليهِ وقاوم بكلِّ ما لديه من وسائل الاقناع والتفهيم)) [٢] .

فيبين السيد الصدر أنَّ الإنسان بفطرته وعفويتهِ كان يفسر الأحداث على أساس الصدفة تارّة، وعلى أساس القضاءِ والقدرِ تارّة أخرى، فوقع مستسلمًا لها وخاضع، على هذا الأساس فالقرآن قاوم ذلك الاستسلام وقاوم هذهِ النظرة العفويَّة، ونبه العقل البشري على أنَّ هذهِ الساحة لها سنن، ولها قوانين، ولكي يكون انسانًا فاعلًا ومؤثرًا لا بد له أن يكتشف تلك السنن وتلك القوانين لكي يستطيع أن يتحكم فيها وإلا تحكمت هي فيهِ [٣].

النموذج التطبيقي الثاني: دور الإنسان في حركة التاريخ:

تحدث السيد الصدر عن المثل العليا التي تتبناها الجماعة البشريَّة على مر التاريخ ، وقد قسمها على ثلاثة أقسام، وسأتحدثُ عن القسم الأول منها فقط ، وهو(المثل الأعلى الذي يستمد تصوره من الواقع نفسه) فهو يكون منتزعًا من واقع ما تعيشه الجماعة البشريَّة من ظروف وملابسات ، أي أنَّ الوجود الذهني الذي صاغ المستقبل هنا، لم يستطع أن يرتفع على هذا والواقع ويتجاوزه.

ورأى أنَّ هذا النوع من المثل العليا له أحد السببين :

السبب الأول: النفسيّ ، وهو عبارة عن الإلفة والعادة والخمول والضياع، ومن الواضح أنَّه إذا انتشرت هذهِ الحالة النفسيَّة في المجتمع فسوف يُصاب بالجمود؛ لأنَّه سوف يصنع إلهه من واقعه! وسوف يحوِّل هذا الواقع النسبيّ المحدود الذي يعيشه إلى حقيقة مطلقة، إلى مثل أعلى لا يرى وراءه شيئًا .

ثم بيَّن السيد الصدر أنَّ الكثير من الآيات القرآنيّة تحدثت عن المجتمعات التي تتبنى هذهِ العادات ، التي واجهت الأنبياء حينما جاؤوها بمُثل عليا حقيقيّة، ترتفع عن الواقع وتريد أن تنتزعه من حدوده النسبيّة إلى وضعٍ آخر، فالأنبياء واجهوا تلك المجتمعات التي

---

(١) ق: ٣٦- ٣٧

(٢) المدرسة القرآنيَّة/ ٥٣

(٣) ظ: المصدر نفسه والصفحة .

سادتها حالة الإلفة والعادة والتميُّع التي جسَّدها رد أفرادها بمنطق واحد مكرر : (إنَّا وجدنا آباءنا على هذهِ السنة والطريقة، ونحن متمسكون بِمَثَلِهم الأعلى) [١].

بمعنى أنَّ تلك الجماعات وغيرها قد وقعوا في متاهات الواقع، وأصبحوا أسرى الأوهام والبدع ، من خلال استجاشة مشاعرهم نحو مثلهم الأعلى الضال ، فسيطر الواقع على أذهانهم ، وتغلغل الحس في طموحاتهم ، أدى ذلك إلى تحويل الإنسان من إنسان مفكر إلى إنسان حسيّ، إلى إنسان يكون ابن يومهِ فقط، وابن واقعه دائمًا ، لا ينظر إلى المستقبل، لا يغير بذلك الواقع.

فالسيد الصدر يصور لنا عادات المجتمعات على مر التاريخ، لنعكس ذلك التصور في مجتمعنا الحاضر، ونرى بأنَّ النظريَّة التي خرج بها تنطبق جليًّا على هذا الواقع. فالكثير من الناس قد تاهوا في ظلمات الطريق، حينما أغلقوا عقولهم، فتحولوا من أُناس مفكرين إلى أُناس تحكمهم المشاعر ، وتتلاعب بهم العواطف وكأنهم أحبارٌ ورهبانٌ، فصنعوا آلهة وجعلوها مثلهم الأعلى ، فمن ذلك الانصياع والعادة والاستسلام للواقع صارت تلك المثل العليا مكرّرة، ولهذا سوف يكون المستقبل تكرارًا للماضيَّ، ومعه لن تستطيع البشريَّة ان تتجاوز الواقع وان ترتفع بطموحاتها عنه .

ونجد أنَّ القرآن يصور لنا تلك الحقيقة المتجددة :

- **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** [٢].
- **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** [٣].
- **﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾** [٤].
- **﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾** [٥].
- **﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾** [٦].
- **﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾** [١].

---

(١) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن / ١١٥- ١١٦
(٢) البقرة: ١٧٠
(٣) المائدة: ١٠٤
(٤) يونس: ٧٨
(٥) هود: ٦٢
(٦) إبراهيم: ١١٠

في كل هذه الآيات، يستعرض القرآن الكريم السبب الأول لتبنيّ المجتمع لمثلِ هذا المثل الأعلى المنخفض. هؤلاء بحكم الإلفة والعادة وبحكم التميُّع والفراغ ، وجدوا سنة قائمة، ووضعًا قائمًا، فلم يسمحوا لأنفسهم بتجاوزهِ، بل جسدّوهُ كمثلٍ أعلى وعارضوا بهِ دعوات الأنبياء على مر التاريخ [٢].

السبب الثاني: اجتماعيّ

وهو عبارة عن التسلط الفرعونيَّ على مر التاريخ، فيصور السيد لنا أنَّ الفراعنة على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم يجدون في أي تطلع إلى المستقبل، وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليهِ، زعزعةً لوجودهم وهزًا لمراكزهم.

ولذا ، كان من مصلحة فرعون على مر التاريخ، أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع، ويحول الواقع الذي يعيشه مع الناس إلى مطلق، إلى آلهة إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزهُ، فتتجمد الأمة في حاضرها ولا تطمح إلى التفتيش عن مستقبلٍ لها. هنا سبب اجتماعيّ لا نفسي ، خارجي لا داخلي. وهذا أيضًا ما عرضه القرآن الكريم: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي**﴾ [٣]. ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [٤].

فالسيد الصدر أراد أن يبين لنا ذلك السبب الخارجي (الاجتماعي) الذي أجبر عقول الناس على الخضوع والتذلل وهو داهية العصر (فرعون) في ذلك الزمان وفي كل زمان آخر، فهنا فرعون يقول: ما أريكم إلى ما أرى، يُريد أن يضع الناس الذين يعبدونه كلهم في اطار رؤيتهِ، يحوّل هذهِ النظرة وهذا الواقع إلى مطلق لا يمكن تجاوزه؛ لأنه يرى في تجاوزه خطرًا عليهِ، فبذل ما يمكنه من أجل ابقاء ذلك الواقع على ما هو عليهِ .

وفي نفس هذا الاتجاه تشير الآية الكريمة: ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ. فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾ [٥]. إذًا هذا التجميد ضمن اطار الواقع الذي تعيشه الجماعة، أية جماعة بشريَّة، ينشأ من حرص أولئك الذين تسلطوا على هذهِ الجماعة، على أن يضمنوا وجوهم، ويضمنوا الواقع الذي هم فيهِ وهم بُناتهِ. والقرآن يسمي هذا النوع من القوى التي تحاول أن تحول هذا الواقع المحدود إلى مطلق، وتحصر الجماعة البشريَّة في اطار هذا المحدود ، يسمي هذا بالطاغوت، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا**

---

(١) الزخرف: ٢٢
(٢) ظ: السنن التاريخيَّة في القرآن/ ١١٧- ١١٨
(٣) القصص : ٣٨
(٤) غافر: ٢٩
(٥) المؤمنون: ٤٥- ٤٧

الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١].

فقد أخرج القرآن في هذهِ الآيات المباركة الذين يجتنبون الطاغوت بأنَّ لهم صفة مميزة وهي (يستمعون القول فيتبعون أحسنه) يعني لم يجعلوا هناك قيدًا على أذهانهم أو اطارًا محدودًا لا يمكنهم أن يتجاوزه ، بل جعلوا الحقيقة مدار همهم لهذا يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فهم في حالة طموح وتطلع وموضوعيَّة ، في حالة تسمح لهم بأن يجدوا الحقيقة [٢].

وخلاصة القول: إنَّ السيد الصدر أراد أن يثبت لنا حقيقة وهي : إنَّ التاريخ يتحرك من خلال البناء الداخليّ للإنسان، فالأول أخذ المثل العليا من الواقع الذي تعيشه الجماعة، وتكون الحركة التاريخيّة في ظل هذا المثل الأعلى حركة تكراريّة ، فيأخذوا الحاضر ويبنوا على أساسه المستقبل، وهذا المثل الذي تمسك بهِ الانسان أما أنه نابع من نفس الانسان، وقد عدَّه بـ (النفسيّ) ، وأما أن يكون مصدره خارجيَّ وعدّهُ بـ (التسلط الفرعونيّ) . وبعد أبانتهِ للقسم الأول تعرض إلى توضيح القسميّن الآخريّن من المثل العليا ، وهما : (المثل الأعلى الهابط) و (المثل الأعلى الحقيقيَّ "وهو الله سبحانه تعالى") وقد أبدع في عرضهما وتوضيحهما مما لا مجال لنا بأن نوردها جميعًا ، ولكن بإيرادنا للنماذج التطبيقيَّة لدراسة السيد الصدر أعلاه بدا لنا جليًّا أنه طبَّق ما نظَّر إليهِ وهذا قلما نجده عند المؤلفين بل أبدع في ذلك، ((كان باقر الصدر فيها قادرًا على التحليل العلميّ المُنظم، وقد ساعده على ذلك قدرته على فهم أعماق النصوص ومحاولة سبر أغوار الآيات القرآنيَّة)) [٣] . أضف إلى ذلك انطلاقه في تفسيره الموضوعيّ المبتدأ من الواقع والمنتهي إلى القرآن الذي تميّز به، فالذي يقرأ ما بين السطور ويدرك الخفايَّا التي بثها الشهيد الصدر في ثنايا كلماتهِ وخاصةً في محاضراته حول (التسلط الفرعونيّ) لا يعجب من خوف السلطة أبدًا، لذلك ذهب البعض بأنَّ هدفه هو أن يبعث رسالة إلى المجتمع تحذر من التسلط الفرعونيَّ (المعاصر) ، ولكننا نلاحظ بوضوح أنَّ تفعيل الدرس التفسيريّ والبحث القرآنيّ كان هدفه الأساس ، الهدف الأسمى له كان اظهار عظمة القرآن ، بيَّان أن للساحة التاريخية سننًا و اثبات أن القرآن لا ينتهي وأن القرآن حي لا يموت وأن القرآن حاضر في كل عصر، وموجود في كل واقع . فتجربة السيد الصدر في التفسير الموضوعيّ كما قلنا ونؤكد دائمًا بأنها تجربة رائدة منفردة ومميزة، والوقوف على مقتضياتها جميعًا أمرٌ يحتاج إلى طاقة كبيرة من الوقت والجهد ؛ وذلك لما يملك صاحبها من عقليَّة كبيرة قادرة على فهم أعماق النصوص، ومحاولة سبر أغوار الآيات القرآنيَّة.

---

(١) الزمر: ١٧ – ١٨

(٢) ظ: السنن التاريخيَّة / ١١٨ – ١١٩

(٣) مصادر التفسير الموضوعيَّ / ٤٧

المطلب الثاني: الدكتور حكمت عبيّد الخفاجي ، معالم جديدة

تعد تجربة أستاذنا الدكتور حكمت الخفاجي تجربة رائدة ومميزة في حقل المنهج الموضوعيّ، ابتدأت برسالة ماجستير تقدم بها إلى كلية العلوم الإسلامية – جامعة بغداد – عام ١٩٩٢م ، وهي أول رسالة ماجستير في العراق تناولت التفسير الموضوعيّ وكانت بإشراف الأستاذ الدكتور (مُحمد حسين عليّ الصغير) أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة الكوفة ، ثم طبعت تلك الرسالة على شكل كتاب يحمل عنوان : (التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ) ، وهو حاليًّا يُدَّرسُ في جامعة بابل/ كلية العلوم الإسلاميَّة- قسم علوم القرآن.

وإذا كانت هذه التجربة تستحق الدراسَّة، فالأولى أن تُدرس من داخل كليتنا، والأولى أن يدرس الطالب منهج أستاذه فيها ويقف على مقتضياتها ، وأنا بصدد أن أُبيَّن تلك الدراسة الناضجة في التفسير الموضوعيّ بنوعٍ من التفصيل:

أولًا: الدراسة النظريَّة للكتاب

صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، من مؤسسة دار الصادق الثقافيّة، في الحلة . أبتدأ الدكتور كتابهُ بالتمهيد، وتناول فيه عنوانين:

١- نظرة عامة في علم التفسير.

٢- التفسير الموضوعيّ .

أما في النقطة الأولى فقد عرف التفسير لغة واصطلاحًا، وناقش بعض التعاريف، ثم عرض اتجاهات التفسير، وفي النقطة الثانيَّة انتقل إلى ذكر أنواع التفسير الموضوعيّ، وهي ثلاثة ، وذهب إلى النوع الثانيّ منها هو الأنسب أن يطلق عليهِ تسميَّة التفسير الموضوعيَّ [١].

ثم انتقل إلى تعريف التفسير الموضوعيّ ، معرضًا في ذلك تعريفات المحدثين، منهم أمين الخولي، ومحمود شلتوت، ومحمود حجازي، وكذا تعريف أستاذهُ المشرف محمد حسين الصغير . وينتقد استاذنا هذه التعاريف، فقال: ((أنها لم تكن جامعة مانعة بل أكثرها لا يُعد أن يكون بيانًا للمنهج المتبع، في التفسير الموضوعيّ، وابراز أهميتهِ ، ... أنَّ التفسير الموضوعيّ هو معرفة أحوال من مجموعة من الآيات القرآنيَّة في موضوع محدد مرتبة على حسب النزول تارة وغير مرتبة تارة أخرى، من حيث دلالته على مراد الله تعالى بتيسير فهمه إلى المتلقي في كيان واحد وهيئة تركيبيّة

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيَّ للقرآن الكريم وموضوعاته/ ٢٨

متجانسة لا يفصل بينهما فاصل فيصب ذلك في بحث مستقل يكون موضوعه ما في الآيات من موضوع)) [١].

والحق أنَّه أصاب في نقدهِ ؛ لأنَّ الفرق بين الحديث عن المنهج ، والحديث عن المفهوم هو فرق واضح، ينبغي أن لا يختلط الأمر فيهِ لدى أي باحث أو دارس لأي علم من العلوم، فالتعريف شيء والخطوات المتّبعة والتقنيّات المستعملة والقواعد المعتمدة في انجاز البحث شيءٌ آخر [٢].

وفي فِقرة التمهيد يذكر أيضًا آراء العلماء في حداثة التفسير الموضوعيّ، وقد بينا سابقًا هذهِ الآراء ورأي الدكتور فيها أيضًا .

وعالج الدكتور تقويم التفسير الموضوعيّ في نهاية فقرة التمهيد، وأكد فيها بأنَّ الأبحاث القرآنيَّة لا بُدَّ أن تقدم بطريقة تناسب في أسلوبها طرق العصر ومفاهيمهِ، ليجد الناس فيها تسكينًا لخواطرهم ، والراحة لأفكارهم من القلق ، وأيضًا أكد على أهميَّة التفسير الموضوعيّ وضرورة المناداة به؛ لأنَّه السلاح الراد على شبهات المستشرقين وتلفيق المستغربين من أنَّ القرآن تكثير لا داعي له [٣].

وقد وهمَ أحمد رحمانيّ بأنَّ الدكتور حكمت عبيد الخفاجي عند معالجته تقويم التفسير الموضوعيّ أنَّهُ أهمل أو تجاهل محاضرات السيد الصدر، وحسب ظنه أنَّ سبب التجاهل يعود إلى التعصب المذهبي! [٤].

أي تعصب مذهبي؟ والاثنان يسيران تحت رايّة أهل البيت (عليهم السلام)، وأي تعصب وقد ذكرهُ في كتابهِ (منهج التفسير التحليليّ) عندما فرق بين الاتجاه التجزيئيّ والموضوعيّ بنوعٍ من التفصيل [٥]، فلا يوجد داعٍ لهذا الظن ، ويبقى الاثنان روَّاد التفسير الموضوعيّ المتغير بمرحلتهِ الناضجة .

بعدها انتقل الدكتور إلى الفصل الأول من الكتاب ، فنرى أنه تناول فيه أربع فقرات:

الأولى: التفسير الموضوعيّ عند القدماء، ويشمل: (فقه القرآن، أمثال القرآن، جدل القرآن، وأقسام القرآن) ، والتي وضعناها ضمن مرحلة الثابت في التفسير الموضوعيّ.

الثانيَّة: التفسير الموضوعيّ عند المحدثين العرب ، ويشمل: (الدعوة والتنظير والتطبيق) وهذا ما وضعناه في مرحلة المتغير في التفسير الموضوعيّ المُتغيّر غير الناضج .

---

(١) التفسير الموضوعيَّ للقرآن الكريم وموضوعاته / ٣٠
(٢) ظ: مصادر التفسير الموضوعيَّ / ٥٤
(٣) التفسير الموضوعيَّ للقرآن الكريم وموضوعاته/ ٣٥
(٤) ظ: مصادر التفسير الموضوعيَّ/ ٥٦
(٥) ظ: منهج التفسير التحليليَّ، د. حكمت عبيد الخفاجيَّ / ١٤٥--١٤٩

الثالثة: أعلام المستشرقين والتفسير الموضوعيّ.

الرابعة: الفهرسة الموضوعيّة عند المحدثين، وتشمل : (المحدثين العرب و المستشرقين).

أما الفصل الثاني فكان عنوانه : (موارد التفسير الموضوعيّ)، فقد ذكر فيها أربعة موارد ، منها :

١- القرآن الكريم .

٢- السنة النبويّة الشريفة.

٣- الصحابة والتابعون.

٤- اللغة .

أما في الفصل الثالث، فقد تطرق الدكتور إلى إيراد الخصائص المميزة للتفسير الموضوعيّ، الذي ذكر منها ما يليّ [١]:

١- تشكيل البنيَّة الفكريَّة و الفنيَّة للقصّة القرآنيَّة .

١- يشكل التفسير الموضوعيّ معرفة تراكميَّة .

٣- التفسير الموضوعيّ تفسيرٌ دلاليٌّا متميّزٌ .

٤- يبرز اسلوب القرآن في تدرج الأحكام .

٥- يُضيق الخلاف في مسألة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم .

٦- يقدم التفسير الموضوعيّ اطروحات متكاملة.

٧- الموضوع الواحد في القرآن الكريم.

٨- كشف البعد الانساني للموضوع القرآني .

٩- هو أطوع إلى العمل الجماعي منه إلى الفردي .

وقد أبدع الأستاذ الدكتور في هذا الفصل من جانبين: الأول: إظهار تلك الخصائص المتميزة بطريقة مستحدثة تُبيَّن أهميَّة وفضل هذا النوع من التفسير. والثاني: وسع

---

(١) ظ: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ١٠٤ – ١٤٢

محاور التفسير الموضوعيّ، وهذا ما سيتبن لنا في التطبيق في تشكيل البنيَّة الفكريّة و الفنيَّة لقصَّة نوح (عليه السلام) .

الدراسة التطبيقيَّة في الكتاب :

أما الدراسة التطبيقيَّة للتفسير الموضوعيّ فجاءت ضمن الفصل الرابع من الكتاب ، بعنوان: (تطبيقات التفسير الموضوعيّ) ، تناول فيها درسين:

الدرس الأول: تعرضه لموضوعات أربعة، وهي (فقه القرآن، أمثال القرآن، جدل القرآن، أقسام القرآن) ، وبيَّن الدكتور أنَّ هذهِ الموضوعات تمثل جزءًا ناهضًا من مفردات التفسير الموضوعيّ، وسواها يُقاس عليها في العرض والأسلوب والموازنة [١].

أبتدأ بالموضوع الأول، وهو(فقه القرآن)، بدايَّة بيَّن علاقّة الإنسان بالتشريع، فالإنسان منذُ أن خُلِقَ على هذهِ المعمورة والعنايَّة الإلهية تحيط به والرعايَّة الربانيَّة تنظر إليهِ أما بعقلهِ أو بآيات الخلق وعلامات الهدى التي كانت تلوح معالم على طريقهِ في حياته الممتدَّة بسلالتهِ المتواليَّة، إلا أنَّ الإنسان بطبيعتهِ وغريزتهِ وفطرتهِ التي ولد عليها كان ميَّالًا للحرّية ناشدًا لها في كلِّ زمانٍ ومكان، لا يرضى بتقييدها أو الحد منها، فإلزام الإنسان بشريعة أو قانون يجعله يرى بادئ ذي بدء في تلك الشريعة حدًا لغريزتهِ المتأصلة، وطبعه المستديم في طلب الحريَّة ، وبالمقابل إذا تُرك الإنسان لا يحد غلواءه حدود ولا يُقيد حريته قيد يتحول بمرور الزمن إلى جانٍ على نفسهِ بالدرجة الأولى وعلى الآخرين بالدرجة الثاني.

فالذي يرمي إليهِ الدكتور بأنَّ الإنسان تحكمه غريزته ، حتى وان كان يملكُ العقل الواعي، فالصراع قديم بينهما ما داما مجتمعين معًا، وبما أننا بينا من قبل دور القرآن وحركته في وسط المجتمع في كلِّ عصر وأنَّه وُجِدَ ليحل القضايَّا وليربيّ الإنسان ويهديه السلوك السويّ، فحاشا له أن يتركه هكذا ، فأتى المُشرّع بحقائق شرعيَّة ونظم ترمي إلى العدل والاعتدال مرتكزة على دعائم ثلاثة [٢]:

١- قناعة المكلف، قناعة نفسيَّة أنَّ به حاجة إلى تنظيم شرع وتشريع نظام .

٢- الإيمان بأهليّة المشرع لذلك التشريع، والاعتقاد بأحقيتهِ لوضع النظام .

٣- اعتقاد المُكلف بعدل النظام واعتدالهِ .

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ١٤٧ ، ويُنظر: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ / ١٦٥

(٢) ظ: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ١٤٨

ثم بعد ذلك تحدث الدكتور حول آيات الأحكام، وبين أنَّ حصر هذهِ الآيات وجمعها وترتيبها على الأبواب الفقهيَّة: (كـالطهارة، والصلاة، والزكاة، والحج) وغيرها هو تأصيل لمنهج التفسير الموضوعيّ، ومن تطبيقاته الرائعة ان قصد لها أو لم يقصد.

إنَّ ما يُميز منهج أستاذنا في التفسير الموضوعيّ هو تأكيده على أنَّ هذا المنهج موجود منذ القدم، وهذا ما أكدنا عليهِ وأوردناه في بادئ الأمر من أنَّ جذور وأسس هذا المنهج الأصيل مترسخة وحاضرة في الكتب القديمة، وان لم يصرح بها مؤلفيها، وما تطبيقاته لها إلا لإحيائها وإعادة صياغتها بمنهجيَّة موضوعيَّة معاصرة .

وفي حديثنا عن النوع الأول من تطبيقاته وهو (فقه القرآن) سعى الدكتور أن يختار أمثلة من تلك الكتب التي توجهت إلى موضوع أحكام القرآن موزعة على عصورٍ متباعدة، مرتبة ترتيبًا زمنيًا ، لتتجلى منها أحدى صور التفسير الموضوعيّ التي هي مدار التطبيق، فوقع اختياره الأول على كتاب (أحكام القرآن ، للجصاص ت ٣٧٠هـ). عرَّف الكتاب ، ثم بيَّن ملامح منهجه، وبعدها أورد نماذج تطبيقيَّة منهُ، ليخلص بنتيجة مفادها : إنَّ تفسير الجصاص ما هو إلا صورة من الصور التي تكشف الأصول الأولى لمنهج التفسير الموضوعيّ عند علماء الأمة ، وبيَّن أنَّ الجصاص قد عالج ثلاث موضوعات من فقه القرآن ، وهي:

١- تفسيره كلمة (كتب) من باب فرض الصلاة ، إذ استعان بآيتين من القرآن الكريم لتفسيرها .

٢- وفي تفسيره لكلمة (الصيام) من الباب نفسه، استعان بآية أخرى ليبيَّن معنى الصيام فأدت معنى(الإمساك).

٣- في باب حق الزوجة على الزوج، استعان بثماني آيات لتفسير جزء من آية تمثل في قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [١].

وهكذا يورد الدكتور الكتب المتعلقة بفقه القرآن، ويضعها موضع التطبيق، فتناول أيضًا:

* كتاب كنز العرفان في فقه القرآن ، للمقدّام السيوريَّ (ت ٨٢٦هـ).

* روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ، للصابوني.

فيعرف بهذهِ الكتب ، ويبين ملامح منهجيّة كل كتاب ، ثم يذكر نماذج تطبيقيَّة للموضوعات الفقهيَّة التي عالجها القرآن الكريم ، والتي هي أقرب ما تكون تطبيقًا حيًّا للتفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم . وهكذا الكلام حول المواضيع التي وضعها موضع التطبيق، والتي خُصصت لاتجاه واحد ولموضوعٍ واحد من مواضيع القرآن

([١]) البقرة: ٢٢٨ ، يُنظر: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ/ ١٥٤

المتـكثـرة، أعني:(أمثال القرآن، وجدلهِ ، وأقسامه)، ولا يسعنا أن نعرض جميع ما أورده في هذهِ المواضيع بغيَّة الاختصار، ولكني سأشير إلى أهم الكتب التي رجع إليها في بيانهِ لهذه المواضيع الثلاثة:

أما الأمثال، ذكر فيها كتابين :

الأول: ما جاء في مؤلفات القدامى وعنايتهم بهذا الموضوع واظهار أهميتهِ، فوقع اختياره على كتاب (الأمثال في الكتاب والسنة، للحكيم الترمذيّ "ت ٣٢٠هـ").

الثانيّ: ما جاء من كتابات المحدثين، ذكر فيهِ كتاب (الأمثال في القرآن الكريم، لمحمد جابر الفيّاض).

أما جدل القرآن، فذكر فيهِ انموذجا تطبيقيّا:

الأول: (استخراج الجدل من القرآن الكريم، لعبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبليّ "ت ٦٣٤هـ").

الثانيَّ: (مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور زاهر عوض الالمعيّ).

أما أقسام القرآن، فوقع تركيزه على كتاب (التبيّان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزيّة "٧٥٦هـ") الذي عدَّهُ مدارًا تطبيقيًّا جيدًا للتفسير الموضوعيّ [١]. ولم يذكر الدكتور نماذج تطبيقيَّة للمحدثين حول موضوع القسم، مُبينًا من ذلك سببين:

الأول: هو أنَّ الدراسات التي تناولته اقتصرت على الجانب اللغويّ والنحويّ.

الثاني: عدم استطاعة الوصول إلى بحثٍ حديث تناول القَسَّم بشكلٍ تفسيريّ.

وفي نهاية ايراده لتلك المواضيع بيَّن الدكتور سبب اختياره لهذه العناوين وجعلها مدار التطبيق للتفسير الموضوعيّ، التي يمكن أن نعدَّها بالآتي:

١- حاجّة المجتمع الماضي والحاضر والمستقبل لأحكام القرآن" لأنهُ يتعلق بتنظيم العلاقة بين الإنسان وما تطمح إليه نفسه، وعلاقة الإنسان بأخيه، والأهم من هذا علاقتهِ بربهِ .

٢- حيويّة الأمثال وأهميتها في حياة الإنسان؛ لأنَّ كل مسلم منا يستعمل في حياتهِ اليوميّة عددًا من الأمثال العاميَّة والعربيّة والجاهليَّة، فما الضير من أن يترسم القرآن الكريم في ضرب المثل واستيعاب تلك الصورة القرآنيَّة الرائعة في المثل المضروب فيها .

٣- ضرورة الجدل لمهمة افحام المعاندين والكافرين والمنافقين ولإبطال ادعاءاتهم الباطلة و شبهاتهم الزائفة المظللة حول القرآن الكريم، وحول النبيَّ الأعظم محمد (صلى الله عليهِ

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيَّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ١٩٧

وآله وسلم) ، والحاجَّة أكثر ضرَّورة اليوم لمثل هذا الجدل أمام التيارات الحاضرة والقادمة مستقبلًا من الشرق والغرب لمحاربة الإسلام وأهلهِ .

٤- تعظيم القسم والمقسم بهِ، والتذكير بأنَّه لا يجوز لنا شرعًا القسم بغير الله تعالى، وما كان قسمه سبحانه بمخلوقاتهِ إلا لاختصاصه بذلك [١].

الدرس الثاني: تطبيقات التفسير الموضوعيّ لقصص القرآن، قصة (هود) انموذجًا:

الدرس التطبيقيّ الأخر الوارد في كتاب أستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجي يدور حول القصص القرآني في القرآن الكريم، فيأتي الدور المهم للتفسير الموضوعيّ في ضم هذهِ القصص إلى بعضها فيضم التفاصيل إلى محاورها، والجزئيات إلى كليَّاتها، والفروع إلى أصولها، ولكنه في كل هذا لا يفقد القصص القرآني أغراضه الدينيَّة ولا يفرّط بواحد منها، بل العكس من ذلك، فدوره هو توحيد القصة المتفرقة نجومًا في القرآن الكريم ويرتب لها فصولًا تغني الباحثين والدارسين والمتطلعين إلى رؤيّة القصَّة القرآنيَّة موضوعًا قارًا كاملًا مستقلًا له أبعاده الفنيَّة وانعكاساته الاخلاقيَّة في التربية والتوجيه [٢].

ثم أشرع في بيان قصة (هود "عليه السلام") ودراستها دراسّة موضوعيَّة مفصَّلة تحت عنوان : " قصة هود والتفسير الموضوعيّ " .

اسلوب معالجة النصّ القرآنيّ عرضًا ونقدًا:

التفسير الموضوعيّ كمنهج يستطيع أن يسعفنا في تحديد هذا الأسلوب وهو: التسلسل الطبيعيّ للحدث الذي تزيد آياته على الأربعة أو أكثر، أما التسلسل الطبيعي فهو: بعد درج الآيات الخاصة بالموضوع الواحد نتبعها بعمليَّة نثر تلك الآيات على غير ما موجود في القرآن الكريم ولكن بالألفاظ نفسها التي وردت فيها لكي تشكل قطعة نثريَّة لموضوع معيَّن نستطيع من خلاله فهم وتفسير تلك الآيات القرآنيَّة المدرجة تحت العنوان الرئيس .

هذا الأسلوب الذي ذكره الدكتور وهو (التسلسل الطبيعيّ) استطاع من خلالهِ ان يبين فهم القصة القرآنيَّة بسهولة ويسر، فبعد أن يذكر محورًا من محاور قصة هود يتبعه مباشرة بالتسلسل الطبيعيّ.

المحاور الرئيسة في قصة هود:

عنوان المحور الأول: (رسالة هود إلى عاد بالأحقاف، ودعوتهِ)

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ٢١٠

(٢) ظ: المصدر نفسه / ٢١٦ -٢١٧

يدرج تحت هذا العنوان الآيات الخاصَّة به، وأوصلها إلى خمسة آيات، وهي:

١- ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا.** ﴾ [١].

٢- ﴿**عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**﴾ [٢].

٣- ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [٣].

٤- ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [٤].

٥- ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ**﴾ [٥].

التسلسل الطبيعيّ للموضوع:

((ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، واذكر اخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديهِ ومن خلفهِ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، قال يا قوم اعبدوا الله، ألا تعبدون إلا الله، ما لكم من الله غيره أفلا تتقون، إن أنتم إلا مفترون)) [٦]

عنوان المحور الثاني: (تكذيب عاد للرسل ومجادلة هود لهم)

يدرج تحت هذا العنوان آياتهِ المباركة [٧].

التسلسل الطبيعيّ للموضوع:

((كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم "أفلا" تتقون، إني لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون "يا قوم لا اسألكم" وما سألتكم عليه من أجر "اجرًا" إن أجريّ إلا على "الذي فطرني" رب العالمين و يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، أتبنون بكلِ

---

(١) الأعراف: ٦٥
(٢) فصلت: من الآية: ١٤
(٣) الأحقاف: ٢١
(٤) الأعراف: من الآية ٦٥
(٥) هود: من الآية ٥٠
(٦) ظ: التفسير الموضوعيَّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ٢١٨ ، ويُنظر: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيَّ / ٢٥٤
(٧) ظ: الآيات على التسلسل : الشعراء: ١٢٤ ، الأعراف: من الآية ٦٥ ، الشعراء : ١٢٧ ، هود: ٥١، الشعراء: ١٣٤، هود: ٥٢، الشعراء: ١٥٣، الأحقاف: من الآية: ٢١

ريع آية تعبثون وتتخذون مصانعًا لعلكم تخلدون وإذ بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله واطيعون، واتقوا الذي أمدكم بأنعامٍ وبنين، وجناتٍ وعيون، أفلا تعقلون)) [١].

عنوان المحور الثالث: (تسفيه قوم هود إياه ، وانكارهم رسالة البشر)

أدرج تحته الآيات المباركة :

١- ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [٢].

٢- ﴿**قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [٣].

التسلسل الطبيعيّ للموضوع:

((قال - قالوا – الملأ الذين كفروا من قومهِ إنَّا لنراك في سفاهةٍ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، وإذا نظنك من الكاذبين، فإنَّا بما أُرسلتم به كافرون)) [٤].

عنوان المحور الرابع : (تنزيه هود ونفيّ العجب من رسالتهِ بعد رسالة نوح)

أدرج تحته أيضًا آياته المباركة:

١- ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [٥].

٢- ﴿**وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ**﴾ [٦].

٣- ﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾ [٧].

٤- ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [٨].

التسلسل الطبيعيّ للموضوع:

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاتهِ / ٢١٩ ، ويُنظر: دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعيّ / ٢٥٣

(٢) الأعراف : ٦٦

(٣) فصلت: ١٤

(٤) التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاته/ ٢٢٠

(٥) الأعراف: ٦٧

(٦) الأحقاف : من الآية ٢٣

(٧) الشعراء: ١٢٥

(٨) الأعراف: ٦٩

قال يا قوم إنَّي لكم رسول أمين – ولكني – رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي – ما أرسلت به – وأنا لكم ناصحٌ أمينٌ، ليس بيّ سفاهةٌ، أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء في الخلق بصطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون [١].

وهكذا وسّعَ الدكتور محاور قصَّة (هود) حتى أوصلها لأحد عشر محورًا ، والبحث لا يسع أن نذكرها جميعًا؛ بغية الاختصار وعدم الاطالة ، إذ كان الغرض الأساس من هذا الذكر أعلاه هو لإيضاح تطبيقات التفسير الموضوعيّ في هذا الكتاب ، ولكنيّ سأشيرُ إلى عناوين تلك المحاور فقط، ليتسنى للباحث أو الدارس أو القارئ الاستزادة في فهم هذهِ القصة بمحاورها المتبقيّة [٢] وهي:

عنوان المحور الخامس: (طلب عاد البينة من هود ، وطلب العذاب استهزاءًا).

عنوان المحور السادس: (نصيحة هود وانذاره بالعذاب وتعليقه بعلم الله).

عنوان المحور السابع: (تكذيب عاد بالقارعة والعذاب).

عنوان المحور الثامن: (استخفاف عاد بالآية استكبارًا واعجابًا بقوتهم).

عنوان المحور التاسع: (نجاة هود والذين معه من العذاب).

عنوان المحور العاشر: (اهلاك الله عاد بريحٍ صرصرٍ عاتيَّة).

عنوان المحور الأخير: (اتباع عاد باللّعنة ، وتذكير صالح لقومهِ بهذهِ القصّة وكذلك القرآن الكريم).

وهكذا عالج الدكتور القصَّة القرآنيَّة بنوعٍ من السهولة واليسر بواسطة أسلوب التسلسل الطبيعي للموضوع المختار نثرًا، ثم بيَّن أنَّ قصَّة هود (عليه السلام) قد وردت في عشرِ سورٍ من الكتاب الكريم ليضعها في جدول مخطط حسب ورودها في المصحف الشريف، ثم يضع أمام كل سورة عدد آياتها المباركة التي تخصّ الموضوع [٣]، وقد اعتمد في هذا على الفهرسة الموضوعيَّة للقرآن الكريم ، ليمثل هذا النموذج التطبيقيّ جهدًا للوصول إلى التفسير الموضوعيّ للقصص القرآني ((والتقاط شذرات مضيئة من ذلك القصص من خلال ما توصلنا إليه من محاور تندرج تحتها مفاصل قصَّة هود، كانت بيانات واستنتاجات كافيَّة لدراسّة هذهِ القصّة في المستقبل إن شاء الله، وبينا من خلال تلك المحاور نجاح التفسير الموضوعيّ في تقديم اطروحة انسانيّة متكاملة في ضوء تفسيره

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاته/ ٢٢٠
(٢) ظ: المصدر نفسه/ ٢٢١- ٢٢٦
(٣) ظ: المصدر نفسه / ٢٢٦

للقصص القرآنيّ برؤى جديدة وابعاد فنيّة تستجـــليّ الهدايّة الإلـهيّة على شكل عبر واتعاظ)) [١] .

المطلب الثالث: تجربة الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالديّ [٢].

قدَّمَ فيها دراسّة نظريّة تطبيقيَّة مرفقة بنماذج ولطائف القرآن في التفسير الموضوعيّ تحت عنوان (التفسيرُ الموضوعيّ – بين النظريَّة والتطبيق) ، صدرت طبعته الثانيّة من دار النفائس في الأردن عام ١٤٣٢هـ / ٢٠١٢م .

وصف الكتاب:

الكتاب احتوى على بابين:

الباب الأول: تناول فيه الدراسّة النظريّة للتفسير الموضوعيّ، وسنشيرُ إليها سريعًا؛ لأنها لا تكاد تختلف عن الدراسات السابقة ، إذ اعتمد فيها بشكل رئيس على كتابين أشرتُ إليهما فيما سبق ، وهو كتاب(مباحث في التفسير الموضوعيّ، لمصطفى مسلم)، وكتاب (المدخل إلى التفسير الموضوعيّ ، لعبد الستار فتح الله سعيد) ، فقد بيَّن ذلك عند ذكر أهم المؤلفات في التفسير الموضوعيَّ ، قال: ((ولعل من أجود هذهِ المؤلفات كتاب الدكتور مصطفى مسلم، وكتاب الدكتور عبد الستار سعيد)) [٣] وقد حوى هذا الباب من الدراسة النظرية على (عشرة مباحث) توسع فيها إلى حدٍ كبير فاكتسب صفة التكامل والنضوج:

المبحث الأول: تحدث فيه حول التفسير والتأويل في اللغة والاصطلاح، وكذا الفرق بينهما.

المبحث الثاني: أشار إلى حركة التفسير في مسيرتها التاريخيّة ، وتناول فيها أربعة مراحل:

المرحلة الأولى: التفسير في طور التأسيس .

المرحلة الثانيّة: التفسير في طور التأصيل.

المرحلة الثالثة: التفسير في طور التفريع.

المرحلة الرابعة: التفسير في طور التجديد .

---

(١) التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاته / ٢٢٧

(٢) عالمٌ مسلم أكاديمي مُحاضر مُتخصص في التفسير وعلوم القرآن، مُدرس وخطيب أردني من أصل فلسطيني، ولد سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م في مدينة جنين، عمل في التدريس الجامعيّ زهاء ٣٥ عامًا، وتوفيَّ رحمه الله تعالى أثر مضاعفات مرض كورونا في هذا العام ١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م .

(٣) التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق/ ٣٥

أما المبحث الثالث: فبدأ الحديث فيه عن التفسير الموضوعيّ، إذ بيَّن فيهِ أنـــواع التفسير، وموقع الموضوعيّ منها، فأنواع التفسير أربعة ، الأول: الإجمـــاليّ . الثانـــي: التحليليّ. الثالث: المقارن. الرابع: الموضوعيّ. والفرق بين الموضوعيّ والأنواع المتقدمّة هـــو ((أنَّ الثلاثة السابقة تعتمد على تفسير القرآن كاملًا، آية آية ، سورة سورة، وفق ترتيب المصحف، بينما الموضوعيَّ بمتابعة الموضوع الخاصّ، والبقاء معه، وعدم الخروج عنه إلى موضوعات أخرى)) [١].

المبحث الرابع : بدأ الحديث عن صلب الموضوع، إذ بيَّن فيه أمرين:

الأول: عرَّف التفسير الموضوعيّ ، لكن الذي يُحسب عليهِ في هذا هو اعتماده على تعريف مصطفى مسلم فقط ، ثم قال : ((وعرفهُ بعضهم)) [٢]، ولم ينسب التعريف إلى صاحبه ، كصنيع الدكتور عبد الستار سعيد .

الثاني: بيَّن فيهِ أهم المؤلفات في التفسير الموضوعيّ.

المبحث الخامس: تحدث فيه عن بدايات التفسير الموضوعيّ عند السابقين، والتي جعناها من منطلقات أو أسس وجذور التفسير الموضوعيّ في الفصل الأول، وكذا الاشارات الاستباقيّة في الفصل الثاني، المتمثلة عنده بـالآتي:

١- تفسير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لبعض آيات القرآن الكريم.

٢- ابن عباس يجمع بين آيات متعارضة في الظاهر.

٣- إفراد بعض علوم القرآن بمؤلفات خاصة .

ثم تحدث عن الجهود التي بذلت في اظهار دراسات قرآنيَّة معاصرة .

المبحث السادس: تحدث فيه عن التفسير الموضعيّ، والموضوعيّ، انتهى إلى خلاصة: أنَّ الموضعيّ هو نفسه التحليلي ، وقد يسمى التجزيئي؛ لأنَّ المفسر يبقى في موضع واحد لا يتجاوزه. أما الموضوعيّ يسمى التفسير التوحيدي (الجمعيّ)، الذي يتناول موضوع واحد بعينه ولا يتجاوز إلى غيرهِ .

المبحث السابع: تناول فيه أسباب ظهور التفسير الموضوعيّ، وكذا تحدث عن مدى أهميّة هذا النوع من التفسير .

---

(١) التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق / ٣٢

(٢) المصدر نفسه/ ٣٤

المبحث الثامن: أورد فيه أنواع التفسير الموضوعيّ الثلاثة: (التفسير الموضوعيّ للمصطلح القرآني، وللموضوع القرآني، وللسورة القرآنيَّة) ، ذكر في هذا المبحث تفصل خاصّ حول هذهِ الأنواع الثلاثة من تعريفات المعاصرين لها مع التمثيل لكل نوع [١].

المبحث التاسع: تناول فيهِ الخطوات المرحليّة للسير في التفسير الموضوعيّ، والتي سمَّاها مؤلفون أخرون (منهج البحث في التفسير الموضوعيّ)، وقد توسع الدكتور الخالديّ في ذكر هذهِ الخطوات التي شملت الأنواع الثلاثة المتقدمة للتفسير الموضوعيّ. أضف إلى ذلك فإنه ذكر خطوات عامة تتناسب مع كل نوع من هذهِ الأنواع الثلاثة [٢].

المبحث العاشر والأخير: تناول فيه قواعد ومنطلقات منهجيَّة للبحث ، التي لا بد للباحث في التفسير الموضوعيّ مراعاتها والالتزام بها ، والانطلاق منها ، وقد اعتمد الدكتور صلاح الخالديّ على القواعد التي أوردها الدكتور عبد الستار سعيد ، ومن هذهِ القواعد :

١- الالتزام التام بعناصر القرآن .

٢- التقيّد التام بصحيح المأثور في التفسير .

٣- تجنب الحشو والاستطراد في التعليق .

٤- التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل.

٥- مراعاة خصائص القرآن الكريم : (القرآن أصل الأصول العلميّة كلها، القرآن هو الغايّة في الأحكام والاتقان، لا تكرار ولا زيادة في الأسلوب القرآني، القرآن كتاب هدايّة وتوجيه، القرآن عربيّ اللسان، براءة القرآن من المثالب والأخطاء التي وقع بها بعض العرب) [٣].

وقد أضاف الخالديّ بعض القواعد والمنطلقات المنهجيَّة الأخرى، وهي :

١- أدراك المهمة الأساسية للقرآن وتصور مقاصده وأهدافهِ ، فهو كتاب (هداية، وتربية وتوجه ورحمة وشفاء وتهذيب سلوك، وكتاب تشريع وحكم يقدم للمسلمين أحكامًا وتشريعات صائبة) .

٢- الثقة المطلقة بالحقائق القرآنيَّة، وعدم الانبهار بالنتاج الجاهليّ .

٣- التركيز على الأبعاد الواقعيَّة للموضوعات القرآنيَّة .

٤- التزود بزاد ثقافي معاصر .

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريّة والتطبيق / ٥٩- ٦٨

(٢) ظ: المصدر نفسه/ ٧٠- ٧١

(٣) ظ: المدخل إلى التفسير الموضوعيّ / ٦٧- ٨٦ .

٥- دخول عالم القرآن دون مقررات سابقة [١].

الباب الثاني : الدراسَة التطبيقيَّة للألوان أو الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعيّ ، إنَّ ما يُميّز عمل الدكتور الخالديَّ هو تناوله نماذج تطبيقيّة بين فيها الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعيّ التي أشار عليها؛ ولهذا وكما ذكرنا سابقًا السبب الذي جعنا نضعه ضمن مرحلة النضوج في التفسير الموضوعيّ .

طبَّق الدكتور الخالديّ منهجيّة التفسير الموضوعيّ التي دعا إليها في الدراسة النظريّة من كتابهِ على أنواع التفسير الموضوعيّ الثلاثة ، لكني سأشيرُ سريعًا إلى تلك الدراسات التطبيقيَّة الثلاثة؛ لتوسع تلك الدراسات من جهة ، ولغرض الاختصار وعدم الاطالة في الموضوع من جهة أخرى ، فقد طبَّق الخالديّ التفسير الموضوعيَّ بأنواعه الثلاثة على النحو الآتي :

الفصل الأول: ضمَّ النموذج التطبيقيّ الأول ، تناول فيهِ مادة (جهل في القرآن) .

الفصل الثاني: ضمَّ النموذج التطبيقيّ الثانيّ، تناول فيه موضوع (الشورى في القرآن).

الفصل الثالث: ضمَّ النموذج التطبيقي الثالث، تناول فيه (تفسير موضوعيّ لسورة محمد)

والحقُّ يقال: أنَّ الدكتور صلاح الخالديّ قد أجاد إلى حدٍ كبير في عرضهِ لتلك المواضيع وقد ألتزم لما دعا إليه في الخطوات المنهجيَّة للتفسير الموضوعيّ التي عرضها في الباب الأول ، وعندما تناول هذهِ المواضيع الثلاثة أشبعها بحثًا ودراسةً ولم يتعدَّ إلى غيرها إلا أن يتمها من جميع جوانبها . ولا بُدَّ لنا أن نشيرُ إلى جانب تطبيقي معيَّن من كتابهِ مستخلصًا من تفسير موضوع قرآني وهو (الشورى في القرآن) لأنَّه كما ذكرنا سابقًا أنَّ التفسير لموضوع قرآني معين هو الأقرب إلى التفسير الموضوعيّ الذي نحنُ بصددهِ .

فوقع اختياري على موضوع يمثل مظهرًا من مظاهر انطباق حقائق الحق وأباطيل الباطل على الواقع، وبيان تمثلها في أشخاص وأحداث ووقائع، وهو موضوع القصص القرآني ، فهو تفسير عملي ميداني لمبادئ القرآن ومقاصدهِ وحقائقهِ .

في المبحث الثالث من الفصل الأول تعرض الدكتور الخالديّ لموضوع وهو: (وقائع من الشورى في القصص القرآنيّ) أورد تحته مطلبين ، ونحن بصدد أن نبيَّن المطلب الأول منه فقط المتمثل بـ (وقائع من الشورى الايجابيَّة الخيَّرة)، أورد فيها ما يلي :

أولًا: إبراهيم يشاور إسماعيل (عليهما السلام) في رؤياه بذبحهِ : إنَّ إبراهيم أحب أن يشرك أبنه في لذة طاعة الله عزَّ وجل، والاستسلام له، فعرض عليه الأمر ، وقص عليهِ الرؤيا ، وشاوره في الموضوع ، قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ**

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريّة والتطبيق / ٩٠ – ٩١ – ٩٢ – ٩٣

فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [١].

إنَّ إبراهيم وهو يشاور إسماعيل (عليهما السلام) بقوله: " انظر ماذا ترى "، يعلم حقيقة موقف ابنه وحرصه على الاستسلام لأمر الله، فهو لن يشير عليه لمخالفة أمر الله، ولو كان أمر الله هو ذبحه، فإبراهيم يعلم ذلك ، لكنه استشاره ليشركه معه في الاستسلام الطوعيّ الاختياري العبادي لله سبحانه وتعالى [٢].

ويجدر بالذكر أنَّ ثمّة مفسرين ذكروا بأنَّ المذبوح أو الذي أمر الله بذبحهِ هو إسحاق (عليهِ السلام) إذ نجد ذلك فيما نقله الطبريّ في كتابهِ ((حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ) : أي لما مشى مع أبيه، وقوله ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ** ﴾ يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم خليل الرحمن لابنه: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ** ﴾ وكان فيما ذكر أن إبراهيم نذر حين بشَّرته الملائكة بإسحاق ولدًا أن يجعله إذا ولدته سارَة لله ذبيحا؛ فلما بلغ إسحاقُ مع أبيه السَّعْي أرِي إبراهيم في المنام، فقيل له: أوف لله بنذرك، ورؤيا الأنبياء يقين، فلذلك مضى لما رأى في المنام، وقال له ابنه إسحاق ما قال)) [٣].

وقوله: ﴿ **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** ﴾ يقول تعالى ذكره: قال إسحاق لأبيه: يا أبت افعل ما يأمرك به ربك من ذبحي.﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ يقول: ستجدني إن شاء الله صابرًا من الصابرين لما يأمرنا به ربنا [٤].

ونقل القرطبي في تفسيرهِ أيضًا أنَّ المأمور بالذبح هو إسحاق ((قال سعيد بن جبير : أري إبراهيم ذبح إسحاق في المنام ، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من منى ، فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال . وهذا القول أقوى في النقل عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة والتابعين)) [٥].

لكن جمعٌ من علماءنا الأماميَّة ذهبوا إلى أنَّ المذبوح هو اسماعيل (عليه السلام) ، فقال الطباطبائيّ : ((واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله: " فبشرناه بغلام حليم " المتعقبة بقوله: " فلما بلغ معه السعي " إلى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أن الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليهما السلام وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام)) [٦].

---

(١) الصافات : ١٠٢
(٢) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق / ٢٤٦
(٣) جامع البيان: ٢٣ / ٤٤٩
(٤) ظ: المصدر نفسه والصفحة .
(٥) الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ٤٤٦
(٦) الميزان : ١٧ / ١٥٣

إن عمر إسماعيل كان (١٣) عامًا حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، والذي يدل على بدء امتحان عسير آخر لهذا النبي ذي الشأن العظيم، إذ رأى في المنام أن الله يأمره بذبح ابنه الوحيد وقطع رأسه. فنهض من نومه مرعوبا، لأنه يعلم أن ما يراه الأنبياء في نومهم هو حقيقة وليس من وساوس الشياطين، وقد تكررت رؤيته هذه ليلتين اخريين، فكان هذا بمثابة تأكيد على ضرورة تنفيذ هذا الأمر فورا [١]

ثانيًا : إبراهيم يشاور إسماعيل (عليهما السلام) في بناء الكعبة : بعد فترة من الاستشارة السابقة بين ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) حصلت بينهما استشارة مرة اخرى أشار لها القرآن وحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر الله إبراهيم (عليه السلام) وهو في الأرض المقدسة ببناء بيتٍ لله في وادٍ غير ذي زرع ، الذي يُقيم فيهِ إسماعيل، فتوجه إبراهيم إلى ابنه وشاوره في الأمر ليشركه معه في لذة العبادة والطاعة لله سبحانه وتعالى . فكلف إبراهيم ابنه (عليهما السلام) بمساعدته ببناء الكعبة عن طريق المحاورة والشورى فأبدى إسماعيل الموافقة وأشار عليه بتنفيذ أمر الله وأعلن مساعدته وقاما معًا ببناء الكعبة ، قال تعالى : ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [٢].

ثالثًا: اخوة يوسف يتشاورون بشأن أخيهم الموقوف : لأخوة يوسف (عليه السلام) جلستان للشورة :

الأولى : المذمومة السيئة ، عندما تشاوروا في كيفيَّة التخلص من يوسف واتفقوا على القاءه في البئر .

الثانيّة: هي جلسة الشورى الطيبة (المحمودة)، وهي التي تعنينا هنا ، جاء اخوة يوسف (عليه السلام) إليه وهو في مصر ليشتروا منه الطعام ، وطلب منهم أن يحضروا معهم في المرة أخًا لهم من أبيهم غير شقيق لهم، وأحضروا أخاهم معهم ودبَّر يوسف وسيلة ليحتفظ بذلك الأخ عنده، وضع يوسف صواع الملك في رحل أخيه دون علم أحد ، فقد الموظفون الصواع وفتشوا عليه ووجدوه في رحل ذلك الأخ فأخذه يوسف بتهمة السرقة... فبعد أن أصر يوسف على بقاء أخيه عنده اجتمع الأخوة سرًا فيما بينهم وتشاورا في الأمر لتدارسوا كيفيَّة تخليص أخيهم أو اخبار أبيهم، قال تعالى:﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا**

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي : ١٤ / ٣٦٦

(٢) البقرة : ١٢٧

عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [١].

عبّرت الآيات عن تشاور الأخوة مجتمعين بقولها :" **خَلَصُوا نَجِيًّا** " وعددناها شورى ايجابية خيّرة ؛ لأن الأخوة كانوا مؤمنين وكانوا تائبين عن جريمتهم ومشورتهم السابقة بالتآمر على يوسف وكانوا حريصين على نجاة أخيهم الموقوف [٢].

رابعًا: اخت موسى تشير على آل فرعون : عندما وجد آل فرعون موسى الطفل الرضيع آبى ورفض أن يرضع من أي مرضعة بالمدينة وقد خاف آل فرعون على حياة الوليد الرضيع، راضين بأي مشورة تقدم إليهم، في هذا الظرف الحاسم تقدمت أخت موسى الوليد، وكانت كبيرة واعيَّة ناضجة ، تراقب تطورات الأحداث المثيرة ، وأشارت على آل فرعون بامرأة مرضع يقبلها الوليد، وكانت "شورى" أخت موسى وضعًا للأمر موضعه الصحيح ، حيث أشارت إليهِ بإعادته إلا أمه ، وبفضل الله تعالى وقدرته لم يعلموا أنها أمه التي ولدته ، ودون أن يعلموا أيضًا أن صاحبة المشورة هي أخته ، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [٣].

قدمت أخت موسى (عليهِ السلام) مشورتها بقولها: "هل أدلكم" وهذا استفهام منها للتشويق والتلطف في تقديم رأيها [٤]

خامسًا: مشاورة ملكة سبأ لقومها بشأن رسالة سليمان (عليه السلام): بعد أن حمل الهدهد رسالة النبي سليمان (عليه السلام) وذهب به إلى سبأ وألقاه إلى الملكة، ولما قرأت الملكة الكتاب فهمت دعوة سليمان ، وإنها إذا لم تدخل الإسلام فسوف يعلن عليها الحرب ، وعرفت أنها مقبلة على تطورات خطيرة ، وأحداث كبيرة .

جمعت الملكة مجلس الشورى عندها، ودعت الملأ المستشارين إلى التفكير في الأمر ، وطلبت مشورتهم ، وأخبرتهم أنها لا تقطع أمر من أمور الدولة إلا بعد موافقتهم ورضاهم ومشورتهم ، قال تعالى: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ. قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا**

---

(١) يوسف: ٨٠ ــ ٨٢

(٢) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق / ٢٤٩

(٣) القصص: ١١- ١٣

(٤) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق/ ٢٤٩ ــ ٢٥٠

تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [١] .

الشورى في آيات قصة ملكة سبأ وردت بصيغة الفتوى ، وبإعلانها الالتزام بما يشيرون بهِ : "أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمر حتى تشهدون" [٢] .

سادسًا: الشورى في قصة أصحاب الكهف : وردت الشورى في قصة أصحاب الكهف مرتين:

الأولى: عندما أستيقظ أصحاب الكهف من نومهم الذي استمر ثلاثمائة وتسع سنين، صاروا يتساءلون ويتشاورن بينهم ،قال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾** [٣]. وتنتج عن جلسة الشورى التي عقدوها عدم الخوض في تحديد مدة نومهم ، لعدم امكانيّة ذلك من قبلهم واتفقوا على البحث في المهم الضروري النافع، وهو إحضار الطعام وأمروا بالحذر والتلطف؛ لئلا يكتشف أمرهم ، : ﴿...**قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا. إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾** [٤].

الشورى الثانيّة: أما المشورة الثانيَّة فالتي حدثت في قصّة أصحاب الكهف ، وذلك عندما عرفوا أهل المدينة الشخص المبعوث من أصحاب الكهف ليشتريّ لهم الطعام ، فعثروا عليهم وعلى كهفهم، ولما أتوهم داخل الكهف وجدوهم قد ماتوا، ماتوا جميعهم موتًا حقيقيًّا في هذهِ المرة، المهم أنَّ أهل المدينة تشاوروا في أصحاب الكهف، وتنازعوا في التصرف المناسب بهم، واختلفوا في تحديد عددهم ، قال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا. سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾** [٥].

---

(١) النمل: ٣٢ ــ ٣٥
(٢) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق/ ٢٥١ ــ ٢٥٢
(٣) الكهف: ١٩
(٤) الكهف: من الآية ١٩ ــ ٢٠
(٥) الكهف: ٢١- ٢٢

تنازع أهل المدينة أثناء مشاورتهم بشأن أصحاب الكهف، واختلفوا في التصرف المناسب، وطرحت عدة آراء حول الموضوع سجلت الآيات رأيين فيهِ [١]:

الأول: قال أصحابه: أبنوا على كهفهم بنيانًا، وأبقوهم داخله مكرَّمين، وفوضوا العلم بهم إلى الله تعالى، فنحن لا نعلم عنهم شيئًا .

الثاني: قولهم : أن لا يكون ذلك البنيان عاديًّا، إنما هم أكرم من ذلك، والذي يليق بهم هو بناء مسجد عليهم، وبعدها بنيّ المسجد ، وجاءت أجيال جديدة لم تعرف عدد أصحاب الكهف، وأختلف الناس في ذلك ، ومن الأقوال التي أوردتها الآيات :

الأول: هم ثلاثة، رابعهم كلبهم.

الثاني: هم خمسة ، سادسهم كلبهم.

الثالث: هم سبعة ، وثامنهم كلبهم .

وتعد هذهِ الشورى وقبلها التي سجلتها الآيات القرآنيَّة (مشورة خيَّرة) وردت في قصص القرآن الكريم، التي أوردها الدكتور الخالدي في كتابهِ لتكون تفسيرًا موضوعيًّا، وغيرها من المواضيع الكثيرة التي دُونت في هذا الكتاب كانت تطبيقات ناطقة لمنهجيَّة التفسير الموضوعيّ في مرحلته الناضجة .

---

(١) ظ: التفسير الموضوعيّ بين النظريَّة والتطبيق/ ٢٥٤- ٢٥٥

خَاتِمَةُ الرِّسالةِ ونتائجُهَا وتوصَياتُهَا

خاتمة الرّسالة و نتائجُها :

أحْمَدُ العليَّ القدير أنْ وصلتُ إلى هذهِ المرحلة النهائيّة في كتابةِ رسالتي الموسومة بـ (التَّفسير الموضُوعيّ بين الثَّابت والمُتغير)، وقد تحصلت لي مجموعة من النتائج المهمة، ومنها :

الأولى: إنَّ التفسير الموضُوعيّ بوصفهِ مركبًا وصفيًّا لابدّ أن يشتمل على مفاهيم محورية في التعريف وهي (الكشف، وتبيان القضايا المهمة، وتوظيف المعاني الجليلة والقيم في المجتمع خاصّة والعالم عامَة) فنرى أنهُ علمٌ يختصُ بالكشف عن القضايّا التي تضمنتها آيات القرآن الكريم من خلال سورة أو أكثر ، أو مجموعة من الآيات في قضيّة معينة لبيان الأحكام والحقائق القرآنيّة في جوانب الحياة المختلفة بقدر الطاقة البشريّة، وتوظيفها في الواقع المعيش .

الثانية: تبيَّن لي أنَّ التفسير الموضوعيّ بمراحلهِ الأولى ولا سيّما في مرحلة المنطلقات والأسس ثمّة مؤشرات يمكن الركون إليها، تكاد تكونُ العنوان الكبير والشعار الظاهر في هذهِ المرحلة ولا سيما فيما يتعلق بـ (تفسير القرآن بالقرآن ونظريَّة الجريّ والتطبيق والتدبّر في القرآن و عقليَّة المُفسر) فهذهِ تُعَدُّ من أمارات وعلامات الجذور والأسس والمنطلقات الأولى للتفسير الموضوعيّ ، فمنهج تفسير القرآن بالقرآن يعدُّ المنطلق الأول والأهم لهذا التفسير، وهو المنهج الأساس لتفسير القرآن الكريم، وبيان مرتبة المناهج التفسيريّة الأخرى إذا ما قورنت بهِ وأنَّ البحث في التفاسير المأثورة عن النبيّ الأكرم والأئمّة الأطهار(صلوات الله عليهم أجمعين) يثبت أن تفسير القرآن بالقرآن، وكذلك البحث الموضوعيّ في القرآن كان هو الشائع والغالب عندهم.

الثالثة: إنَّ الآياتِ القرآنيَّة المباركة لا ينبغيّ أن تكون مجرد إخباريات تاريخيّة وتقارير عمّا جرى في الماضي لا غير، بل هي آيات إلهية قابلة للتَّكرار ولها مصاديق متجددة على مر العصور يمكن أن تنطبق على الحاضر. و إنَّ العقليّة التي يتمتع بها المُفسّر والمرجعيّة الفكريّة العامَّة والخاصّة، كان لها الأثر الواضح في ظهور المناهج التفسيريّة المتعددة ، ومنها منهج التفسير الموضوعيّ.

الرابعة: بدا لي أنَّ ثمة إشاراتٍ استباقيّةً ولمحاتٍ فنيّة للتفسير الموضوعيّ عند العلماء، وإن كانت مبثوثة هنا وهناك ، إلا أنها بمجموعها تمثّل كمًا و حيّزًا كبيرًا ضمن المنهج الموضوعيّ، وهذا ما نجده في المؤلفات التفسيريّة واللغويَّة والبلاغيَّة وكتب علوم القرآن وغيرها.

الخامسة: إنَّ أكثر الاشارات الاستباقية وجدناها عند علماء التفسير، ولا سيما مِمّن عُنُوا بمنهجيّة (تفسير القرآن بالقرآن) وهذا ما نلمحه في تفسير جامع البيان للطبريّ، وتفسير

التبيان للطوسيّ ، وكذا تفسير الكشّاف للزمخشريّ ومفاتيح الغيب للرَّازيّ وغيرهم ، وهذهِ الاشارات تمثل جذورًا وممهدات مهمّة للتفسير الموضوعيّ.

السادسة: بدا لي أنَّ مرحلة الثابت في التفسير الموضوعيّ عند المستشرقين كانت حاضرة، وهذا ما رأيناه في كتاباتهم لمواضيع اتجهت نحو التخصص في موضوع مستقل، فقد تميّز طابع بعض الدراسات القرآنية عند المستشرقيـن بصيغة البحث الموضوعـيّ لبعض الجزئيات في القرآن الكريم ، وهذا المنهج سليم للغاية ، ففي القرآن مئات الموضوعات المهمّة والبحث فيها جملة قد لا يُعطِي ثماره ، ولا يفي حقّ كل موضوع.

السابعة: يتجلّى لي في ضوء بيانات أمين الخولي التي استعرضناها من قبل أنهُ لم يقل (بمنهج التفسير الموضوعيّ) بل دعا إلى تفسير القرآن تفسيرًا موضوعيًّا في ظلِّ جمع المفاهيم والحقائق ذات الصلة سواء أكان في السورة نفسها أم في القرآن كله مع معاينة ترتيب الموضوع ترتيبًا زمنيًا والدراسّة الخاصّة بما يُحيطُ بالنصِّ، والدراسّة الداخليّة (بُنيَّة النصّ) . لذا تبيّن لنا أنَّ وصف المتغيّر في التفسير الموضوعيّ بـ (مرحلة قبل النضوج) بلحاظِ أنَّ الوصفَ الدقيق للتفسير الموضوعيّ بوصفهِ منهجًا لم نجد له مصطلحًا قارًا، وهذا ما وجدناه في بيانات أمين الخولي التي دعا إلى دراسّة القرآن الكريم موضوعيًّا، أي: جمع الموضوعات ذات الرابط الواحد.

الثامنة: أطلقنا على مرحلة المتغيّر من التفسير الموضوعيّ (وصف مرحلة قبل النضوج)؛ لأنَّ هذا المنهج لم يكن قارًّا بشكلٍّ دقيق عند الدكتورة عائشة عبد الرحـمن، على الرغم من وجود إشارات إلى هذا المنهج إلا أنها لم تصّرح تصريحًا قاطعًا بـ (منهج التفسير الموضوعيّ)، نعم الخطوات كانت حاضرة في التنظير والتطبيق عندها ولا سيما في كتابها التفسير البياني للقرآن الكريم .

التاسعة: إنَّ المتغيّر في التفسير الموضوعيّ (مرحلة قبل النضوج) كانت قائمة على أركان ثلاثة ، هي :

الأول: مستوى استقرار المصطلح (منهج التفسير الموضوعيّ) .
الثاني: الخطوات العامَّة والخاصَّة .
الثالث: على مستوى الإجراء والتطبيق .

ففي المستوى الأول لم نجد تصريحًا واضح المعالم باستقرار هذا المصطلح وثبوتهِ، أما على المستوى الثاني فثمة حلقاتٌ فارغاتٌ ومناطقُ لم تُمسَّ في خُطُوات هذا المنهج، أما على المستوى الثالث فنلمح غياب معاينة الواقع عند دراسة الموضوعات القرآنية ذات الصلة وتطبيقها على الواقع المعاصر.

العاشرة: بدا لي أن تجربة السيد محمد باقر الصدر، وأستاذنا الدكتور حكمت عبيد الخفاجيّ، وكذلك الدكتور الخالديّ، قد مثلت المرحلة الناضجة للتفسير الموضوعيّ ، وهذهِ التجارب تستحق الإشارة والذكر ؛ فالأول: عمل على تفعيل الواقع ومزجه مع القرآن ، والثاني: حاول ادخال المفاهيم القرآنيّة (الفقه والمثل والجدل والقسم) إلى ساحة التفسير الموضوعيّ مرة أخرى وإعادة صياغتها بمنهجيّة موضوعيّة جديدة ، وكذا وسع محاور التفسير الموضوعيّ للقصّة القرآنيّة ، أما الثالث: قدَّم أمثلة تطبيقيّة على الألوان أو الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعيّ: (التفسير الموضوعيّ للمصطلح القرآني، وللموضوع القرآني، وللسورة القرآنيّة)، وأيضًا تحدّث عن المقاصد القرآنيَّة.

الحادية عشرةَ: يمكن أن نضيف إلى ألوان التفسير الموضوعيّ لونًا آخرًا، وهو اسقاط المواضيع الحياتيّة المختلفة والمشكلات والتطورات المتنوعة على النصوص القرآنيّة؛ لنخرج بفكرة قرآنيّة حول هذهِ المواضيع وكيفيّة توجيهها وحلّها وتنظيمها من خلال القرآن الكريم، وهذا فيه توسع في فهم معنى التفسير الموضوعيّ، فهو ليس مجرد جمعٌ للآيات ودراستها موضوعًا أو دراسّة لفظة ما من ألفاظهِ أو موضوعًا لسورهِ حتى لا نضيّق عظمة وشموليّة القرآن الكريم في معالجة كل المواضيع واظهار سعة التفسير الموضوعيّ على ما هو معروف بين كثير من الباحثين .

الثانية عشرة: تبدَّى لي أنَّ التفسير الموضوعيّ المتغير في مرحلتهِ الناضجة قد تناول كلًا من (الألفاظ والمضامين والقضايا الواقعيّة والمعالم الجديدة والمقاصد القرآنيَّة) وهذا في ضوء ما قرره العلماء المعاصرون، ولكنهم لم يتحدّثوا عن الجانب الحضاريّ للقرآن الكريم وعالميته، فمن خلال التفسير الموضوعيّ الناضج يمكن أن تصل الأفكار والهِدايات الإلهية للعالم أجمع . فالتفسير الموضوعيّ يخلقُ لنا مساراتٍ جديدةً ومنظومات مهمةً في التفاعل الحركيّ والحضاريّ مع القرآن الكريـــم .

الثالثة عشرة: أصبحَ التفسير الموضوعيّ مهيمنًا في الساحة التفسيريّة في العصر الحديث؛ إذ إنَّ أكثر الدّراسات لا تخلو من التفسير الموضوعيّ؛ لأنَّ الباحث لا يستطيع أن يدرس مفهومًا أو قضيّة أو مصطلحًا أو لفظًا قرآنيًّا ما لم يستجمع له المرادفات من القرآن كله ومن ثَمَّ فتتوسَّعُ المنظومة التفسيريّة لكتاب الله الخالد .

التَّوْصِيات:

لا بُدَّ لكلِّ عملٍ من نواتج توصيات ومستخلصات تنيرُ أفكار ورؤًى عسى أن يُكتب لها النورُ، وتظهر كدراسات وقراءات في الدّرسِ التفسيريّ، الذي يُعّدُّ أشرف الدروس، ومن هذهِ التوصيات ما يلي :

الأولى: لا بُدَّ من دراسّة التفسير الموضوعيّ في تراث أهل البيت (عليهم السلام)، بوصفهم هم الذين أسسوا لهذا التفسير، ولكن الدّراسات غائبة عنهم، وإذا نظرنا إلى نهج البلاغة نجد أنَّ الإمام علي (عليهِ السلام) يأسس للتفسير الموضوعيّ في أصول الدّين (التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد) في نهجهِ المبارك .

الثانيّة: الدعوة إلى ربط التفسير الموضوعيّ في المشروع الحضاريّ، بمعنى أن يكون القرآن عابرًا للحضارات المختلفة، أو كيف أن نجعل المفهوم القرآنيّ متحركًا، وأن لا يكون في بيئة ضيقة منحصرًا فقط عند العرب المسلمين؛ لأنَّ المفهوم القرآنيّ إذا نُقل بصورة صحيحة قد ينعكس ذلك على ايمان مختلف الطوائف بالقرآن الكريم ، وهذا هو الهدف الأسمى للقرآن، من هنا فإنَّ التفسير الموضوعيّ يحقق الهدف المرجوَّ .

الثالثة: الدعوة إلى دراسّة مدى إفادة المستشرقين من التفسير الموضوعيّ من جهةٍ ، ودراسّة جذور التفسير الموضوعيّ عند المستشرقين؛ والوقوف على جهودهم في هذا الموضوع من جهةٍ أخرى .

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

القرآنُ الكريمُ.

أولًا: الكتب المطبوعة:

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت١٤٢٨هـ
- أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، د. مساعد عبد الله آل جعفر، ط١ ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢٩هـ.
- أحكام القرآن ، أبو بكر أحمد بن علي الرازيّ الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، ط١، دار الخلافة العليّة ، (د. ط) ١٣٣٥هـ .
- أحكام القرآن، جمعه أبو بكر أحمد بن حسن البيهقي (ت ٤٥٨هـ). تح: الشيخ عبد الغني عبد الخالق، ط١، دار احياء العلوم، بيروت ١٤١٠هـ .
- أدبية النصّ القرآني، بحث في نظرية التفسير، عمر حسن القيّام ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الامريكية، ١٤٣٢هـ .
- أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، محمد المصطفوي، ط٢، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ٢٠١٧م .
- اصول السرخسي، الفقيه الاصولي أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، تح: أبو الوفا الافغاني، ط٣، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ.
- أصول الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ)ط١، منشورات الفجر، بيروت ١٤٢٨هـ .
- الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين النص الثابت والواقع المتغيّر ، حسين سعيد، ط١ ، دار صادر، بيروت ١٤٤٠هـ .
- أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، تح: بكر بن عبد الله بن زيد،دار عالم الفوائد، بيروت ١٤٠٠هـ .
- اطروحة التفسير الموضوعيَّ عند السيد محمد باقر الصدر، أحمد عبد الله أبو زيد ، ط١، مركز الحضارة لتنميّة الفكر الاسلامي، بيروت ٢٠١٠م .
- الأمثال من الكتاب والسنة، الحكيم الترمذي(ت: ٣٢٠هـ)، تح : علي محمد البجاوي، وعلق عليه وقدمه : الدكتور السّيد الجميلي ، ط١،دار ابن زيدون، وأيضًا في دار اسامة في دمشق ١٤٠٧هـ .
- أمين الخولي والبحث اللغوي، د. حامد محمد أمين شعبان، ط١، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٨٠م .
- بحار الأنوار ، محمد باقر المجلسيّ (ت ١١١١هـ) تح: الحاج محمد باقر، مطبعة وزارة الارشاد الاسلامي .

- البحر المحيط في تفسير ، أبو حيان الاندلسي، تح: الشيخ عادل أحمد ، و الشيخ علي محمد معوض ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣ هـ .
- بحوث في أصول التفسير ومناهجه، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط٤، مكتبة التوبة، الرياض ١٤١٩هـ .
- البدايّة في التفسير الموضوعيّ – دراسّة منهجيّة موضوعيّة، ط٢ ، مطبعة الحضـــارة العربـــية، غزّة ١٢٩٧هـ .
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي ، ط١، دار التراث، بيروت ١٩٨٤م.
- بنت الشاطئ من قريب، حسن جبر، ط١، دار الكتاب الحديث ، بيروت ٢٠٠١م .
- بيان اعجاز القرآن، العلامة أحمد بن محمد الخطابي(ت ٣٨٨هـ) ، ط٢، دار صادر، بيروت ١٤٣٣هـ.
- تأريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار، ط٥، دار المعارف، القاهرة(د. ت) .
- تأريخ النقد الأدبي، عباس إحسان ، ط٤، دار الثقافة، بيروت ١٩٣٨م .
- التبيان في تفسير القرآن ، الشيخ الطوسي، تح: الشيخ آغا بزرك الطهراني، ط١ ، المطبعة العلمية في النجف ١٣٧٦هـ .
- التبيان في تفسير القرآن ، الشيخ الطوسي، تح: الشيخ الطهراني، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٤١٣هـ.
- تجارب في الأدب والنقد، شكري عيَّاد، ط١، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧م .
- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) ط١، دار سحنون، تونس .
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المحقق المفسر العلامة المصطفوي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٣٠هـ.
- تدبر القرآن، سلمان بن عمر السنيدي ، ط٢، المنتدى الاسلامي، ١٤٢٣هـ .
- التدبر في القرآن، آية الله السيد محمد رضا الشيرازي ، ط٣، دار العلوم، بيروت، ١٤٣١هـ .
- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط١، دار القلم، بيروت ٢٠٠٢م .
- التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتورة عائشة عبد الرحمن، ط٢، دار المعارف، بيروت (د.ت) .
- تفسير العياشي، الشيخ أبي النصر محمد بن مسعود العياشي(ت ٣٢٠هـ)ط١، مؤسسة البعثة، قم المقدسة .
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٧٧٤هـ). ط٢، دار الفكر، بيروت،١٤٠١هـ .

- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٣٠هـ .
- تفسير القرآن الكريم " الأجزاء العشرة الأولى " محمود شلتوت، ط٤، دار العلم، القاهرة ١٩٦٦هـ .
- تفسير القرآن بالقرآن، دراسة تأصيليّة ، د. أحمد البريدي، ط١،مكتبة الرشد، الرياض ١٤٢٨هـ .
- تفسير القميِّ ، علي بن إبراهيم القمي(ت ٣٢٩هـ)، ط١، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٤٢٨هـ .
- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ، ط٤، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم المقدسة ١٤٣٨ هـ .
- تفسير المنار ، محمد رشيد رضّا (ت ١٣٥٤هـ)، ط١، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٣م .
- التفسير الموضوعيَّ بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبد الفتاح الخالديّ، ط٣، دار النفائس، عمان ١٤٣٣هـ .
- التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم وموضوعاته، د. حكمت عبيد الخفاجيّ، ط١، دار الرضوان، عمَّان ١٤٣٤هـ .
- التفسير الموضوعيّ والفلسفة الاجتماعيَّة في المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، تقديم: جلال الدين عليّ الصغير، ط١، الدار العالمية، بيروت ١٤٠٩هـ .
- التفسير نشأته – تدرجه – تطوره ، أمين الخولي ، ط٢، دار القلم، القاهرة ١٤١٦هـ .
- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨١هـ .
- تفصيل آيات القرآن الحكيم، نقله إلى العربية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء الكتب العربية ، بيروت ١٩٩٩م .
- التفكر في المشاهدة والمشهود . مالك البدري، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا ١٤١٣هـ .
- التكوين، حياة المفكرين والأدباء والفنانين بأقلامهم ، مكرم محمد أحمد ، سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال، ط١، دار الهلال، عمان ١٩١٥ م .
- تهذيب اللغة، الازهريّ، ط١، دار إيحاء التراث العربي، ط٢، بيروت ٢٠٠١م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، ، تح: محمد الداية، ط٢، دار الفكر المعاصر، دمشق ١٤١٠هـ .
- الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، عابد السفياني، ط١، مكتبة المنارة، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ .

- الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، الأستاذ الدكتور صلاح الصاوي ، ، ط١، ٢٠٠٩ .
- جامع البيان في تفسير القرآن ،الطبري(٣١٠هـ) تح: محمود محمد شاكر ، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٣٧٤ .
- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (ت ٦٧١هـ) تح: أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢هـ .
- حضارة العرب، غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بيروت ٢٠٠٤م .
- خطوات التفسير البياني ، د. محمد رجب البيومي، ط١، المكتبة الازهريّة (د.ط) ١٣٩١هـ .
- الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الالمانيّة، رودي بارث ، ترجمة: مصطفى ماهر ط١ ، مركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١١م .
- دراسات في القرآن ، أحمد خليل، ط٣، دار المعارف ، بيروت ١٩٧٧م.
- دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، فتحي الدريني، ط١ ، دار قتيبة ، بيروت ١٨٨٩م .
- دروس في أساسيات منهج التفسير الموضوعي، الاستاذ الدكتور حكمت عبيد الخفاجي، ط٣، دار الصادق، بابل، ٢٠٢٠م .
- دلائل الاعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني(ت ٤٧١هـ) تح: محمود شاكر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ .
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ) ط١، (د.ط) النجف الاشرف ١٣٧٨هـ .
- الرمزية والمثلُ في النص القرآني، من أبحاث السيد كمال الحيدري، بقلم الدكتور طلال الحسن، مؤسسة الهدى، بيروت، ١٤٣٤هـ .
- السراج المنير، الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ)، ط٢، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٤١١هـ .
- السنن التاريخيَّة في القرآن، السيد محمد باقر الصدر، ، أعاد صياغة عباراته : الشيخ محمد جعفر شمس الدِّين ، ط١ ، دار احياء التراث العربيّ، بيروت ١٤٣٢هـ .
- شخصيات ومواقف، محمد الصالح الصدِّيق، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٩٢ م .
- شرح نهج البلاغة، لأبن أبي الحديد (٦٥٦هـ)، تح: محمد عبد الكريم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٧٨هـ .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١م .

- الصحيفة السجاديِّة الكاملة، من أدعيّة الامام زين العابدين (عليه السلام) الدعاء الثاني والأربعون، تقديم السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (د.ط) (د. ت) .
- العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي(ت ٢٤٣هـ) تح: حسين القوّتلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٣٩١هـ .
- عقليات اسلامية، محمد جواد مغنية، ط٢، دار الجواد، بيروت، ١٤٠٤هـ .
- عمدة التفسير، مختصر تفسير القرآن العظيم، العلامة الدكتور أحمد شاكر. ط٢، دار الوفاء ، المنصورة ١٤٢٦هـ .
- فتح القدير الجامع بين فنيّ الروايّة والدرايّة من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠هـ)، ط٤، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٧م .
- الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، الشيخ محمد الصادقي الطهراني (١٤٣٢هـ) ط٣ دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦م .
- فقه القرآن، قطب الدّين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي(ت٥٧٣هـ) تح: السيد أحمد الحسينيّ، والسيد محمود المرعشى، ط١، المطبعة العلمية، قم المقدسة ١٣٩٧هـ .
- الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث، عفَّت شرقاوي ،ط٢، دار احياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م .
- الفكر العربي في عصر النهضة ، إلبرت حوراني ، ترجمة : كريم عزقول ، ط٤، دار النهار ، بيروت ١٩٨٦ .
- الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، شرح وتحليل : خليل عبد الكريم، ط٤، سينا للنشر – الانتشار العربي، بيروت، لندن، القاهرة ١٩٩٩م.
- القرآن والنظر العقلي، فاطمة اسماعيل ، ط١، منشورات المعهد العالمي الإسلامي، ١٤١٣هـ .
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل ، عبد الرحمن حسن الميداني، ط٢، دار القلم، دمشق ١٩٨٩م .
- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦هـ) تح: خالد عبد عثمان السبت ،طبعة جديدة، دار ابن الجوزي، الدمام (د. ت) .
- كتاب التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، ، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٤هـ.
- كتاب الصافي في التفسير، العارف المحقق محمد بن المرتضى الفيض الكاشاني(ت ١٠٩١هـ)، ط١، المطبعة الاسلاميّة ، طهران .
- كتاب الصفوة، للإمام الأعظم زيد بن علي (عليهما السلام) تح: إبراهيم يحيى الدّرسي، منشورات أهل البيت للدراسات الاسلامية' صعدة.

- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: إبراهيم السامرائي ، مهدي المخزومي ، ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ١٤٠٨ هـ.
- كتاب صحيح البخاري ، الحافظ أبي عبد الله الحافظ بن اسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، تح: محمد بن صالح الراجحي، ط٢، دار ابن كثير، بيروت (د، ت) .
- كتاب معاني القرآن، أبي الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ).، تح: د. هدى محمود، ط١،مطبعة المدني، القاهرة ١٤١١هـ .
- الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تح: محمد عبد السلام شاهين، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦م .
- كَشف الغُمة في معرفة الأئمة ، علي بن عيسى الإربليّ (ت٦٩٢هـ) ، تح: السيد هاشم الرسولي ط١، مكتبة بني هشام ،قم ١٣٨١هـ .
- كلمة في التفسير، مقدمة لمجمع البيان للطبرسي، أحمد رضا، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٤٢٢هـ .
- لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي البصري، ط٤، دار صادر ، بيروت ٢٠٠٥ م.
- مباحث في التفسير الموضوعي ، د. مصطفى مسلم، ط٣، دار القلم ، دمشق ١٤٢١هـ .
- المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد حسين علي الصغير، ، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي، ط٢، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٤٢٥هـ .
- محاضرات في التفسير الموضوعي، د. عباس عوض الله عباس، ط١، دار الفكر ، دمشق ١٤٢٨هـ .
- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٤هـ .
- مدح القلة وذم الكثرة، للإمام الأعظم زيد بن عليّ (عليهما السلام) مُنتزع من مجموع كتبه ورسائله، تح: ابراهيم يحيى الدرسي الحمزي ، منشورات مركز أهل البيت (عليهم السلام) للدراسات الاسلاميّة، اليمن – صعدة .
- مدخل التفسير، الشيخ فاضل اللنكراني، تح: مركز فقه الأئمة الأطهار، ط٤ ،دار اعتماد، قم المقدسة (د.ت).
- المدخل إلى التفسير الموضوعي ،عبد الستار فتح الله سعيد ، دار التوزيع والنشر الاسلامية ١٤٠٦هـ.
- المدخل إلى التفسير الموضوعيّ، د. إبراهيم بن صالح الحميصيّ، ط٣، دار ابن الجوزي، ١٤٤٢هـ .

- المدخل إلى علم التفسير، د. دريد موسى داخل الأعرجي، ط١مؤسسة دار الصادق، بابل، ١٤٣٧هـ .
- المدرسة القرآنيّة، محمد باقر الصدر (ت: ١٤٠٠هـ) ط٢، دار الكتاب الإسلامي، ١٤٣٤هـ .
- المستشرقون والدراسات القرآنيّة ، د. محمد حسين علي الصغير، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت ١٤٢٠هـ .
- مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الفاتحة، محمد عبده ، ط٢، دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت) .
- مصادر التفسير الموضوعيّ، د. أحمد رحماني، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ١٤١٩هـ .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد المقري الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، ، ط١، دار الرسالة العالمية ، بيروت .
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١.
- معاني القرآن، أبو زكريّا يحيى بن زياد الفرّاء(ت ٢٠٧هـ)، تح: أحمد يوسف نجاتي، ط١، دار الكتب المصريّة ١٣٧٤هـ .
- معجم تفاسير القرآن الكريم، د. عبد القادر زمامة، د. عبد الوهاب التازي سعود، وآخرين، ط١، دار التقريب بين المذاهب، بيروت، ١٤٢٤ هـ .
- معجم تفاسير القرآن الكريم، د. عبد الوهاب التازي سعود، و د. محمد الكتاني ، ط١، دار التقريب بين المذاهب الاسلاميّة، بيروت ١٤٢٤هـ .
- معجم مجمع البحرين، الشيخ فخر الدِّين الطريحي(ت ١٠٨٥هـ)ط١،مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤٣٠هـ .
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: ابراهيم شمس الدّين، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٩هـ.
- معجم مقاييس اللغة، بن فارس أبي الحسين أحمد بن زكريا الرازي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٩ هـ.
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م .
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية (٧٢٨هـ)، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن، نصر حامد ، ط١، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة١٩٩٠م .
- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيميّة (ت: ٧٢٨هـ)، تح: د. عدنان زرزور ، ط٢، ١٣٩٢هـ .

- من هدي القرآن(في أموالهم) الخولي ، الأعمال الكاملة ، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨م .
- من وصف القرآن – يوم الدين والحساب، ط١، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٢م .
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، ط١، دار المعرفة، بيروت ١٩٦١م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، تح: فواز أحمد زمرلي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٥هـ .
- منطق تفسير القرآن (أصول وقواعد التفسير) محمد علي الرِّضائي الأصفهاني، تعريب: أحمد الأزرقي، ط٢، مركز المصطفى العالمي، قم المقدسة ١٤٣٦هـ .
- منطق تفسير القرآن، محمد علي الرضائي الأصفهاني، ط١، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر ، قم ١٤٣٦هـ.
- المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث، د. عقيد خالد حمودي العزّاوي، ط١، دار العطاء، دمشق ١٤٣٣هـ .
- منهج التفسير التحليلي ، د. حكمت عبيد الخفاجي، ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ١٤٤٠هـ.
- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه، د. مصطفى الجويني، ط٢، دار المعارف، القاهرة ٢٠١٢م .
- منهج المدونة المغلقة (مباحث تأسيسيّة لتفسير القرآن بالقرآن،)، أ. د حسن عبد الغنيّ الأسديّ، ط١، دار الرّافد، قم، ٢٠١٧م .
- مواقع العلوم في مواقع النجوم، جلال الدِّين بن عمر البلقينيّ (٨٢٤هـ)، تح: أنور محمود خطاب، ط٢، دار الصحابة للتراث، طنطا ٢٠٠٧م .
- موسوعة التفسير قبل عهد التدوين، محمد عمر حاجّي ،ط١، دار المكتبي، دمشق، ١٤٢٧هـ .
- الميزان في تفسير القرآن العلامة السيد محمد حُسين الطباطبائي، ط١، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٤١٧هـ.
- النبأ العظيم، محمد عبد الله درّاز ، ط١، دار القلم ، بيروت ١٩٨٤م .
- نهج البلاغة، محمد بن حسين الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، تح: الشيخ قيس العطار، ط١، مؤسسة الرافد، قم ١٤٣١هـ .
- الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان البلخي(ت ١٥٠هـ) تح: د. حاتم صالح الضامن، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٣٢هـ .
- الوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ط١، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٠هـ .

- الوحدة الموضوعيِّة في سورة يوسف (عليه السلام) د. حسن محمد باجودة، دار الكتب الحديثة، القاهرة ، ١٤٣٧ .
- يقظة الفكر، د. توفيق الحكيم، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٦م .

ثانيًا: الرّسائل والبحوث والمحاضرات الجامعيّة والمجلات:

- أبي بن كعب وتفسيره للقرآن الكريم، (رسالة ماجستير) إعداد: أحمد منجي حسين ، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، مكة، اشراف الدكتور: محمود نادي عبيدات، ١٤٠٩هـ .
- التفسير البياني للقرآن الكريم: بدايات وامتدادات، بحث طالبة الدكتوراه خولة حاجي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة تبسه في الجزائر ، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة ، المجلد ١٣ العدد الأول .
- دراسة الطبريّ للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان، محمد المالكي، بحث نشرتهُ وزارة الأوقاف في المملكة المغربية ١٩٩٦م .
- دروس في خارج الفقه، السيد كمال الحيدري، بحوث في طهارة الإنسان(٢٩)- ٣ / ربيع الثاني/ ١٤٣٨هـ .
- دروس في خارج علم الفقه، السيد كمال الحيدري، بحوث في طهارة الإنسان ٢/ ربيع الثاني/ ١٤٣٨ هـ .
- دعوة الشيخ أمين الخولي للتجديد، د. عبد الجبار الرفاعي، بحثٌ صادر من مركز أفكار للدراسات والأبحاث سنة ٢٠١٩م .
- مجلة "الهداية الإسلامية" : ٧-٨، المجلد ٢٠، محرم وصفر١٣٦٧، والجزآن ١-٢، المجلد ٢١، رجب وشعبان عام ١٣٦٧هـ.
- مجلة المعيار، مجلد : ٢٣، عدد ٤٥ لسنة ٢٠١٩م / ٣- ٥
- محاضرات في التفسير البياني، البذور والجذور للتفسير البيانيّ، المحاضرة التاسعة، أ.د رحيم كريم عليّ الشريفيّ .

ثالثًا: مواقع الانترنيت

http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mashaheer-10.asp.

ملخص

الرَّسَالة باللغةِ الانكليزية

Abstract

The objective interpretation of the Holy Qur'an is one of the most important interpretive approaches, especially in the modern era, as it relied heavily on it because it is the interpretation of the age and the future together and for its great importance it deserved this description, analysis and study.

From that came our study to monitor the roots and premises and the first foundations of this interpretation. And there were four in the light of our perception, which are (the method of interpretation of the Qur'an by the Qur'an, the theory of running and application, the theory of reflection in the Qur'an, the mindset of the interpreter).

After that, we dealt with the variable in the objective interpretation, and it was in two stages: The first: It was an appointment for the defense on time. Second: a place. We dealt with the studies of our contemporary figures after the maturity and development of this approach significantly. Then we concluded the letter with the most important findings that we have reached on this subject.

The Republic of Iraq

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Babylon / College

of Islamic Sciences

Department of Quranic Sciences/Higher

Objective Interpretation Between Fixed and Variable

(An analytical study)

A letter submitted by the student

(**Amjed Sattar Fadhil Altaii**)

To the Council of the College of Islamic Sciences / University of Babylon

It is one of the requirements for obtaining a master's thesis in (Quran Sciences)

under the supervision of

DR. Duraid Musa Dakhil Alaaraji

2022 A. 1444 A.H